

# تفسير الفخر الرازي

## المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

لإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمه  
المشهور بخطيب الري نفع الله به المسلمين

٥٤٤ - ٦٠٤ هـ



حقوق الطبع محفوظة للناشر  
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المركز الثقافي الإسلامي

دار الفكر  
للطباعة والنشر والتوزيع

## (٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا مَاتِ

يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة وكما يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى ( ألم نشرح لك ) كالعطف على قوله ( ألم يجحدك يتيما ) وليس كذلك لأن ( الأول ) كان نزوله حال اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر ( والثاني ) يقتضى أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب ، فأنى يجتمعان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكانه قيل : شرحنا لك صدرك ، وفي شرح الصدر قولان :

( الأول ) ما روى أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملاه علماً وإيماناً ووضع في صدره .

واعلم أن القاضى طعن في هذه الرواية من وجوه : ( أحدها ) أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات ، فلا يجوز أن تتقدم نبوته ( وثانيها ) أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام ، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر ( ثالثها ) أنه لا يصح أن يملا القلب علماً ، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم ( والجواب ) عن ( الأول ) أن تقويم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا ، وذلك هو المسمى بالإرهاص ، ومثله في حق الرسول عليه السلام كثير .

وأما ( الثاني والثالث ) فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذى غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذى يميل إلى المعاصي ، ويحجم عن الطاعات ، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات ، فكان ذلك كالعلامة للثبات على كون صاحبه معصوماً ، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء وبمحكم ما يريد

(والقول الثاني) أن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة ، ثم ذكر وانيه وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام لما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيئ صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله ، فاتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغره عنده كل شيء . احتمله من المشاق ، وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الموموم وماترك فيه إلا هذا المهم الواحد ، فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ، ولا يبالي بما يتوجه إليه من ألبذائهم ، حتى صاروا في عينه دون الذباب لم يجبن خوفاً من وعيدهم ، ولم يمل إلى ما لهم ، وبالجملة نشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكال الآخرة ، ونظيره قوله (فن يرده الله أن يهديه بشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وروى أنهم قالوا : يا رسول الله أين نشرح الصدر ؟ قال نعم ، قالوا وما علامة ذلك ؟ قال « التجاني عن الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والإعداد للموت قبل نزوله » وتحقق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعبه واجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت ( وثانيها ) أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير ، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشغول بأداء ما كلف به ، والشرح التوسعة ، ومعناه الإراحة من الموموم ، والعرب تسمى الغم والمهم ضيق صدر كقوله ( ولقد نعلم أنك يضيئ صدرك ) وههنا سؤالات :

(الأول) لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب ؟ (والجواب) لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال (يوسوس في صدور الناس) بإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب ، وقال محمد بن علي النزمدي : القلب محل العقل والمعرفة ، وهو الذي يقصده الشيطان ، فالشيطان يحى إلى الصدر الذي هو حصن القلب ، فاذا وجد مسلماً أغار فيه ونزل جنده فيه ، وبث فيه من الموموم والغموم والحرص فيضيئ القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا الإسلام حلاوة ، وإذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية .

(السؤال الثاني) لم قال ( ألم نشرح لك صدرك ) ولم يقل ألم نشرح صدرك ؟ (والجواب) من وجهين (أحدهما) كأنه تعالى يقول لام بلام ، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجل كما قال (إلا ليعبدون ، أقم الصلاة لذكري) فأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك ( وثانيها ) أن فيها تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام ، كأنه تعالى قال إنما شرحت صدرك لأجلك لا لأجلي .

(السؤال الثالث) لم قال ( ألم نشرح ) ولم يقل ألم أشرح ؟ (والجواب) إن حمائه على نون التعظيم ، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة ، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنهه جلالها ، وإن حملناه على نون الجميع ، فالمعنى كأنه تعالى يقول : لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي ، فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوى قلبك ، فأديت

## وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿١٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿١٣﴾

الرسالة وأنت قوى القلب ولحقتهم هيبة ، فلم يجيبوا لك جواباً ، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك ، فسبحان من جعل قوة قلبك جنباً فيهم ، وانشراح صدرك ضيقاً فيهم .

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه ، لأنك لا تقول ألم وضعنا ولكن معنى ألم نشرح قد شرحنا ، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ ، لأنه لو كان معطوفاً على ظاهره لوجب أن يقال ونضع عنك وزرك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ معنى الوزر ثقل الذنب ، وقد مر تفسيره عند قوله ( وهم يحملون أوزارهم ) وهو كقوله تعالى ( ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) .

وأما قوله ( أنقص ظهرك ) فقال علماء اللغة الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل سمع له نقيض أى صوت خفي ، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع ، أو البعير إذا أثقله الحمل فهو مثل لما كان يتقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوزاره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج بهذه الآية من أثبت المصيبة للأنبياء عليهم السلام ( والجواب ) عنه من وجهين ( الأول ) أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها ، لا يقال إن قوله ( الذي أنقض ظهرك ) يدل على كونه عظيماً . فكيف يليق ذلك بالصغائر ، لانا نقول : إنما وصف ذلك بأقراض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتنام النبي ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه ، وأما إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيها يزول به من الثواب العظيم ، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى . هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة وفيه إشكال ، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضى ، والله تعالى ذكر هذه الآية في معرض الامتنان ، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز ( الوجه الثاني ) أن يحمل ذلك على غير الذنب ، وفيه وجوه ( أحدها ) قال قتادة : كانت للنبي ﷺ ذنوب سلفت منه في الجاهلية قبل النبوة ، وقد أثقلته فغفرها له ( وثانيها ) أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي أثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والحفاظة على حقوقها ، فسهل الله تعالى ذلك عليه ، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له ( وثالثها ) الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل . وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله ، وقال له ( أن اتبع ملة إبراهيم ) . ( ورابعها ) أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه ، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) فأمنه من العذاب في العاجل ، ووعد له الشفاعة في الآجل ( وخامسها ) معناه عصمتك عن الوزر الذي ينقض ظهرك ، لو كان ذلك الذنب حاصله فسمى العصمة وضعماً مجازاً ، فن ذلك ما روى أنه حضر وليمة

## وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤١﴾

فيها دف ومزامير قبل البعثة لسمع ، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد (وسادسها) الوزر ما أصابه من الهيبة والفرع في أول ملاقاته جبريل عليه السلام ، حين أخذته الرعدة ، وكاد يرمى نفسه من الجبل ، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرمى بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه (وسابعها) الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة ، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه ، و[هو] يقول « اللهم اهد قومي » (وثامنها) لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة ، فلقد كان فراقهما عليه وزراً عظيماً ، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياة فارتفع له الذكر ، فلذلك قال ( ورفعنا لك ذكرك ) (وثاسعها) أن المزد من الوزر والثقل الحيرة التي كانت له قبل البعثة ، وذلك أنه بكال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه ، حيث أخرجه من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم ، فقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء ، لأنه عليه السلام كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع ، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه ، فلما جاءت النبوة والتكليف وعرف أنه كيف ينبغي له أن يطيع ربه ، فحينئذ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الأحوال ، فإن اللثم لا يستحي من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة ، والإنسان الكريم النفس إذا تبرأ لإتمام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة ، فإنه يتقل ذلك عليه جداً ، بحيث يئمه الحياء ، فإذا كافه المنعم بنوع خدمه سهل ذلك عليه وطاب قلبه .

ثم قال تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾

وأعلم أنه عام في كل ما ذكره من النبوة ، وشهرته في الأرض والسموات ، اسمه مكتوب على العرش ، وأنه يذكركم في الشهادة والتشهد ، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة ، وانتشار ذكره في الآفاق ، وأنه ختمت به النبوة ، وأنه يذكركم في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل ، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره ( والله ورسوله أحق أن يرضوه ) ، ( ومن يطع الله ورسوله ) ( وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ) ويناديه باسم الرسول والنبي ، حين ينادى غيره بالاسم بأموسى يا عيسى ، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيعون ذكره وهو معنى قوله تعالى ( سيجعل لهم الرحمن وداً ) كأنه تعالى يقول : أملاً العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك ، بل مامن فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمثلون في الفريضة أمرى ، وفي السنة أمرى وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) ( إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ) لا تأنف السلاطين من أتباعك ، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك ، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك ، والوعاظ يبايعون وعظك

## فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ، ويسلّون من وراء الباب عليك ، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ، ويرجون شفاعتك . فشرّفك باق إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر ، ويقولون إن كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى جمعنا لك مالا حتى تكون كأيسر أهل مكة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيراً عندهم ، فعدد الله تعالى عليه منته في هذه السورة ، وقال ( ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا غلا وزرك ) أى ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، ثم وعده بالغنى في الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذى بسبب أنهم عيروه بالفقر ، والدليل عليه دخول الفاء في قوله ( فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ) كأنه تعالى قال : لا يحزنك ما يقول وما أنت فيه من القلة ، فإنه يحصل في الدنيا يسر كامل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ابن عباس : يقول الله تعالى : خلقت عسراً واحداً بين يسرين ، فلن يغلب عسر يسرين ، وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : لن يغلب عسر يسرين ، وقرأ هذه الآية ، وفي تقرير هذا المعنى وجهان ( الأول ) قال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالالف واللام ، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً . وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكان أحدهما غير الآخر ، وزيف الجرجاني هذا وقال : إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان ، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية ( الوجه الثاني ) أن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى ، كما كرر قوله ( ويل يومئذ للكافرين ) ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكيها في القلوب ، كما يكرر المفرد في قولك : جاءني زيد زيد ، والمراد من اليسرين : يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد ، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة ، لقوله تعالى ( قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ) وهما حسن الظفر وحسن الثواب ، فالمراد من قوله « لن يغلب عسر يسرين » هذا ، وذلك لأن عسر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ، ويسر الآخرة كالمغمور القليل ، وههنا سؤالان :

( الأول ) ما معنى التنكير في اليسر ؟ ( جوابه ) النفخيم ، كأنه قيل : إن مع اليسر يسراً ، إن مع العسر يسراً عظيماً ، وأى يسر .

( السؤال الثاني ) اليسر لا يكون مع العسر ، لأنهما ضدان فلا يجتمعان ( الجواب ) لما

## فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل ، كان مقطوعاً به لجعل كالمقارن له .  
ثم قال تعالى ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عدد عليه نعمه السالفة ، ووعدهم بالنعم الآتية ، لا جرم بمثه على اشكر والاجتهاد في العبادة ، فقال : فإذا ( فرغت فانصب ) أى فانهب يقال نصب ينصب ، قال قتادة والضحاك ومقاتل : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة ( فانصب إلى ربك ) في الدعاء ، وارغب إليه في المسألة يعطك ، وقال الشعبي : إذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك ، وقال مجاهد : إذا فرغت من أمر دينك فانصب وصل ، وقال عبد الله إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، وقال الحسن إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة ، وقال علي بن أبي طلحة إذا كنت صحيحاً فانصب ، يعنى اجعل فراغك نصباً في العبادة يدل بحليته ما روى أن شريحاً مر برجلين يتصارعان ، فقال : الفارغ ما أمر بهذا إنما قال الله ( فإذا فرغت فانصب ) وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض ، وأن لا يخلو وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى .

وأما قوله تعالى ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ ففيه وجهان ( أحدهما ) اجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه ( وثانيها ) ارغب في سائر ما نلتهمسه ديناً ودنياً ونصرة على الأعداء إلى ربك ، وقرىء فرغب أى رغب الناس إلى طلب ما عنده ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(٩٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّانَهَا ثَمَرَاتٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الامين ﴿٢﴾  
اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الامور الشريفة ، فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما ؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان :

﴿الاول﴾ أن المراد من التين والزيتون هذان الشيان المشهوران ، قال ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذا ، ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء . .

أما التين فقالوا إنه غذاء وفاكهة ودواء ، أما كونه غذاء فالاطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمتكث في المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الترشح ويقلل البلغم ويطور الكليتين ويزيل ما في المشانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحدها ، وروى أنه أهدى لرسول ﷺ طبق من تين فأكل منه ، ثم قال لأصحابه « كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكأروها فإنها تقطع البواسير وتنفع من القرمس » وعن علي بن موسى الرضا عليهما السلام : التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج ، وأما كونه دواء ، فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن .

واعلم أن لها بعدما ذكرنا خواص : ( أحدها ) أن ظاهرها كباطنها ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر ، بل نقول إن من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه ، كالجوز والبطيخ ومنه ما يطيّب ظاهره دون باطنه كالتمر والإجاص

أما التين فإنه طيب الظاهر والباطن ( وثانيها ) أن الأشجار ثلاثة شجرة تعد وتختلف وهي شجرة الخلاف ، وثانية تعد وتقى وهي التي تأتي بالنور أولاً بعده بالثمرة كالنخلة وغيره ، وشجرة تبذل قبل الوعد ، وهي التين لأنها تخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد ، بل لو غيرت العبارة لقلت هي شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى ، بل لك أن تقول إنها شجرة تخرج الثمرة قبل أن تلبس نفسها بورق أو بورق ، والتفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها ، ثم بغيرها ، أما شجرة التين فإنها تهم بغيرها



قبل اهتمامها بنفسها ، فسائر الأشجار كأرباب المعاملة في قوله عليه السلام « ايد بنفسك ثم بمن تعول » وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فإن فضل صرفه إلى نفسه ، بل من الذين أنبى الله عليهم في قوله ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) ، ( وثالثها ) أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا اسقطت الثمرة من موضعها لم تعد في تلك السنة ، إلا التين فإنه يعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى ( ورابعها ) أن التين في النوم رجل خير غنى فمن نالها في المنام نال مالا وسعة ، ومن أكلها رزقه الله أولاداً ( وخامسها ) روى أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقه ثيابه تستر بورق التين ، وروى أنه لما نزل وكان منزراً بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين ، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغير دمها مسكا ، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها عليها من الجمال ما أعجبها ، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك ، وذلك لأن الأولى جاءت لآدم لا لأجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سرأ وإلى آدم ظاهرة ، فلا جرم غير الظاهر دون الباطن ، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة كما في وجهه وإدام من وجهه ودواء من وجهه ، وهي في أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس ، ثم لا تقتصر منفعتها غذاء بدنك ، بل هي غذاء السراج أيضاً وتولدها في الجبال التي لا توجد فيها شيء من الدهنية البتة ، وقيل من أخذ ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى ، وقال مريض لابن سيرين ، رأيت في المنام كأنه قيل لي كل اللامين تشف ، فقال كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية ، ثم قال المفسرون : التين والزيتون اسم لهدنين الماء كولين وفيهما هذه المنافع الجليلة ، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر ، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما هذه المصالح والمنافع .

( القول الثاني ) أنه ليس المراد هاتين الثمرتين ، ثم ذكروا وجوهاً ( أحدها ) قال ابن عباس هما جبلان من الأرض المقدسة ، يقال لهما بالسريانية طور تينا ، وطور زيتا ، لأنهما منبتا اللتين والزيتون ، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام . والزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل ، والطور مبعث موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ ، فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم ( وثانيها ) أن المراد من التين والزيتون مسجدان ، ثم قال ابن زيد التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس ، وقال آخرون التين مسجد أصحاب أهل الكف ، والزيتون مسجد إيليا ، وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبني على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة ، فلما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التين والزيتون ، لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون ( وثالثها )

## لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾

المراد من التين والزيتون بلدان ، فقال كعب التين دمشق والزيتون بيت المقدس ، وقال شهر ابن حوشب التين الكوفة ، والزيتون الشام ، وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان ، والقائلون بهذا القول ، إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركي قريش كل واحد منهم يعظم بلدة من هذه البلاد ، فآله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها ، أو يقال إن دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا ، والطور ومكة فيهما نعم الدين .

أما قوله تعالى ( و طور سينين ) فالمراد من ( الطور ) الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه ، واختلفوا في ( سينين ) والأولى عند النحريين أن يكون سينين وسينا اسمين للسكان الذي حصل فيه الجبل أو ضيفا إلى ذلك المكان ، وأما المفسرون فقال ابن عباس في رواية عكرمة ( الطور ) الجبل ( وسينين ) الحسن بلغة الحبشة ، وقال مجاهد ( سينين ) المبارك ، وقال الكلبي هو الجبل المشجر ذو الشجر ، وقال مقاتل كل جبل فيه شجر مشمر فهو سينين وسينا بانه النبط قال الواحدى ، والأولى أن يكون سينين اسما للسكان الذي به الجبل ، ثم ذلك سمي سينين أو سينا لحسنه أو لكونه مباركا ، ولا يجوز أن يكون سينين نعتا للطور لإضافته إليه .

أما قوله تعالى ( وهذا البلد الأمين ) فالمراد مكة والأمين : الأمن قال صاحب الكشف من أمن الرجل أمانة فهو أمين وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ، ويجوز أن يكون فعلا بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف بالأمن في قوله ( حرماً آمناً ) يعنى ذا أمن ، وذكروا في كونه آميناً وجوهاً ( أحدها ) أن الله تعالى حفظه عن الفيل على ما يأتيك شرحه إن شاء الله تعالى ( وثانيها ) أنها تحفظ لك جميع الأشياء فباح الدم عند الالتجاء إليها آمن من السباع والصيد تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء إليها ( وثالثها ) ما روى أن عمر كان يقبل الحجر ، ويقول إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ، فقال له على عليه السلام إما أنه يضر وينفع إن الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه في رق أبيض ، وكان لهذا الركن يومئذ لسان وشفطان وعينان ، فقال افتح فاك فألقمه ذلك الرق وقال تشهد لمن وافاك بالمرافاة إلى يوم القيامة ، فقال عمر لا بقيت في قوم لست فيهم يا أبا الحسن ثم قال تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ المراد من الإنسان هذه الماهية

والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التألف والتعديل ، يقال قومته تقويماً فاستقام وتقوم ، وذكروا في شرح ذلك الحسن وجوهاً ( أحدها ) أنه تعالى خلق كل ذى روح مكباً على وجهه إلا الإنسان فإنه تعالى خلقه مديد القامة يتناول ما كوله بيده وقال الأصم في اكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان ، والحاصل أن القول الأول راجع إلى الصورة الظاهرة ، والثاني إلى

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ

أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٧﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ ﴿٧﴾

السيرة الباطنة ، وعن يحيى بن أكرم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة ، فإنه حكى أن ملك زملانة خلا بزوجه في ليلة مقمرة ، فقال إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت كذا ، فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكرم فإنه قال لا يحنث ، فقيل له خالفت شيوخك ، فقال الفتوى بالعلم ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى فإنه يقول ( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ) وكان بعض الصالحين يقول : لهذا أعطيتنا في الأولى أحسن الأشكال ، فأعطينا في الآخرة أحسن الفعال ، وهو العفو عن الذنوب ، والتجاوز عن العيوب .

أما قوله تعالى ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ففقيهه وجهان : ( الأول ) قال ابن عباس يريد أرذل العمر ، وهو مثل قوله يرد إلى أرذل العمر ، قال ابن قتيبة السافلون هم الضعفاء والزمنى ، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلا ، يقال سفل يسفل فهو سافل وهم سافلون ، كما يقال علا يعلو فهو عال وهم عالون ، أراد أن الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته ويعجز عن عمل الصالحات ، فيكون أسفل الجمع ، وقال الفراء : لو كانت أسفل سافل لكان صوابا ، لأن لفظ الإنسان واحد ، وأنت تقول هذا أفضل قائم ولا تقول أفضل قائمين ، إلا أنه قيل سافلين على الجمع لأن الإنسان في معنى جمع فهو كقوله ( والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ) وقال ( وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم ) .

( والقول الثاني ) ما ذكره مجاهد والحسن ثم رددناه إلى النار ، قال علي عليه السلام وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض فيبدأ بالأسفل فيملا وهو أسفل سافلين ، وعلى هذا التقدير فالمعنى ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلى النار .

أما قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فاعلم أن هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، والمعنى ولكن الذين كانوا صالحين من الهرم فلم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله أيامه بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تحاذل بهوهم ، وأما على القول الثاني فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال .

أما قوله تعالى ﴿ فلم أجر غير ممنون ﴾ ففقيه قولان ( أحدهما ) غير منقوص ولا مقطوع ( وثانيهما ) أجر غير ممنون أى لا يمن به عليهم ، وأعلم أن كل ذلك من صفات الثواب ، لأنه يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منحصراً بالمنة .

ثم قال تعالى ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ وفيه سؤالان :

## الَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

( الأولى ) من المخاطب بقوله ( فما يكذبك ) ؟ الجواب فيه قولان ( أحدهما ) أنه خطاب للإنسان على طريقة الانتفات ، والمراد من قوله ( فما يكذبك ) أن كل من أخبر عن الواقع بأنه لا يقع فهو كاذب ، والمعنى فما الذى يلجئك إلى هذا الكذب ( والثاني ) وهو اختيار القراء أنه خطاب مع محمد ﷺ ، والمعنى فمن يكذبك يا أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل بالدين .

( السؤال الثاني ) ما وجه التعجب ؟ ( الجواب ) أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريبه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر والنشر ، فمن شاهد هذه الحالة ثم بق مصرأ على إنكار الحشر فلا شيء أعجب منه .

قوله تعالى : ﴿ اليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تفسيره وجهين ( أحدهما ) أن هذا تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر ، يقول الله تعالى : اليس الذى فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيراً ، وإذ ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه ، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة ، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدر في الحكمة ، كما قال تعالى ( وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ) . ( والثاني ) أن هذا تنبيه من الله تعالى لئيبه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال القاضى هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم ، فإنه لو كان الفاعل لأفعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب في سفه فهو من الله تعالى ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء ، كما أنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب في الحكمة إلا من الله تعالى ، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء ، ولما ثبت في حقه تعال الأمران لم يكن وصفه بأنه أحكم الحكماء أولى من وصفه بأنه أسفه السفهاء . ولما امتنع هذا الوصف في حقه تعالى علمنا أنه ليس خالقاً لأفعال العباد ( والجواب ) المعارضة بالهلم والداعى ، ثم نقول : السفه من قامت السفاهة به لا من خلق السفاهة ، كما أن المتحرك والساكن من قامت الحركة والسكون به لا من خلقهما ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،



(٩٦) سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا نَشِئْ عَشِيْرَةً

زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ اعلم أن في الباء من قوله ( باسم ربك ) قولين ( أحدهما ) قال أبو عبيدة الباء زائدة ، والمعنى : اقرأ اسم ربك ، كما قال الأختل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المحاجر لا يقرآن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك ، أى أذكر اسمه ، وهذا القول ضعيف لوجوه ( أحدها ) أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول ما أنا بقارىء ، أى لا أذكر اسم ربى ( وثانها ) أن هذا الأمر لا يليق بالرسول ، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله ، فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولاً به أبداً ( وثالثها ) أن فيه تضييع الباء من غير فائدة .

( القول الثانى ) أن المراد من قوله ( اقرأ ) أى اقرأ القرآن ، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى ( فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ) وقال ( وقرآننا فرقنا لتقرأه على الناس على مكث ) وقوله ( باسم ربك ) يحتمل وجوهاً ( أحدها ) أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ ، وفي هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية في ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به ، وفي هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يبتدىء بها ( وثانها ) أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستمعيناً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا ، ونظيره كتبت بالقلم ، وتحقيقه أنه لما قال له ( اقرأ ) فقال له لست بقارىء ، فقال ( اقرأ باسم ربك ) أى استعن باسم ربك واتخذه آلة في تحصيل هذا الذى عسر عليك ( وثالثها ) أن قوله ( اقرأ باسم ربك ) أى اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله ، فإن العبادة

إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترى الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل كيف يستمر هذا التأويل في قولك قبل الاكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا فيه وجهان ( أحدهما ) أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيقتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فملك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركة الشيطان في ذلك الطعام ( والثاني ) أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .

أما قوله ( ربك ) ففيه سؤالان :

( أحدهما ) وهو أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأننا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا ( باسم ربك ) ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال في التسمية المعروفة ( بسم الله الرحمن الرحيم ) ( وجوابه ) أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال هو الذي ربك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين ( أحدهما ) رببتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل ( والثاني ) أن الشروع يلزم للتمام ، وقد رببتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أى حين كنت علقاً لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نفيساً موحداً عارفاً بى كيف أضيعك !

( السؤال الثانى ) ما الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه ، فقال ( باسم ربك ) ؟ ( الجواب ) تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا ، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام « على منى وأنا منه » كأنه تعالى يقول هو لى وأنا له ، يقرره قوله تعالى ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) أو تقول إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم في الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول هو ابنى فحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى المنفعة تصل منى إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول أما لك ولا أقول أنت لى ، ثم إذا أتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسى فقلت أنزل على عبده ( يا عبادى الذين أسرفوا ) .

( السؤال الثالث ) لم ذكر عقيب قوله ( ربك ) قوله ( الذى خلق ) ؟ ( الجواب ) كأن العبد يقول ما الدليل على أنك ربى ؟ فيقول لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوماً . ثم صرت موجوداً فلا بد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أنى ربك وأنت مربوبى .

## الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن يكون قوله ( الذي خلق ) لا يقدر له مفعول ، ويكون المعنى أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لخالق سواه ( والثاني ) أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس حملة على البعض أولى من حملة على الباقي ، كقولنا الله أكبر ، أى من كل شيء ، ثم قوله بعد ذلك ( خلق الإنسان من علق ) تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن النزول إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض ( والثالث ) أن يكون قوله ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ) مبهماً ثم فسره بقوله ( خلق الإنسان من علق ) تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشراكة فيها ، قالوا وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هي القدرة على الاختراع وما يؤكده ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله ، فقال : ( وما رب العالمين ) قال موسى ( ربكم ورب آبائكم الأولين ) والربوبية إشارة إلى الخالقية التي ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى ، أو النظر في

معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يعثه رسولا إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدم ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به كما يحكى إن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبي حنيفة . وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر في المسألة أقاويل أمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر ، واذكر قولي وحجتي ، فإذا تمكن ذلك في قلبهم ، فقل هذا قول أبي حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول ، إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أنثيت على وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك ، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلق فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه ، فهذا التدرج بقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، كما قال تعالى ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية وحصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى ( أفمن يخلق كمن لا يخلق ) ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل ، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر ، وإن كان قديماً فيما أن يكون موجباً

## أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿١﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٢﴾

أو قادراً ، فإن كان موجباً لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال ( من علق ) على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع ، كقوله ( إن الإنسان لفي خسر ) .

قوله تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم اقرأ أولاً لنفسك ، والثاني للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم . أو اقرأ في صلاتك ، والثاني خارج صلاتك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكرم إفادة ما ينبغي لا لعوض ، فمن يهب السكين بمن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم ، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ، ولهذا قال أصحابنا إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلاً لغرض لأنه لو فعل فعلاً لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لا حصوله ، فيئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصاً بذاته مستكلاً بغيره وذلك محال ، ثم ذكروا في بيان كرميته تعالى وجوهاً ( أحدها ) أنه كرم من كريم يحلم وقت الجناية ، لكن لا يبق إحسانه على الوجه الذي كان قبل الجناية ، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ومنه قول القائل :

متى زدت تقصيراً زد لي تفضلاً كأنى بالتقصير أستوجب الفضلاً

( وثانيها ) إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً . أما أنا فالأكرم إذ لا أفعله إلا لمحض الكرم ( وثالثها ) أنه الأكرم لأن له الابتداء في كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير ( ورابعها ) يحتمل أن يكون هذا حقاً على القراءة أي هذا الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشرأ أو حقاً على الإخلاص ، أي لا تقراً لطمع ولكن لأجلى ودع على أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك ما لا يخطر ببالك ، ويحتمل أن المعنى مجرد لدعوة الخلق ولا تحف أحداً فأنا أكرم من أن أمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ( خلق الإنسان من علق ) وثانياً بأنه علقه وهي بالقلم ) ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين ، لكن التحقيق أن أول حوال الإنسان كونه علقه وهي أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة ، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات



## عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾

الإنسانية ، كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والإفطار والرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم هو الذي أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية في الشرف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله ( باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ) إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله ( الذي علم بالقلم ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثاني إلى النبوة ، وقدم الأول على الثاني تذكيراً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في قوله ( علم بالقلم ) وجهان ( أحدهما ) أن المراد من القلم الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها ( والثاني ) أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، بروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريةً عن الكلام ، فقال ربح لا يبق ، قال فما قيده . قال الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكي ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبحركته تبق العلوم على مر الليالي والأيام ، نظيره قول زكريا ( إذ نادى ربه نداء خفياً ) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد مبصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم ، التراب طهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل عن اللسان ولو بعث إلى المشرق والمغرب .

أما قوله تعالى ﴿ على الإنسان ما لم يعلم ﴾ فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر واو النسق ، وقد يجرى مثل هذا في الكلام تقول أكرمك أحسنت إليك ملكتك الأموال ولينك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه ، فيكون قوله ( علم الإنسان ما لم يعلم ) بياناً لقوله ( علم بالقلم ) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا إلى آخرها في أبي جهل . وقيل نزلت من قوله ( أرايت الذي ينهى عبداً ) إلى آخر السورة في أبي جهل . قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فجاء أبو جهل ، فقال ألم أمهك عن هذا ؟ فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال

أبو جهل : والله إنك لتعلم أني أكثر أهل الوادي نادياً ، فأزل الله تعالى ( فليدع ناديه ، سندع الزبانية ) قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لاخذته زبانية الله ، فكأنه تعالى لماعرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعزراً بما له ورياسته في مكة . ويروى أنه قال ليس بمكة أكرم مني . ولعله لعنه الله قال ذلك ردأ لقوله ( وربك الكرم ) ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل منازل . ومنهم من قال : يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولاً ، ثم نزلت البقية بعد ذلك في شأن أبي جهل ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ، لأن تأييف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى ، ألا ترى أن قوله تعالى ( وانفخوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ) آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل ( القول الثاني ) أن المراد من الإنسان المذكور في هذه الآية جملة الإنسان ، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات ، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر ، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقه ، وأنعم عليه بالنعم التي قدمنا ذكرها ، إذ أغناه ، وزاد في النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد في المعاصي وإتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه طريقة ، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله ( إن إلى ربك الرجعى ) أى إلى حيث لا مالك سواه ، فتقع المحاسبة على ما كان منه من العمل والمواخذة بحسب ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( كلا ) فيه وجوه ( أحدها أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ( وثانيها ) قال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذى خلقه من العلقه وعلمه بعد الجهل ، وذلك لأنه عند صيرورته غيباً يطغى ويتكبر ، وبصير مستغرق القلب في حب الدنيا فلا يتفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها ( وثالثها ) ذكر الجرجاني صاحب النظم أن ( كلا ) ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شيء . تكون ( كلا ) ردأ له ، وهذا كما قالوه في ( كلا والقمر ) فإنهم زعموا أنه بمعنى : إى والقمر :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الطغيان هو التكبر والتمرد ، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يعبد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها . أتبعها بما هو السبب الأصيل في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة ، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك . فإن قيل إن فرعون ادعى الربوبية ، فقال الله تعالى في حقه ( اذهب إلى فرعون إنه طغى ) وههنا ذكر في أبي جهل ( ليطغى ) فأكد هذه اللام ، فما السبب في هذه الزيادة ؟ قلنا فيه وجوه ( أحدها ) أنه قال لموسى ( اذهب إلى فرعون إنه طغى ) وذلك قبل أن يلقاه موسى ، وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وقبل أن يدعى الربوبية . وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد ( وثانيها ) أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول ، وما كان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه . وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان

## أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَى ﴿٨﴾

يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاه ( وثالثها ) أن فرعون أحسن إلى موسى أولاً ، وقال آخراً ( آمنت ) . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه ، وقال في آخر رملته : بلغوا عنى محمداً أنى أموت ولا أحد أبغض إلى منه ( ورابعها ) أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده ، بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

قوله تعالى : ﴿ أن رآه استغنى ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الاخفش : لأن رآه لحذف اللام ، كما يقال أنكم لتطفون أن رأيتم غناكم .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال ( أن رآه ) ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تستدعى اسماً وخبراً نحو الظل والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فنقول رأيتى وظننتى وحسبنتى فقوله ( أن رآه استغنى ) من هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله ( استغنى ) وجهان : ( أحدهما ) استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس هو الأول ، لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام ، فإنه كان يجالس المساكين ويقول « مسكين جالس مسكيناً » وعبد الرحمن بن عوف ما طفى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما حال الغنى فإنه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه ، وفي الآية ( وجه ثانى ) : وهو أن سين ( استغنى ) سين الطالب والمعنى أن الإنسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلك الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد ، لأنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين ، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعالهم وقوتهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

قوله تعالى : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ( الرجعى ) المرجع والرجوع وهى بأجمعها مصاد ، يقال رجع إليه رجوعاً

## أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۖ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١﴾

ومرجماً ورجعى على وزن فعلى ، وفي معنى الآية وجهان : (أحدهما) أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله ( ولا تحسبن الله غافلاً ) إلى قوله ( إنما يؤخرم ليوم تشخص فيه الأبصار ) وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قلب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل (والقول الثاني) أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كرده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجحادية إلى الحياة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التميز والقوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أنزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فمدع ديننا وتببع دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم .

قوله تعالى : ﴿ أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن أبي جهل لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال فوالذي يحلف به إن رأيت لأطأن عنقه ، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال إن بيني وبينه لخندقان نار وهزلا شديداً . وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة .

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد في هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره ، فلذلك قالوا إنه ورد في أبي جهل ، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام - حين رآه يصلي ، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل ، ثم يعم في الكل ، لكن ما بعده يقتضى أنه في رجل بعينه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( أرايت ) خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يعز به الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو ( ينهى عبداً إذا صلى ) (وثانيها) أنه كان يلقب بأبي الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أي وصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان ( وثالثها ) أن ذلك الأحق بأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب ، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ( ينهى عبداً ) ولم يقل ينهك ، وفيه فرائد (أحدها) أن التشكير في عبداً يدل على كونه كالعبدية ، كأنه يقول : إنه عبد لابن العباد بشرح بيانه وصفة إخلاصه في

## أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾

عبوديته ( بروى ) في هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته فقال أخبرني عن أخلاق رسولكم ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به مني . ثم إن بلال دلّه على فاطمة ثم فاطمة دلته على علي عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل هذا لا يتيسر لي ، فقال علي : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال ( قل متاع الدنيا قليل ) فكيف أصف أخلاق النبي وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال ( وإِنَّكَ لَمِنَ أَمْثَلِ خَلْقٍ عَظِيمٍ ) فكأنه تعالى قال ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحق ( وثانيها ) أن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهي كل من يرى ( وثالثها ) أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة ، روى عن علي عليه السلام أنه رأى في المصلى أقراماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له ألا تهام ؟ فقال أخشى أن أدخل تحت قوله ( أ رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ) فلم يصرح بالنهي عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لي ؟ قال يقول ربنا لك الحمد ويوجد ولم يصرح بالنهي ( ورابعها ) أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي لأجد ساجداً غيره ، إن محمراً عبداً واحداً ، ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا وهم دائماً في الصلاة والتسبيح ( وخامسها ) أنه تفخيم لشأن النبي عليه السلام يقول إنه مع التنكير . عرف ، نظيره الكناية في سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر ( أسرى بعبده ) ( أنزل على عبده ) ( وأنه لما قام عبد الله ) .

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله ( أ رأيت ) خطاب لمن ؟ فيه وجهان ( الأول ) أنه خطاب للنبي عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله ( أ رأيت الذي ينهى عبداً ) للنبي صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله ( أ رأيت إن كذب وتولى ) للنبي عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبي لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يا محمد : أ رأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول أ رأيت إن صار علي الهدي ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة ، فلو اختار الدين والهدي والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وفتح بالمراتب الدينية .

﴿ القول الثاني ﴾ أنه خطاب للكافر ، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم ، وكالمولى الذي

قام بين يديه عبدان ، وكالحاكم الذي حضر عنده المدعى ، والمدعى عليه نخطب هذا مرة ، وهذا

## أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾

مرة . فلما قال للنبي (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) التفت بعد ذلك إلى الكافر ، فقال : أرأيت يا كافر إن كانت صلواته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أنتهاء مع ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا سؤال وهو أن المذكور في أول الآية . هو الصلاة وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) والمذكور ههنا أمران ، وهو قوله (أرأيت إن كان على الهدى) في فعل الصلاة ، فلم ضم إليه شيئاً ثانياً ، وهو قوله (أو أمر بالتقوى) ؟ (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الذي شق على أبي جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله ، فلا جرم ذكرهما ههنا (وثانيتها) أن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا في أحد أمرين ، إما في إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو في إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى (وثالثها) أنه عليه السلام كان في صلواته على الهدى وأمراً بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه . فيميل إلى الإيمان ، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أفرى من الدعوة بلسان القول .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ وفيه قولان :

(القول الأول) أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التي ذكرها في أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم بيديه عقله ، أن منع العبد من خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذا نكل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم أنه على الباطل ، وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً . فلهذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أملا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة (وثاني) أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينهى بل احتاج إلى نهيك .

أما قوله ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، ترغيباً عظيماً لاهل الطاعة

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد ، ولا يرد عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة والاقوات المكروهة ، لأن المنهى عنه غير الصلاة وهو المعصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل

## كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء صلحته بإذن ربه لا بفضا العبادة ربه .  
ثم قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ وفيه وجوه ( أحدها ) أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نبيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات ( وثانيها ) كلالا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمداً أو يبطأ عنقه ، بل تلبذ محمد هو الذي يقتله ويبطأ صدره ( وثالثها ) قال مقاتل : كلالا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .  
ثم قال تعالى ﴿ لئن لم ينته ﴾ أي عما هو فيه ﴿ لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( لنسفعا ) وجوه ( أحدها ) لناخذن بناصيته وانسجنته به إلى النار ، والسفع القبض على الشيء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله ( فيؤخذ بالناصية والأقدام ) ( وثانيها ) السفع الضرب ، أي لئلاطمن وجهه ( وثالثها ) لتسودن وجهه ، قال الخليل تقول للشئ إذا لفته النار لفعاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفته النار ، قال والسفع ثلاثة أحجار بوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال والسفعة سواد في الحديد . وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والاهانة ( ورابعها ) لتسمنه قال ابن عباس في قوله ( تسمنه على الخزطرم ) إنه أبو جهل ( وخامسها ) لتذله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ لنسفن بالنون المشددة ، أي الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال ( فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ) وقرأ ابن مسعود لأسعفن ، أي يقول الله تعالى يا محمد . أنا الذي أتولى إهانتته ، نظيره ( هو الذي أيدك ) ، ( هو الذي أنزل السكينة ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار في الآخرة وأن يكون المراد منه في الدنيا ، وهذا أيضاً على وجوه ( أحدها ) ما روى أن أبا جهل لما قال : إن رأيتني يصلح لاطان عنقة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبي جهل ويخر الله ساجداً في آخرها ففعل ، فعدا إليه أبو جهل ليبطأ عنقه ، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً ، فقيل له مالك ؟ قال إن بيني وبينه خلا فاعراً فاه لو مشيت إليه لا لتقمني ، وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه في صورة الأسد ( والثاني ) أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إلى القتل إذا عاد إلى النهي ، فلما عاد لاجرم مكنتهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر ، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن ( علم القرآن ) قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش ، فتناقلوا مخافة أذيتهم ، فقام ابن مسعود وقال : أنا بارسول الله ، فأجلسه عليه السلام ، ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يبق إلا ابن مسعود ، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يبق عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر

جثته . ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام أبو جهل فاطمه فشق أذنه وأدماه ، فانصرف وعيناه تدمع ، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً ، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً ، فقال يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي ! فقال ستعلم ، فلما ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في المجاهدين ، فأخذ يطالع القتلى . فإذا أبو جهل مصروع يخور ، يخاف أن تسكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولمعل هذا معنى قوله ( سندسه على الخرطوم ) ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال يارويى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فقال أبو جهل : بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه في حياتي ولا أحد أبغض إلى منه في حال مآتي ، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال « فرعونى أشد من فرعون موسى فإنه قال ( آمنت ) وهو قد زاد عتواً » ثم قال لابن مسعود أقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع ، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، ولمعل الحكيم سبحانه إنما خلفه ضعيفاً لاجل أن لا يقوى على الحمل لوجره : ( أحدها ) أنه كلب والكلب يجر ( والثاني ) لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن ( والثالث ) لتحقيق الوعيد المذكور بقوله ( لنسفماً بالناصية ) فتجر تلك الرأس على مقدمها ، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ، ويقول يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن ، فهذا ماروى في مقتل أبي جهل نقلته معنى لالة ظاً ، الخاطيء . معنى قوله ( لنسفماً بالناصية ) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الناصية شعراً الجبهة وقد يسمى مكان الشعر الناصية ، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية ، ولعل السبب فيه أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطيبها ، وربما كان يتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عند كرم ذاتها لكنها مجرولة عند كرم صفاتها ناصية وأى ناصية كاذبة قولاً خاطئة فعلاً ، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي ، وقيل كذبه أنه قال . أنا أكثر أهل هذا الوادى نادياً ، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى ( لا يأكله إلا المالخظرون ) والفرق بين الخاطيء والمخطيء أن الخاطيء معاقب مؤاخذ والمخطيء غير مؤاخذ ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في قوله تعالى ( إلى ربها ناظرة ) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ( ناصية ) بدل من الناصية ، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة ، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة .



## فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرئ . ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية ، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم ، واعلم أن الرسول عليه السلام لم أغلظ في القول لأني جاهل وتلا عليه هذه الآيات ، قال : يا محمد بمن تهددني وإني لا أكثر هذا الوادي نادياً ، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه ، فنزل قوله تعالى ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد مر تفسير النادى عند قوله ( وتأتون في ناديك المنكر ) قال أبو عبيدة ناديه أى أهل مجلسه ، وبالجملة فالمراد من النادى أهل النادى ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، وسمى نادياً لأن القوم يندون إليه ندأ وندوة ، ومنه دار الندوة بمكة ، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور ، وقيل سمي نادياً لأنه مجلس الندى والجود ، ذكر ذلك على سبيل التهكم أى : اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبنة وأصله من زبنة إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن ، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبنة عفرية ، وقال الأخفش قال بعضهم واحده الزباني ، وقال آخرون الزان ، وقال آخرون هذا من الجمع الذى لا واحد له من لفظه في لغة العرب مثل أبييل وعبايد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة . وقال مقاتل هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء ، وقال قتادة الزبانية هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة العلاظ الشداد ، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أى يدفعونهم في جهنم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان ( الأول ) أى فليدفع ماذ كره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباينة محمد ، فإنه لو فعل ذلك فنجح ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم ، قال ابن عباس : لودعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة ، وقيل هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر ، وقيل بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار ( القول الثانى ) أن في الآية تقديم وتأخير أى لنسفم بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة ، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله ( فليدع ناديه ) تدل على المعجز ، لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه ، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية ، فلما لم يجترأ الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرئ . ( ستدعى ) على الجهول . وهذه السين ليست للشك وإن عسى

## كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

من الله واجب الوقوع ، وخصراً عند إشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام « لا نصرنك ولو بعد حين » .

ثم قال ﴿ كَلَّا ﴾ وهو ردع لا يبي جهل ، وقيل معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو نأديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحق من أن يقارمك ، ويحتمل : لن ينال ما يمتنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال ﴿ لا تطعه ﴾ وهو كقوله ( فلا تطع المكذبين ) ، ﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلاً وإبلاغاً ، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقربك وناصرك ، وقال بعضهم بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود في الصلاة .

ثم قال ﴿ واقترِبْ ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفي الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » وقال بعضهم المراد : اسجد يا محمد ، واقترِبْ يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله ( ايغيب بهم الكفار ) والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفار كان يمنعه من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أنهم ، ثم قال عند ذلك ( واقترِبْ ) منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه ، وهذا تمك به واستحقار لشأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(٩٧) سُورَةُ الْقَدْرِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّانَهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ أجمع المفسرون على أن المراد: إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، ولكنه تعالى ترك التصريح بالذکر، لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه أسند إنزاله إليه وجعله محتصاً به دون غيره (والثاني) أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر. شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل ولم يخف على أحد لاشتهاره، وقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم) لم يذكر الموت لشهرته، فكذا ههنا (والثالث) تعظيم الوقت الذي أنزل فيه.

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى قال في بعض المواضع (إني) كقوله (إني جاعل في الأرض خليفة) وفي بعض المواضع (إنا) كقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر). (إنا نحن نزلنا الذکر)، (إنا أرسلنا نوحاً)، (إنا أعطيناك الكوثر). وأعلم أن قوله (إنا) تارة يراد به التعظيم، وحمله على الجمع محال لأن الدلائل دلت على وحدة الصانع، ولأنه لو كان في الآلهة كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الإلهية، لأنه لو كان كل واحد منهم قادراً على الكمال لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم، وكونه مستغنى عنه نقص في حقه فيكون الكل ناقصاً، وإن لم يكن كل واحد منهم قادراً على الكمال كان ناقصاً، فعلينا أن قوله (إنا) محمول على التعظيم لاعلى الجمع.

﴿المسألة الثالثة﴾ إن قيل ما معنى إنه أنزل في ليلة القدر، مع العلم بأنه أنزل نجومياً؟ قلنا فيه وجوه: (أحدهما) قال الشعبي ابتداء بإنزاله ليلة القدر لأن البعث كان في رمضان (والثاني) قال ابن عباس أنزل إلى سماء الدنيا جملة ليلة القدر، ثم إلى الأرض نجومياً، كما قال (فلا أفسم بمواقع النجوم) وقد ذكرنا هذه المسألة في قوله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) لا يقال: فعلى هذا القول لم يقل أنزلناه إلى السماء؟ لأن إطلاقه يوم الإنزال إلى الأرض، لانا نقول إن إنزاله إلى السماء كما إنزاله إلى الأرض، لأنه لم يكن ليشرع في أمرهم لا يتمه، وهو كغائب جاء إلى نواحي البلد

يقال جاء فلان ، أو يقال الغرض من تقريبه وإزاله إلى سماء الدنيا أن يشوقهم إلى نزوله كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لوالده أو أمه ، فانه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

وهذا لأن السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة . فهي لهم مسكن ولنا سقف وزينة ، كما قال : (وجعلنا السماء سقاً) بإزاله القرآن هناك كإزاله ههنا ( والوجه الثالث في الجواب ) أن التقدير أنزلنا هذا الذكر ( في ليلة القدر ) أى في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القدر مصدر قدرت أقدر قدراً ، والمراد به ما يمضيه الله من الأمور ، قال ( إنا كل شيء خلقنا بقدر ) والقدر ، والقدر واحد إلا أنه بالسكينة مصدر وبالفتح اسم ، قال الواحدي القدر في اللغة معنى التقدير ، هو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، واختلفوا في أنه لم سميت هذه الليلة ليلة القدر ، على وجوه ( أحدهما ) أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام ، قال عطاء . عن ابن عباس أن الله تدر ما يكون في كل تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، ونظيره قوله تعالى ( فيها يفرق كل أمر حكيم ) واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة ، فإنه تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل ، بل المراد إظهار تلك الليلة المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ ، وهذا القول اختيار عامة العلماء ( الثاني ) نقل عن الزهري أنه قال ( ليلة القدر ) ليلة العظمة والشرف من قولهم لفلان قدر عند فلان ، أى منزلة وشرف ، ويدل عليه قوله ( ليلة القدر خير من ألف شهر ) ثم هذا يحتمل وجهين ( أحدهما ) أن يرجع ذلك إلى الفاعل أى من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف ( وثانيهما ) إلى الفعل أى الطاعات لها في تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد ، وعن أبي بكر الوراق سميت ( ليلة القدر ) لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، على أمة لها قدر ، ولعل الله تعالى إنما ذكر لفظة القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب .

﴿ والقول الثالث ﴾ ليلة القدر ، أى الضيق فإن الأرض تضيق عن الملائكة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه ( أحدها ) أنه تعالى أخفاهما . كما أخفى سائر الأشياء ، فإنه أخفى رضاه في الطاعات ، حتى يرغبوا في الكل ، وأخفى غضبه في المعاصي ليجتزرزروا عن الكل ، وأخفى وليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل ، وأخفى الإجابة في الدعاء ليعالوا في كل الدعوات ، وأخفى الإسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليوأظب المكلف على جميع أقسام التوبة ، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف ، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان ( وثانيها ) كأنه تعالى يقول : لو عيذت ليلة القدر ، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية ، فربما دعوتك الشهوة في

تلك الليلة إلى المعصية ، ف وقعت في الذنب ، فكانت معصيتك مع عليك أشد من معصيتك لا مع عليك ، فهذا السبب أخفيها عليك ، روى أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائماً ، فقال يا علي نبه ليتوضأ ، فأيقظه علي ، ثم قال علي يا رسول الله إنك سباق إلى الخيرات ، فلم لم تنبهه ؟ قال : لأن رده عليك ليس بكفر ، ففعلت ذلك لتخف جنايته لو أرى ، فإذا كان هذا رحمة الرسول ، فقس عليه رحمة الرب تعالى ، فكأنه تعالى يقول : إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر ، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر ، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب (وثالثها) أرى أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها ، فيكتسب ثواب الاجتهاد (ورابعها) أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر ، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان ، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر ، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته ، ويقول : كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء . فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة ، فكيف لو جعلها معلومة له ! فحينئذ يظهر سر قوله : (إني أعلم ما لا تعلمون) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلفوا في أن هذه الليلة هل تسبغ اليوم ؟ قال الشعبي نعم يومها كليتها ، وأمل الوجه فيه أن ذكر الليالي يستبغ الأيام ، ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين الزمان يوميهما قال تعالى ( وهو الذي جعل الليل والنهار خليفة ) أي اليوم يخلف ليلته وبالضد .

﴿ المسألة السابعة ﴾ هذه الليلة هل هي باقية ؟ قال الخليل : من قال إن فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرة ، والجمهور على أنها باقية ، وعلى هذا هل هي مختصة برب رمضان أم لا ؟ روى عن ابن مسعود أنه قال : من يقيم الحول يصبها ، وفسرها عكرمة ببلدة البراءة في قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) والجمهور على أنها مختصة بربضان واحتجوا عليه بقول تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وقال (إنا أنزلناه في ليلة القدر) فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان ثلاثاً يلزم التناقص ، وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية أقوال ، فقال ابن رزين ليلة القدر هي الليلة الأولى من رمضان ، وقال الحسن البصري السابعة عشرة ، وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشرة ، وقال محمد بن إسحق الحادية والعشرون . وعن ابن عباس الثالثة والعشرون ، وقال ابن مسعود الرابعة والعشرون ، وقال أبو ذر الغفاري الخامسة والعشرون ، وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون ، وقال بعضهم التاسعة والعشرون . أما الذين قالوا إنها الليلة الأولى [فقد] قالوا : روى وهب أن صحف إبراهيم أنزلت في الليلة الأولى من رمضان والتوراة لست ليال تمضي من رمضان بعد صحف إبراهيم بسبعائة سنة ، وأنزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بخمسمائة عام وأنزل الإنجيل على عيسى ثمان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستمائة عام وعشرين عاماً ، وكان القرآن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة قدر من السنة إلى السنة كان جبريل عليه السلام ينزل به من بيت العزة من السماء

## وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿١﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢﴾

السابعة إلى سماء الدنيا ، فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهراً في عشرين سنة ، فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذي حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة ، لاجرم كان في غاية الشرف والقدر والرتبة فكانت الليلة الأولى منه ليلة القدر ، وأما الحسن البصرى فإنه قال هي ليلة سبعة عشر ، لأنها ليلة كانت صديحتها وقعة بدر ، وأما التاسعة عشرة فقد روى أنس فيها خبراً ، وأما ليلة السابع والعشرين فقد مال الشافعى إليه لحديث الماء والطين ، والذي عليه المعظم أنها ليلة السابع والعشرين ، وذكروا فيه أمارات ضعيفة ( أحدها ) حديث ابن عباس أن السورة ثلاثون كلمة ، وقوله ( هي ) هي السابعة والعشرون منها ( وثانيها ) روى أن عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس غص يا غواص فقال زيد بن ثابت أحضرت أولاد المهاجرين وما أحضرت أولادنا . فقال عمر : لعلك تقول إن هذا غلام ، ولكن عنده ما ليس عندكم . فقال ابن عباس أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر أحب الوتر إليه السبعة ، فذكر السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع ودركات النار وعدد الطواف والأعضاء السبعة ، فدل على أنها السابعة والعشرون ( وثالثها ) نقل أيضاً عن ابن عباس ، أنه قال ( ليلة القدر ) تسعة أحرف ، وهو مذكور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين ( ورابعها ) أنه كان لعثمان بن أبي العاص غلام ، فقال يامولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر ، قال : إذا كانت تلك الليلة ، فأعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان . وأما من قال إنها الليلة الأخيرة قال لأنها هي الليلة التي تتم فيها طاعات هذا الشهر ، بل أول رمضان كآدم وآخره كمحمد ، ولذلك روى في الحديث ، يعتق في آخر رمضان بعدد ما أعتق من أول الشهر ، بل الليلة الأولى كمن ولد له ذكر ، فهي ليلة شكر ، والأخيرة ليلة الفراق ، كمن مات له ولد ، فهي ليلة صبر ، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر .

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ يعنى ولم تبلغ درايتك غاية فضائها ومنتهى علو قدرها ، ثم إنه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة أوجه :

( الأول ) قوله تعالى ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير الآية وجوه ( أحدها ) أن العبادة فيها ( خير من ألف شهر ) ليس فيها هذه الليلة ، لأنه كالمستحيل أن يقال إنها ( خير من ألف شهر ) فيها هذه الليلة ، وإما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والأزراق وأنواع الخير ( وثانيها ) قال مجاهد : كان في بنى إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر ، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، أى ليلة القدر لأمته خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر ( وثالثها ) قال مالك بن أنس : أرى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعمار الناس ، فاستقصر أعمار أمته ، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم (ورابعها) روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن ، قال : قلت للحسن ابن علي عليه السلام يامسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعنى معاوية ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى في منامه بنى أمية يطؤون منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه فأزل الله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) إلى قوله (خير من ألف شهر) يعنى ملك بنى أمية قال القاسم لحسيننا ملك بنى أمية ، فإذا هو ألف شهر . طعن القاضي في هذه الوجوه فقال ما ذكر من (ألف شهر) في أيام بنى أمية بعيد ، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مدمومة ، وأيام بنى أمية كانت مدمومة .

واعلم أن هذا الطعن ضعيف ، وذلك لأن أيام بنى أمية كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية ، فلا يمتنع أن يقول الله إني : أعطيتك ليلة هي في السعادات الدنيوية أفضل من تلك السعادات الدنيوية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير ، ولم يبين قدر الخيرية ، وهذا كقوله عليه السلام لمبارزة على عليه السلام مع عمرو بن عبد ود [العاصري] أفضل من عمل أمي إلى يوم القيامة ، فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل كأنه يقول حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف .

واعلم أن من أحيائها فكانت ما عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ، ومن أحيائها كل سنة فكانت رزق أعماراً كثيرة ، ومن أحيائها الشهر لينالها ييقين فكانت أحياء ثلاثين قدراً ، يروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيليين الذي عبد الله أربعمئة سنة ، ويجاء برجل من هذه الأمة ، وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر ، فيقول الإسرائيلي أنت العدل ، وأرى ثوابه أكثر ، فيقول لأنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون ، وأمة محمد كانوا آمنين لقرله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم إنهم كانوا يعبدون ، فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً ، وأما التهديد فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار ، وأن إحياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق بتطيف حبة واحدة ، ولهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذنب والمعصية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقاتل أن يقول : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أجزك على قدر نصبك » ومن المعلوم أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة ، فكيف يعقل استراؤهما ؟ (والجواب) من وجوه : (أحدها) أن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة إليه ، ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بكذا درجة ، مع أن الصورة قد تنتقض فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة ، وأيضاً

## تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا

فأنت تقول لمن يرجم : إنه إنما يرجم لأنه زان فهو قول حسن ، ولو قلته للنصراني فقدف يوجب التعزيز ، ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد ، فقد اختلفت الأحكام في هذه المواضع ، مع أن الصورة واحدة في الكل ، بل لو قلته في حق عائشة كان كفراً ، ولذلك قال ( وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ) وذلك لأن هذا طعن في حق عائشة التي كانت رحلة في العلم ، لقوله عليه السلام « خذوا ثلثي دينكم من هذه الخمراء » وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بديباً ، وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بديباً ، وطعن في كافة المؤمنين لآها أم المؤمنين ، والولد حق المطالبة بقذف الأم وإن كان كافراً ، بل طعن في النبي الذي كان أشد خلق الله غيراً ، بل طعن في حكمة الله إذ لا يجوز أن يتركه حتى يتزوج بامرأة زانية ، ثم القائل بقوله : هذا زان ، فقد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال ، فقد ثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها ، فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعات الكثيرة ( والوجه الثاني ) في الجواب أن مقصود الحكيم سبحانه أن يجر الخلق إلى الطاعات فتارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين ، فقال ( إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ) ومرة عشرأ ، ومرة سبعمائة ، وتارة بحسب الأزمنة ، وتارة بحسب الأمكنة ، والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة و صرفه عن الاشتغال بالدنيا ، فتارة يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد ، وتارة يفضل رمضان على سائر الشهور ، وتارة يفضل الجمعة على سائر الأيام ، وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالي ، والمقصود ما ذكرناه ( الوجه الثاني ) من فضائل هذه الليلة .

قوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن نظر الملائكة على الأزواج ، ونظر البشر على الأشباح ، ثم إن الملائكة لما رأوا روحك محلاً للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ما قبلوك . فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وأبواك لما رأوا قبح صورتك في أول الأمر حين كنت منياً وعلقة ما قبلوك أيضاً ، بل أظهروا النفرة ، واستقدروا ذلك المنى والعلقة ، وغسلوا ثيابهم عنه ، ثم كم احتالوا للاسقاط والإبطال ، ثم إنه تعالى لما أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك ، فكذا الملائكة لما رأوا في روحك الصورة الحسنة وهي معرفة الله وطاعته أحبوك فنزلوا إليك معتردين عما قالوه أولاً ، فهذا هو المراد من قوله ( تنزل الملائكة ) فإذا نزلوا إليك رأوا روحك في ظلمة ليل البدن ، وظلمة القوي الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم ( ويستغفرون للذين آمنوا ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن قوله تعالى ( تنزل الملائكة ) يقضى ظاهره نزول كل الملائكة ، ثم



الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتمل كلهم الأرض ، ولهذا السبب اختلفوا فقال بعضهم إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا ، فإن قيل الإشكال بعد باق لأن السماء مملوءة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك ، فكيف تسع الجميع سما . واحدة ؟ قلنا يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد ، كيف والمروى إنهم ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل وصاعد كأهل الحج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالسكينة لكن الناس بين داخل وخارج ، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع العجر فلذلك ذكر بلفظ ( تنزل ) الذي يفيد المرة بعد المرة .

( والقول الثاني ) وهو لإختبار الأكثرين أهم ينزلون إلى الأرض وهو الأوجه . لأن الغرض هو الترغيب في إحياء هذه الليلة ، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون في سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين ، فلأن يحصل ذلك في هذه الليلة مع علو شأنها أولى ، ولأن النزول المطلق لا يفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض ، ثم اختلف من قال ينزلون إلى الأرض على وجوه : (أحدها) قال بعضهم ينزلون ليروا عبادة البشر وخدم واجتهادهم في الطاعة ( وثانيها ) أن الملائكة قالوا (وما تنزل إلا بأمر ربك) فهذا يدل على أهم كانوا مأمورين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة . وأما هذه الآية وهو قوله ( بإذن ربهم ) فإنها تدل على أنهم استأذوا أولاً فأذنوا ، وذلك يدل على غاية المحبة ، لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا . لكن كانوا ينتظرون الإذن ، فإن قيل قوله ( وإننا لنحن الصافون ) يتأني قوله ( تنزل الملائكة ) قلنا تصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين و(ثالثها) أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة ( يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم ) فهنا في الدنيا إن اشتغلت بمبادئ نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسليم والزيارة ، روى عن علي عليه السلام « أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه » ( ورابعها ) أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعتهم أكثر ثواباً ، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثواباً ، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة ( وخامسها ) أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكار من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة ، فالتعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد ( وسادسها ) أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة ، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة ، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة ، وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها ، ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة المؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر ، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من الناس إلا صاحفهم . وعلامة ذلك من اقشعر جلده

## بِأَذْنِ رَبِّهِمْ

ورق قلبه ودمعت عيناه ، فإن ذلك من مصالحة جبريل عليه السلام ، من قال فيها ثلاث مرات لا إله إلا الله غفر له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ثم يدع ملصكا ملصكا ، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام ، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسما الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للدومنين ، ولمن صام رمضان احتساباً ، فإذا أمسوا دخلوا سما الدنيا فيجلسون حلقاً حلقاً فتجتمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة ، حتى يقولوا ما فعل فلان وكيف وجدتموه ؟ فيقولون وجدناه عام أول متعبداً ، وفي هذا العام مبتدعاً ، وفلان كان عام أول مبتدعاً ، وهذا العام متعبداً ، فيكفون عن الدعاء الأول ، ويشغلون بالدعاء الثاني ، ووجدنا فلاناً تالياً ، وفلاناً راكعاً ، وفلاناً ساجداً ، فهم كذلك يومهم وليتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سما حتى يذهبوا إلى السدرة . فتقول لهم السدرة : يا سكا في حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً ، وإني أحب من أحب الله ، فذكر كمب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة ، فتقول الجنة : اللهم عجلهم إلى ، والملائكة ، وأهل السدرة يقولون : آمين آمين ، إذا عرفت هذا فيقول ، كلما كان الجمع أعظم ، كان نزول الرحمة هناك أكثر ، ولذلك فإن أعظم الجموع في موقف الحج ، لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر ، فكذا في ليلة القدر يحصل بجمع الملائكة المقربين ، فلا جرم كان نزول الرحمة أكثر

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في الروح أقوالاً ( أحدها ) أنه ملك عظيم ، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة ( وثانيها ) طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا تراهم إلا يوم العيد ( وثالثها ) خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ، ولا من الإنس ، ولعلمهم خدم أهل الجنة ( ورابعها ) يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه ، ثم إنه ينزل في موافقة الملائكة ليطلع على أمة محمد ( وخامسها ) أنه القرآن . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ( وسادسها ) الرحمة تسمى . ( لانيأسوا من روح الله ) بالرفع كأنه تعالى ، يقول الملائكة ينزلون رحمته تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ( وسابعها ) الروح أشرف الملائكة ( وثامنها ) عن أبي نجيب الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب ، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح ، والأصح أن الروح ههنا جبريل . وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة قوله تعالى : ﴿ بأذن ربهم ﴾ فقد ذكرنا أن هذا يدل على أنهم كانوا مشتاقين إلينا ، فإن

## مِن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

قيل : كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة معاصينا؟ قلنا إنهم لا يفقون على تفصيل المعاصي روى أنهم يطالعون اللوح ، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة ، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا ترونها ، فحينئذ يقول سبحانه من أظهر الجليل ، وستر على القبيح ، ثم قد ذكرنا فوائد في نزولهم ونذكر الآن فوائد أخرى وحاصلها أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء مارأوها في عالم السموات (أحدها) أن الأغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجعلونه ضيافة للفقراء والفقراء يأكلون طعام الأغنياء ويعبدون الله ، وهذا نوع من الطاعة لا يوجد في السموات (وثانيها) أنهم يسمعون أنين العصاة وهذا لا يوجد في السموات (وثالثها) أنه تعالى قال «لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين» فقالوا تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا ، وكيف لا يكون أحب وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين ، وأنين العصاة إظهار لغفارية رب الأرض والسموات .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية دالة على عصمة الملائكة ونظيرها قوله (وما تنزل إلا بأمر ربك) وقوله (لا يسبقونه بالقول) وفيها دققة وهي أنه تعالى لم يقل مأذونين بل قال (ياذن ربهم) وهو إشارة إلى أنهم لا يتصرفون تصرفاً ما إلا بإذنه ، ومن ذلك قول الرجل لامرأته إن خرجت إلا بإذني ، فانه يعتبر الإذن في كل خرجة .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (ربهم) يفيد تعظيماً للملائكة وتحقيراً للعصاة ، كأنه تعالى قال : كانوا لي فكنت لهم ، ونظيره في حقنا (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) وقال محمد عليه السلام (وإذ قال ربك) ونظيره ما روى أن داود لما مرض مرض الموت قال : إلهي كن سليمان كما كنت لي ، فنزل الوحي وقال : قل سليمان فليكن لي كما كنت لي ، وروى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه فقد الضيف أياماً فخرج بالسفرة ليلتمس ضيفاً فإذا بخيمة ، فنادى أتريدون الضيف؟ فقبل نعم ، فقال للضيف أيوجد عندك إدام ابن أوعسل؟ فرفع الرجل صخرتين فضرب إحداهما بالأخرى فانشقاً فخرج من إحداهما اللبن ومن الأخرى العسل ، فتعجب إبراهيم وقال : إلهي أنا خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام ، فماله؟ فنزل الوحي يا خليلي كان لنا فكنا له .

أما قوله تعالى ﴿من كل أمر﴾ فمعناه تنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر ، والمعنى أن كل واحد منهم إنما نزل لمهم آخر ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنهم كانوا في أشغال كثيرة فبعضهم للر كوع وبعضهم للسجود ، وبعضهم بالدعاء ، وكذا القول في التفكير والتعليم ، وإبلاغ الوحي ، وبعضهم لإدراك فضيلة الليلة أو ليسلوا على المؤمنين (وثانيها) وهو قول الأكثرين

## سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥٠﴾

من أجل كل أمر قدر في تلك السنة من خير أو شر ، وفيه إشارة إلى أن نزولهم إنما كان عبادة ، فكأنهم قالوا ما زلنا إلى الأرض لهوى أنفسنا ، لكن لأجل كل أمر فيه مصلحة المكلفين ، وعم لفظ الأمر ليعم خير الدنيا والآخرة بياناً منه أنهم ينزلون بما هو صلاح المكلف في دينه ودنياه كأن السائل يقول من أين جئت ؟ فيقول : مالك وهذا الفضول ، ولكن قل لآي أمر جئت لأنه حظك (وثالثها) قرأ بعضهم (من كل امرئ) أي من أجل كل إنسان ، وروى أنهم لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلّوا عليه ، قيل : أليس أنه قد روى أنه تقسم الآجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان ، والآن تقولون إن ذلك يكون ليلة القدر ؟ فلنسا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله يقدر المقادير في ليلة البراءة ، فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها » وقيل يقدر ليلة البراءة الآجال والأرزاق ، وليسلة القدر بقدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة ، وقيل يقدر في ليلة القدر ما يتعلق به إعزاز الدين ، وما فيه النفع العظيم للمسلمين ، وأما ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت .

(الوجه الثالث) من فضائل هذه الليلة . قوله تعالى ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ وفيه مسائل ﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله سلام وجوه (أحدها) أن ليلة القدر ، إلى طلوع الفجر سلام أي تسلم الملائكة على المطيعين ، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة السلام (وثانيها) وصفت الليلة بأنها سلام ، ثم يجب أن لا يستحقر هذا السلام لأن سبعة من الملائكة سلّوا على الخليل في قصة العجل الحنيد ، فزاد فرحه بذلك على فرحه بملك الدنيا ، بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمرود عليه (برداً وسلاماً) أملاً تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا برداً وسلاماً لكن ضياقة الخليل لهم كانت عجلاً مشوباً وهم يريدون منا قلباً مشوباً ، بل فيه دققة ، وهي إظهار فضل هذه الأمة ، فإن هناك الملائكة ، نزلوا على الخليل ، وههنا نزلوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أنه سلام من الشرور والآفات ، أي سلامة وهذا كما يقال : إنما فلان حج وغزو أي هو أبداً مشغول بهما ، ومثله : « فأنما هي إقبال وإدبار »

وقالوا تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالخيرات والسعادات ولا ينزل فيها من تقدير المضار شيء . فما ينزل في هذه الليلة فهو سلام ، أي سلامة ونفع وخير (ورابعها) قال أبو مسلم سلام أي الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق إلى ما شابه ذلك (وخامسها) سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءاً (وسادسها) أن الوقف عند قوله (من كل أمر سلام) فيتصل السلام بما قبله ومعناه أن تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم إلى طلوع الفجر ، وهذا الوجه ضعيف (وسابعها)

أها من أولها إلى مطلع الفجر سائلة في أن العبادة في كل واحد من أجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالي في أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللعبادة النصف والدعاء السحر بل هي متساوية الأوقات والأجزاء ( وثانها ) سلام هي ، أى جنة هي لأن من أسماء الجنة دار السلام أى الجنة المصوغة من السلامة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المطلع الطلوع يقال طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى طلوع الفجر ، ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع وكذا مكان الطلوع مطلع قاله الزجاج ، أما أبو عبيدة والفراء وغيرهما فانهم اختاروا فتح اللام لآيه بمعنى المصدر ، وقالوا الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع ههنا بل إن حمل على ما ذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح ، قال أبو علي ويمكن حمله على المصدر أيضاً ، لأن من المصادر التى ينبغى أن تكون على المفعول ما قد كسر كقوله تعالى : والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(٩٨) سُورَةُ الْبَيِّنَةِ هَذِهِ  
وَآيَاتُهَا تَكُنَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى  
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ مَا تَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ  
قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾  
إعلم أن في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى فى كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظماً و تفسيراً ، وقد تخطب فيها الكبار من العلماء ، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية ( لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة ) التى هى الرسول ، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذى كانوا عليه ، فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين ، عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التى هى الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاى الغاية فهذه الآية تقتضى أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ، ثم قال بعد ذلك ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجئ الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة فى الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن ( والجواب ) عنه من وجوه ( أولها ) وأحسنها الوجه الذى لخصه صاحب الكشاف . وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم : لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل . وهو محمد عليه السلام ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ، ثم قال : ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ) يعنى

أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقه عن الحق ولا أفرم على الكفر إلا بجيء الرسول ، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى ، فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقاً فيقول واعظه لم تكن منسكاً عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار بذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً ، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد ، وهو أن قوله ( لم يكن الذين كفروا منفيين ) عن كفرهم ( حتى تأتيهم البينة ) مذكورة حكاية عنهم ، وقوله ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ) هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذي وقع كان على خلاف ما ادعوا ( وثانيها ) أن تقدير الآية ، لم يكن الذين كفروا منفيين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة . وعلى هذا التقدير يزول الإشكال هكذا ذكره القاضى إلا أن تفسير لفظه حتى بهذا ليس من اللغة في شيء . ( وثالثها ) أما لا نحمل قوله ( منفيين ) على الكفر بل على كونهم منفيين عن ذكر محمد بالمناب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفيين عن ذكر محمد بالمناب والفضائل حتى تأتيهم البينة قال ابن عرفة أي حتى أتتهم ، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي ، وهو كقوله تعالى ( ماتتوا الشيطان ) أي ما تلك ، والمعنى أنهم ما كانوا منفيين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولاً آخر ردياً ونظيره قوله تعالى ( وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ) والقول المختار في هذه الآية هو الأول ، وفي الآية وجه رابع وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفيين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ، وكلمة حتى تقتضى أن يكون الحال بعد ذلك ، بخلاف ما كان قبل ذلك ، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا فمنهم من صار مؤمناً ، ومنهم من صار كافراً ، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبل مجيئه ، كفى ذلك في العمل ببدلول لفظ حتى ، وفيها ( وجه خامس ) وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفيين عن التردد في كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته ، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول ، بل بقوا أشاكين متحيرين في ذلك الدين وفي سائر الأديان ، ونظيره قوله ( كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ) والمعنى أن الدين الذى كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودى كان جازماً في يهوديته وكذا النصرانى وعابد الوثن ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام : اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقالته ، وقوله تعالى ( منفيين ) مشعر بهذا لأن انفكك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه ، فمعناه أن قلوبهم ما خلعت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها ، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة .

المسألة الثانية ❖ الكفار كانوا جنسين ( أحدهما ) أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفاراً بإحداثهم في دينهم ما كفروا به كقولهم ( عزير ابن الله ) و ( المسيح ابن الله ) وتحريفهم

كتاب الله ودينه ( والثاني ) المشركون الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله ( الذين كفروا ) على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالفضل ، وهو قوله ( من أهل الكتاب والمشركون ) وههنا سؤالان :

( السؤال الأول ) تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضى أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، ومعلوم أن هذا ليس بحق ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) كلمة من ههنا ليست للتبويض بل للتبيين كقوله ( فاجتنبوا الرجس من الأوثان ) ( وثانيها ) أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين ، فإذ جال كلمة من لهذا السبب ( وثالثها ) أن يكون قوله ( والمشركون ) أيضاً وصفاً لأهل الكتاب ، وذلك لأن النصراني مثلثة واليهود عامتهم مشبهة ، وهذا كله شرك ، وقد يقول القائل جاني العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالأميرين . وقال تعالى ( الرا كعون الساجدون الأمور بالمعرف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود ) وهذا وصف لطائفة واحدة ، وفي القرآن من هذا الباب كثير ، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى ، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد .

( السؤال الثاني ) الجوس هل يدخلون في أهل الكتاب ؟ ( قلنا ) ذكر بعض العلماء أنهم داخلون في أهل الكتاب لقوله عليه السلام « سنوليم سنة أهل الكتاب » وأنكره الآخرون قال لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان في بلاد العرب ، وهم اليهود والنصارى ، قال تعالى حكاية عنهم ( أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ) والطائفتان اليهود والنصارى .

( السؤال الثالث ) الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين ؟ حيث قال ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ) ؟ ( الجواب ) أن الواو لا تفيد الترتيب ، ومع هذا ففيه فوائد ( أحدها ) أن السورة مدنية فكان أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر ( وثانيها ) أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم ، فكان إصرارهم على الكفر أقبح ( وثالثها ) أنهم لكونهم علماء يقتدى غيرهم بهم فكان كفرهم أصلاً لكفر غيرهم ، فلهذا قدموا في الذكر ( ورابعها ) أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا في الذكر

( السؤال الرابع ) لم قال من أهل الكتاب ، ولم يقل من اليهود والنصارى ؟ ( الجواب ) لأن قوله ( من أهل الكتاب ) يدل على كونهم علماء ، وذلك يقتضى إما مزيد تعظيم ، فلا جرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى ، أو لأن كونه عالماً يقتضى مزيد قبح في كفره ، فذكروا بهذا الوصف تنبيهاً على تلك الزيادة من العقاب .



﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع (أحدها) أنه تعالى فسر قوله ( الذين كفروا ) بأهل الكتاب وبالمشركين ، فهذا يقتضى كون الكل واحداً في الكفر ، فن ذلك قال العلماء : الكفر كاه ملة واحدة ، فالمشرك يرث اليهودى وبالعكس ( والثانى ) أن العطف أو جب المغايرة ، فلذلك نقول الذى ليس بمشرك ، وقال عليه السلام « غيرنا نحن نساتهم ولا آكلى ذبايحهم ، فأثبت التفرقة بين الكتابى والمشرك ( الثالث ) انه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغتراد بأهل العلم إذ قد حدث في أهل القرآن مثل ما حدث في الامم الماضية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال القفال الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال ، ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته ، ومنه فككك الرهن وهو زوال الإنفلاق الذى كان عليه ألا ترى أن ضد قوله انفكك الرهن ، ومنه فككك الأسير وفكك ، فثبت أن انفككك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفكك من مفصله ، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة ، أما البينة فهى الحجة الظاهرة التى بها يتميز الحق من الباطل فهى من البيان أو البينة لانهما تبين الحق من الباطل ، وفى المراد من البينة فى هذه الآية أقوال :

( الاول ) أنها هى الرسول ، ثم ذكروا فى أنه لم سمي الرسول بالبينة وجوهاً (الاول) أن ذاته كانت بينة على نبوته ، وذلك لانه عليه السلام كان فى نهاية الجد فى تقرير النبوة والرسالة ، ومن كان كذاباً متصنفاً فإنه لا يتأتى منه ذلك الجهد المتناهى ، فلم يبق إلا أن يكون صادقاً أو معترفاً ( والثانى ) معلوم البطلان لانه كان فى غاية كمال العقل ، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً ( الثانى ) أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز ، والجاحظ قرر هذا المعنى ، والغزالي رحمه الله نصره فى كتاب المنقذ ، فاذاً لهذين الوجهين سمي هو فى نفسه بأنه بينة ( الثالث ) أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت فى غاية الظهور وكانت أيضاً فى غاية الكثرة فلاجتماع هذين الأمرين جعل كأنه عليه السلام فى نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه الله تعالى ( سراجاً منيراً ) . واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية (رسول من الله) فهو رفع على البدن من البينة ، وقرأ عبد الله (رسولاً) حال من البينة قالوا والآلف واللام فى قوله ( البينة ) للتعريف أى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى ، أو يقال إنها للتحسين أى هو ( البينة ) التى لا مزيد عليها أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتحسين وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا فى حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لهفظ البينة ثم تبنى بالتنكير فقال (رسول من الله) أى هو رسول ، وأى رسول ، ونظيره ما ذكره الله تعالى فى الشأن على نفسه فقال ( ذو العرش المجيد ) ثم قال ( فعال ) فنسك بعد التعريف .

( القول الثانى ) أن المراد من ( البينة ) مطلق الرسل وهو قول أبى مسلم قال المراد من قوله

( حتى تأتيهم البينة ) أى حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلوا عليهم صحفاً مطهرة وهو كقوله ( يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ) وكقوله ( بل يريد كل أمرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة ) .

( القول الثالث ) وهو قتادة وابن زيد ( البينة ) هى القرآن ونظيره قوله ( أو لم تأتيهم بينة ما فى الصحف الأولى ) ثم قوله بعد ذلك ( رسول من الله ) لا بد فيه من مضاف محذوف والتقدير : وتلك البينة وحى ( رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ) .

أما قوله تعالى ( يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ) فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهى ظرف للكتاب ، وفى ( المطهرة ) وجوه : ( أحدها ) ( مطهرة ) عن الباطل وهى كقوله ( لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) وقوله ( مرفوعة مطهرة ) ، ( وثانيها ) ( مطهرة عن الذكر القبيح فان القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثنى عليه أحسن الثناء ) ( وثالثها ) أن يقال مطهرة أى ينبغى أن لا يسموا إلا المطهرون ، كقوله تعالى ( فى كتاب مكتون لا يمسه إلا المطهرون ) .

واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتاً للصحف فى الظاهر فهى نعت لما فى الصحف وهو القرآن وقوله ( كتب ) فيه قولان ( أحدهما ) المراد من الكتب الآيات المكتوبة فى الصحف ( والثانى ) قال صاحب النظم الكتب قد يكون بمعنى الحكم ( كتب الله لأغلبن ) ومنه حديث العسيف « لا قضين بينكما بكتاب الله » أى بحكم الله فيحتمل أن يكون المراد من قوله ( كتب قيمة ) أى أحكام قيمة أما القيمة ففيها قولان ( الأول ) قال الزجاج مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت ، وهو كقولهم قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام ( الثانى ) أن تكون القيمة بمعنى القائمة أى هى قائمة مستقلة بالحجة والدلالة ، من قولهم قام فلان بالأمر يقوم به إذا أجراه على وجهه ، ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم ، فان قيل كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً ؟ فلنا إذا تلا مثلاً المسطور فى تلك الصحف كان تالياً ما فيها وقد جاء فى كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لا يكتب ، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ ففيه مسائل :  
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية سؤال ، وهو أنه تعالى ذكر فى أول السورة ، أهل الكتاب والمشركين ، وهناد كر أهل الكتاب فقط ، فما السبب فيه ؟ ( وجوابه ) من وجوه ( أحدها ) أن المشركين لم يقرؤا على دينهم فن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل ، بخلاف أهل الكتاب الذين يقرؤن على كفرهم ببذل الجزية ( وثانيها ) أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم وجدوها فى كتبهم ، فاذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائي هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا إن الناس تفرقوا في الشقاوة والسعادة في أصلاب الآباء قبل أن تأتهم البينة ( والجواب ) أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل في الأزل ، أما ظهوره من المكلف فأنما وقع بعد الحالة المخصوصة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالوا هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال ( إلا من بعد ما جاءتهم البينة ) ، ثم قال ( أو تو الكتاب ) أي أن الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف إلى الله ، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ أي لا يفمنك تفرقهم فليس ذلك لقصور في الحجّة بل لغنادم ، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل ( إلا من بعد ما جاءتهم البينة ) فهي عادة قديمة لهم .

قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( وما أمروا ) وجهان : ( أحدهما ) أن يكون المراد ( وما أمروا ) في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنفي ، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه بقوله ( وذلك دين القيمة ) علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعاً في حقهم فهو مشروع في حقنا ( وثانيها ) أن يكون المراد : وما أمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء ، وهذا أولى ، لثلاثة أوجه : ( أحدها ) أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى ( وثانيها ) وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله ( حتى تأتهم البينة ) وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم ( وثالثها ) أنه تعالى ختم الآية بقوله ( وذلك دين القيمة ) فحكم يكون ماهو متعلق هذه الآية ديناً قيمياً فوجب أن يكون شرعاً في حقنا سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بيانا لشرع محمد عليه الصلاة والسلام وهذا قول مقاتل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله ( إلا ليعبدوا الله ) دقيقة وهي أن هذه اللام لام الغرض ، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلاً لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض ، فلو فعل الله فعلاً لكان ناقصاً لذاته مستكملاً بالغير وهو محال ، لأن ذلك الغرض إن كان قديماً

لزم من قدمه قدم الفعل ، وإن كان محدثاً افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الوساطة فهو عاجز ، وإن كان قادراً عليه كان توسط تلك الوساطة عبثاً ، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل . ثم قال الفراء العزب تجعل اللام في موضع أن في الأمر والإرادة كثيراً ، من ذلك قوله تعالى ( يريد الله ليبين لكم ، يريدون ليطهروا ) وقال في الأمر ( وأمرنا لنسلم ) وهي في قراءة عبد الله ( وما أمروا إلا أن يعبدوا الله ) فثبت أن المراد : وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين . والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة ، فقد دلت الآية على أن كل أمور به فلا بد وأن يكون منوباً ، ثم قالت الشافعية الوضوء مأمور به في قوله تعالى ( إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ) ودلت هذه الآية على أن كل أمور يجب أن يكون منوباً ، فيلزم من مجروح الآيتين وجوب كون الوضوء منوباً ، وأما المعتزلة فانهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض ، لا جرم أجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية : وما أمروا بشيء إلا لأجل أن يعبدوا الله ، والإستدلال على هذا القول أيضاً قوى ، لأن التقدير وما أمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين في ذلك الشيء ، وهذا أيضاً يقتضى اعتبار النية في جميع المأمورات . فان قيل النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه . لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة ، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه . فلتأهب أنه خص عموم الآية في هذه الصورة بحكم الدليل العقلي الذي ذكرتم فيبقى في الباقي حجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ( أمروا ) مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو ( كتب عليكم الصيام ) ( كتب عليكم القصاص ) قالوا فيه وجوه ( أحدها ) كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحجابتك ، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال ( كتب ربكم على نفسه الرحمة ) ، ( كتب في قلوبهم الإيمان ) وذكر في الوافبات إذا أراد الأب مرأته عملاً يقول له أولاً : ينبغي أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً ، لأنه ربما يرد عليه فتعظم جنابته ، فههنا أيضاً لم يصرح بالأمر لتخف جنابة الراد ( وثانيها ) أنا على القول بالجس والقص العقليين ، نقول كأنه تعالى يقول : لست أنا الأمر للعبادة فقط ، بل عظمك أيضاً يأمرك لأن النهاية في التعظيم لمن أوصل إليك [ أن ] نهاية الإنعام واجبة في العقول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام في قوله : ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله ) تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا : العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة ، أو إلى البعد عن عقاب النار ، بل لأجل أنك عبد وهو رب ، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة ، ثم أمرك بالعبادة . وجبت لمحض العبودية ، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة ، ونعم ما قيل : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني .

ومن أثر العرفان لا للعرفان ، بل المعروف ، فقد خاض لجة الوصول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ العبادات هي التذلل ، ومنه طريق معبد ، أى مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ، لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة الله ، أدبت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم ، واعلم أن العبادات بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية ، والفعلية ، فإن كان مثل لم يجوز أن يصرف إليه النهاية في التعظيم ، ثم نقول : لا بد في كون الفعل عبادة من شيئين ( أحدهما ) غاية التعظيم ، ولذلك قلنا : إن صلاة الصبي ، ليست بعبادة ، لأنه لا يعرف عظمة الله ، فلا يكون فعلاً في غاية التعظيم ( والثاني ) أن يكون مأموراً به ، ففعل اليهودى ليس بعبادة ، وإن تضمن نهاية التعظيم ، لأنه غير مأمور به ، والنسكتة الوعظية فيه ، أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودى ليس بعبادة لفقد الأمر ، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم ؟

﴿ المسألة السادسة ﴾ الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل ، والنسكت الوعظية فيه من وجوه ( أحدها ) كأنه تعالى يقول عبدى لا تسع في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأنى ما بذلت كل مقدورى لك حتى أطلب منك كل مقدورك ، بل بذلت لك البعض ، فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين ، وشاة من الأربعين ، لكن القدر الذى فعلته لم أرد بفعله سواك ، فلا ترد بطاعتك سواى ، فلا تستثنى من طاعتك نفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك ، فمن ذلك المباح الذى يوجد منك في الصلاة كالحكمة والتحنح فهو حظ استثنيتك لنفسك فانتفى الإخلاص ، وأما الإلتفات المسكروه فذا حظ الشيطان ( وثانيها ) كأنه تعالى قال : يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك البتة ، فإدأ لا تريد إلا ما أريد ولا أريد إلا ما تريد ، ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن ، فكانه تعالى بفضله قال الملك لا يخدم الملك لكن [ لكى ] نصطلح أجعل جميع ما فعله لاجلك ( هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ) فأجعل أنت أيضاً جميع ما فعله لاجلى ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) .

وأعلم أن قوله ( مخلصين ) نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذى يأتي بالحسن لحسنه ، والواجب لوجوبه ، فيأتى بالفعل لوجهه مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لا بد من ذلك ، وفى التوراة : ما أريد به وجهى فقليله كثير وما أريد به غير وجهى فكثيره قليل . وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لاجل الغير ، مثل الواجب من الأضحية شاة ، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله واحدة للأمير لم يجوز لأنه شرك ، وإن زدت في الخشوع ، لأن الناس يرونه لم يجوز ، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة

أخرى ، فكيف ولو خلطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك ، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإمام لأنه لم يخلص ، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص ، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص ؟ وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله ( مخلصين ) قال بعضهم : مقرين له بالعبادة ، وقال آخرون : قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة ، وقال الزجاج أى يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره ، ويدل على هذا قوله ( وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ) .

أما قوله تعالى ( حنفاء و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة ) ففيه أقوال :

( الأول ) قال مجاهد متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال ( ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ) وهذا التفسير فيه لطيفة كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستول على الطباع لم يستعز بمنعه عن التقليد بالكلية ولم يستعز بالتعويل على التقليد أيضاً بالكلية ، فلا جرم ذكره وما أجمع الخلق بالكلية على تركه ، وهو إبراهيم ومن معه ، فقال ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ) فكأنه تعالى قال : إن كنت تقلد أحداً في دينك ، فكن مقلداً لإبراهيم ، حيث تبرأ من الأصنام وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها إلى النيران ، ومن ما حين بذله للضيفان ، ومن ولده حين بذله للقربان ، بل روى أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه ، ولم ير شخصاً فاستعاده ، فقال أما بغير أجر فلا ، فبذل كل ماملکه فظهر له جبريل عليه السلام ، وقال حق لك حيث سماك خليلاً فخذ مالك ، فإن القاتل ، كنت أنا ، بل انقطع إلى الله حتى عن جبريل حين قال أما إليك فلا ، فالحق سبحانه كأنه يقول : إن كنت عابداً فاعبد كعبادته ، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين ، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين ، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم ، فاجتهد في متابعة ولده الصبي ، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره ، فد عنقه لحكم الرؤبا ، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل ، وهر أم الذبيح ، كيف تجرعت تلك الغصة ، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنتين يقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة والإراث ، والريقة نصف الحرة بدليل إن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ، ثم أنظر كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة في ولادها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة في جبال مكة بلا ماء ولا زاد وانصرف ، لا يكلمها ولا يعطف عليها ، قالت الله أمرك بهذا ؟ فأوماً برأسه نعم ، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق .

( والقول الثاني ) المراد من قوله ( حنفاء ) أى مستقيمين والحنف هر الاستقامة ، وإنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا للأعمى بصير وللبلهكة مفازة ، ونظيره قوله تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ) ( اهدنا الصراط المستقيم )

( والقول الثالث ) قال ابن عباس رضى الله عنهما حججاً ، وذلك لأنه ذكر العباد أولاً ثم قال ( حنفاء ) وإنما قدم الحجج على الصلاة لأن في الحج صلاة وإتفاق مال ( الرابع ) قال أبو قلابة

الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الانبياء كيف يكون حنيفاً ( الخامس ) حنفاء أى جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين ، قال نبيه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » ( السادس ) قال قتادة هى الختان وتحريم نكاح المحارم أى محتونين محررين لنكاح الام والمحارم ، فقوله ( حنفاء ) إشارة إلى النبي ، ثم أردفه بالإثبات ، وهو قوله ( وقيموا الصلاة ) ( السابع ) قال أبو مسلم أصله من الحنف فى الرجل ، وهو إدبار إبهامها عن أحوانها حتى يقبل على إبهام الأخرى ، فيكون الحنيف هو الذى يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام ( الثامن ) قال الربيع بن أنيس الحنيف الذى يستقبل القبلة بصلاته ، وإنما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وأما الكلام فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مراراً كثيرة ، ثم قال ( وذلك دين القيمة ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد والزجاج : ذلك دين الملة القيمة ، فالقيمة نعت لموصوف محذوف ، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة ، وقد ذكرنا هذين القولين فى قوله ( كتب قيمة ) وقال الفراء : هذا من إضافة النعت إلى المنعوت ، كقوله ( إن هذا لهُو حق اليقين ) والهاء للبالغة كما فى قوله ( كتب قيمة ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الآية لطائف ( إحداهما ) أن الكمال فى كل شىء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معاً ، فقوم أظنوا فى الأعمال من غير إحكام الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فانهم ربما اتبعوا أنفسهم فى الطاعات ، ولكنهم ما حصلوا الدين الحق ، وقوم حصلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين قالوا لا يضر الذنب مع الإيمان ، والله تعالى خطأ الفريقين فى هذه الآية ، وبين أنه لا بد من العلم والإخلاص فى قوله ( مخلصين ) ومن العمل فى قوله ( وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ) ثم قال وذلك المجموع كله هو ( دين القيمة ) أى البينة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن أجمع الأعضاء بدن واحد كذلك هذا المجموع دين واحد قلب دينك الاعتقاد ووجه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه فكأنه سبحانه يقول القائم بتحصيل مصالحك عاجلاً وأجلاً هو هذا المجموع ، ونظيره قوله تعالى ( ديناً قيماً ) وقوله فى القرآن ( قيماً لينذر بأساً شديداً ) لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق ، ويؤيده قوله عليه السلام « من كان فى عمل الله كان الله فى عمله » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام « يادنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمنى فأخدميه » ، ( وثانيتها ) أن المحسنين فى أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبده والملائكة ، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح ، لخالقهم فالإحسان من الله لا من الملائكة ، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهياً بهم : ملائكتى هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا ، بل فى بعض الأفعال أمثالى أحسنوا

وتصدقوا ، ثم إنى أكرمكم باملأئكتي بمجرد ما أنيتم به من العبودية وأنتم تعظموني بمجرد ما فعلت من الإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين ؛ أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين ، فتمتجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة ، فلماذا قال ( والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ) أفلا يكون هذا الدين قيما ( وثالثها ) أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العاملة بلا قدرة كالزمن العاجز ، والقادرة بلا علم مجنونة فاذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة ، فاذا اجتمعتا سمي الدين قيمة ( ورابعها ) وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء ، وهو القول والاعتقاد فقال ( مخلصين ) ثم لما أجابوه زاده ، فسألهم الصلاة التي بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت ، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال « لا زكاة في مال يحول عليه الحول ، ثم لما ذكر الكل قال ( وذلك دين القيمة ) ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج من قال الإيمان عبادة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية ، فقال مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الإسلام والإيمان فإدأ مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان ، لأنه تعالى ذكر في هذه الآية مجموع الثلاثة . ثم قال ( وذلك دين القيمة ) أى وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) وإنما قلنا إن الإسلام هو الإيمان لوجهين ( الأول ) أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولا عند الله تعالى لقوله تعالى ( ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ) لكن الإيمان بالاجماع مقبول عند الله ، فهو إدأ عين الإسلام ( والثاني ) قوله تعالى ( فأخرجنا من كان فيهما من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) فاستثناء المسلم من المؤمن ، يدل على أن الإسلام يصدق عليه ، وإذا ثبتت هذه المقدمات ، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة أعنى القول والفعل والعمل هو الإيمان ، وحينئذ يبطل قول من قال ، الإيمان اسم لمجرد المعرفة ، أو مجرد الإقرار أو لها معاً ( والجواب ) لم لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله ( وذلك ) إلى الإخلاص فقط ؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لا يحتاج إلى الإضمار أولى ، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار ، فنقولون : المراد ذلك المذكور ، ولا شك أن عدم الإضمار أولى ، سلمنا أن قوله ( وذلك ) إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم ، فلم قلتم إن ذلك المجموع هو الدين ، وذلك لأن الدين غير ، والدين القيم ، فالدين القيم هو الدين الكامل المستقبل بنفسه ، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلًا ، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلًا أيضاً ، وهى الصلاة والزكاة ، وإذا لم يوجد هذا المجموع ، لم يكن الدين القيم حاصلًا ، لكن لم قلتم إن أصل الدين لا يكون حاصلًا والنزاع ما وقع إلا فيه ؟ والله أعلم .



إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ

فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولاً في قوله ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ) ثم ذكر ثانياً حال المؤمنين في قوله ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله ) أعاد في آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين ، فبدأ أيضاً بحال الكفار ، فقل ( إن الذين كفروا ) واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين ( أحدهما ) الخلود في نار جهنم ( والثاني ) أنهم شر الخلق ، وههنا سوالات : ( السؤال الأول ) لم قدم أهل الكتاب على المشركين في الذكرك ؟ ( الجواب ) من وجوه ( أحدها ) أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال « اللهم املأ بطونهم وقبورهم ناراً » فكانت عليه السلام قال كانت الضربة ثم على وجه الصورة ، وفي يوم الخندق على وجه السيرة التي هي الصلاة ، ثم إنه سبحانه قضاة ذلك فقال كما قدمت حق على حقه ، أنا أيضاً أقدم حقه على حق نفسي ، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شعرة من شعراتك بكفر . إذا عرفت ذلك فنقول : أهل الكتاب ما كانوا يطعنون في الله بل في الرسول ، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون في الله ، فلما أراد الله تعالى في هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولاً في التذكير بمن طعن في محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، ثم ثانياً بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون ( وثانيها ) أن جنابة أهل الكتاب في حق الرسول عليه السلام كانت أعظم ، لأن المشركين رأوه صغيراً ونشأ فيما بينهم ، ثم سفه أحلامهم وأبطل أدبائهم ، وهذا أمر شاق ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه فلما جاءهم أنكره مع العلم به فكانت جناباتهم أشد .

( السؤال الثاني ) لم ذكر ( كفروا ) بلفظ الفعل ( والمشركين ) باسم الفاعل ؟ ( والجواب ) تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة .

( السؤال الثالث ) أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون

القيامة ، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كفراً أهل الكتاب أخف من كفر المشركين ، وإذا كان كذلك فكيف يجرز التسوية بين الفريقين في العذاب ؟ ( والجواب ) يقال بئر جهنم إذا كان بعيد القمر ، فكانه تعالى يقول تكبروا طلباً للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين ، ثم إن الفريقين وإن اشتراكا في ذلك لكنه لا ينافي اشتراكهم في هذا القدر تفاوتهم في مراتب العذاب ، واعلم أن الوجه في حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك ، وهذا القسم الثاني هو أقبح القسمين والإحسان أيضاً على قسمين إحسان إلى من أحسن إليك ، وإحسان إلى من أساء إليك ، وهذا أحسن القسمين ، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان وإساءتهم وكفرهم أقبح أنواع الإساءة ، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية ، فبالشتم تعزير وبالقتل حدود السرقة قطع ، وبالزنا رجم ، وبالقتل قصاص ، بل شتم المماثل يوجب التعزير ، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل ، فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنایات ، لا جرم استحقوا أعظم العقوبات ، وهو نار جهنم ، فيها نار في موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه البتة ، ثم كأنه قال قائل : هب أنه ليس هناك رجاء الفرار ، فهل هناك رجاء الإخراج ؟ فقال : لا بل يقرون خالدین فيها ، ثم كأنه قيل فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم ؟ فقال لا بل يذمونهم ، ويلعنونهم لأنهم شر البرية .

( السؤال الرابع ) ما السبب في أنه لم يقل ههنا خالدین فيها أبداً ، وقال في صفة أهل الثواب (خالدین فيها أبداً) ؟ ( والجواب ) من وجوه (أحدها) التذنيبه على أن رحمته أزيد من غضبه (وثانيها) أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل ، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل ( وثالثها ) روى حكاية عن الله أنه قال : ياداود حببني إلى خلقي ، قال وكيف أفعل ذلك ؟ قال اذ كر لهم سعة رحمتي ، فكان هذا من هذا الباب .

( السؤال الخامس ) كيف القراءة في لفظ البرية ؟ (الجواب) قرأ نافع البرية بالهمز ، وقرأ الباقون بغير همز وهو من برا الله الخلق ، والقياس فيها الهمز إلا أنه ترك همزه ، كالنبي والذرية والخاتمة ، والهمزة فيه كالرّد إلى الأصل المتروك في الاستعمال ، كما أن من همز النبي كان كذلك وترك الهمز فيه أجود ، وإن كان الهمز هو الأصل ، لأن ذلك صار كالشيء المرفوض المتروك . وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال إنه من البرا الذي هو الثواب .

( السؤال السادس ) ما الفائدة في قوله هم شر البرية ؟ (الجواب) أنه يفيد النفي والإثبات أي هم دون غيرهم . واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها ، شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله ، صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف ، لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح .

## إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .  
(السؤال السابع) هذه الآية هل هي مجرأة على عمومها ؟ (الجواب) لا بل هي مخصوصة بصورتين (إحداهما) أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد (والثانية) قال بعضهم : لا يجوز أن يدخل في الآية من مضى من الكفار ، لأن فرعون كان شراً منهم ، فأما الآية الثانية وهي الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر ، لأنهم أفضل الأمم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ فيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوجه في حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه (أحدها) أن الوعيد كالدواء ، والوعد كالغذاء ، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقياً انتفع بالغذاء ، فإن البدن غير النقي كلما غذوته زده شراً ، هكذا قاله بقراط في كتاب الفصول (وثانيها) أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحاً للدارس والخف ، أما قبله فلا ، ولذلك فإن الانسان متى وقع في محنة أو شدة رجع إلى الله ، فإذا نال الدنيا أعرض ، على ما قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (وثالثها) أن فيه بشارة ، كأنه تعالى يقول : لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذي هو بشارة مني في أني أختم أمرك بالخير ، ألسنت كنت نجسا في مكان نجس ، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهراً ، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهراً !

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من قال إن الطاعات ليست داخلة في مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة في هذه الآية على الإيمان ، والمعطوف غير المعطوف عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (إن الذين آمنوا) ولم يقل إن المؤمنين إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده ، وبذلوا الأموال والمهج لأجله ، ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ولقظة (آمنوا) أي فعلوا الإيمان مرة .  
واعلم أن الذين يمتدحون الموافاة يحتجون بهذه الآية ، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب ، والذي يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب ، فعلينا أنه ما صدر الإيمان عنه في الحقيقة قبل ذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعملوا الصالحات) من مقابلة الجمع بالجمع ، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات ، بل لكل مكلف حظ فحظ الغنى الإعطاء ، وحظ الفقير الأخذ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج بعضهم بهذه الآية في تفضيل البشر على الملك ، قالوا روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال « أتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى ! والذي نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من ذلك ، وارقروا إن شئتم : أن الذين آمنوا وعملوا

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

الصالحات أولئك هم خير البرية .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه : ( أحدها ) ما روى عن يزيد النحوي أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة ( وثانيها ) أن قوله ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك ( وثالثها ) أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل ، قالوا وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة ، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون ، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هي مسكن الشياطين ، وأيضاً فصالحنا منتظمة بهم ورزقنا في يد البعض وروحنا في يد البعض ، ثم هم العلاء ونحن المتعلدون ، ثم انظر إلى عظيم همهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب ، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال ( ومن يقل منهم إن إله من دونه ) أى لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية ، وأنت أبدأ عبد البطن والفرج ، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبي لأنه تعالى مدح النبي بأحياء ثلثي الليل وقال فيهم ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) ومرة ( لا يسأمون ) وتتمام القول في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة . قوله تعالى : ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقاً من المحن والآفات ، فصاغه من أنجس شئ في أضيق مكان إلى أن خرج باكياً لا للفراق ولكن مشتكياً من وحشة الحبس ليرحم ، كاذى يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم ، ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدوداً في الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوا في المهدي وشده بالقهاط ، ثم لم يمض قليل حتى أسلوه إلى أستاذ يجسه في المكتب ويضربه على التعليم وهكذا إلى أن بلغ الحلم ، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ، ثم إن المكلف يصير كالمتهجير ، يقول من الذى يفعل في هذه الأعمال مع أنه ما صدرت عنى جنابة فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل ، فوجده عالماً لا يشبه العالمين ، وقادراً لا يشبه القادرين ، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة الخنة ، لكن حقيقة محض الكرم والرحمة ، فترك الشكاية وأقبل على الشكر ، ثم وقع في قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة ، فجعل قلبه مسكناً لسلطان عرفانه ، فكان الحق قال : عبيدى أنزل معرفتى في قلبك حتى

لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك فيقول العبد : يارب أزلت حب الثدى في قلبي ثم أخرجته ، وكذا حب الأب والام ، وحب للدنيا وشهواتها وأخرجت الكل . أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي ، ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة في أرض القلب انفجر من هذا ينبوع أنهار وجدول ، فالجدول الذي وصل إلى العين حصل منه الاعتبار ، والذي وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسييحانهم ، وهكذا في جميع الأعضاء والجوارح ، فيقول الله عبيد جملت قلبك كالجنة لي وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة ، فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا ، فأنا أولى بالجدود والكرم والرحمة لجنة بجنة ، فلهذا قال ( جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ) بل كأن الكريم الرحيم يقول عبيد أعطاني كل ماملكتك ، وأنا أعطيتك بعض ما في ملكي ، وأنا أولى منه بالكرم والجدود ، فلا جرم جملت هذا البض منه موهوباً دائماً مخلداً ، حتى يكون دوامه وخلوده جابراً لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجزء اسم لما يقع به الكفاية ، ومنه اجتزت المشاية بالحشيش الرطب عن الماء ، فهذا يفيد معنيين ( أحدهما ) أنه يعطيه الجزء الوافر من غير نقص ( والثاني ) أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية ، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلًا ، على ما قال ( ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ( جزاؤهم ) فأضاف الجزاء إليهم ، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف اجمع بينه وبين قوله ( الذي أحلنا دار المقامة من فضله ) ( والجواب ) أما أهل السنة فأنهم يقولون إنه لو قال الملك الكريم : من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار ، فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي ، فقوله ( جزاؤهم ) يكفي في صدقة هذا المعنى وأما المعتزلة فأنهم قالوا في قوله تعالى ( الذي أحلنا دار المقامة من فضله ) إن كلمة من لا ابتداء الغاية ، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان ، إنما حصل بسبب فضلك السابق فانك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الاعتذار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة . فان قيل فاذا كان لاحق لاحد عليه في مذهبكم ، فما السبب في التزام مثل هذا الانعام ؟ قلنا : أتسأل عن إنعامه الأسمى حال عدمنا ؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف ؟ أو عن إنعامه في غد القيامة ؟ فان سألت عن الأسمى فكأنه يقول : أنا منزّه عن الإنتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لصاعت هذه المنافع ، فكما أن من له مال ولا عيال له فأنه يشتري العبيد والجواري ليزعموا بماله ، فهو سبحانه اشتري من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه . كما روى « الخلق عيال الله » وأما اليومي فالإنعام يوجب الإتمام بعد الشروع . فالرحمن أولى . وأما الغد فأننا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك .

## ﴿ المسألة الرابعة ﴾ في قوله ( عند ربهم ) لطائف :

( أحدهما ) قال بعض الفقهاء : لو قال لاشيء لى على فلان ، فهذا يختص بالديون وله أن يدعى الوديعة ، ولو قال لاشيء لى عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين ، ولو قال لاشيء لى قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معاً ، إذا عرفت هذا فقوله ( عند ربهم ) يفيد أنه وديعة والوديعة عين ، ولو قال لفلان على فهو إقرار بالدين ، والعين أشرف من الدين فقوله ( عند ربهم ) يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد ، فان قيل الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون ، قلنا : المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا في حق الله تعالى محال ، فلا جرم قلنا الوديعة هناك خير من المضمون .

( وثانيها ) إذا وقعت الفتنة في البلدة ، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب ، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك ، وحينئذ تخاف الشيطان من أن يغيروا عليها ، فضع وديعة أمانتك عندي فاني أكتب لك به كتاباً يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة وهو قوله ( جزاؤم عند ربهم ) حتى أسله إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة .

( وثالثها ) أنه قال ( عند ربهم ) وفيه بشارة عظيمة ، كأنه تعالى يقول أنا الذي رببتك أولاً حين كنت معدوماً صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة ، خلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقاً أعطيتك هذه الأشياء ، وما ضيعتكَ أتري أنك إذا اكتسبت شيئاً وجعلته وديعة عندي فأنا أضيعها ، كلا إن هذا مما لا يكون .

## ﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله ( جزاؤم عند ربهم جنات ) فيه قولان :

( أحدهما ) أنه قابل الجمع بالجمع (١) ، وهو يقتضى مقابلة الفرد بالفرد ، كما لو قال لا امرأته أو عبديه : إن دخلتا هاتين الدارين فأتتما كذا فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما داراً على حدة ، وعن أبي يوسف لم يحسب حتى يدخل الدارين ، وعلى هذا إن ملكتهما هذين العبدين ، ودليل القول الأول ( جعلوا أصابهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ) فعلى القول الأول بين أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة ، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روى مرفوعاً ، ويدل عليه قوله تعالى ( وملكاً كبيراً ) ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات ، كما روى عن أبي يوسف وعليه يدل القرآن ، لأنه قال ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) ثم قال ( ومن دونهما جنتان ) فذكر أربعاً للواحد ، والسبب فيه أنه بسكى من خوف الله ، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان اثنتان دون الاثنين ، فاستحق جنتين دون الجنتين ، فحصلت له أربع جنات ، لسببه البكاء من أربعة أجفان ، ثم إنه تعالى قدم الخوف في قوله ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) وآخر الخوف في هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله ( ذلك لمن خشى ربه ) وفيه إشارة إلى أنه لا بد من

(١) الصواب أن يقل : قابل المفرد بالجمع فالمفرد هنا لفظ جزاء والجمع لفظ جنات .

دوام الخوف ، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال ، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلال ، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله ( عدن ) يفيد الإقامة ( لا يخرجون منها ) ( وما هم منها بمخرجين ) ( لا يبيفون عنها حولا ) يقال عدن بالمكان أقام ، وروى أن جنات عدن وسط الجنة ، وقيل عدن من المعدن أى هي معدن النعيم والأمن والسلامة ، قال بعضهم إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجنة أو الجنين ، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة بطوفون العالم في ساعة واحدة فكأنه تعالى قال إنها في إيصال المكلف إلى مشتبهاته في غاية الإسراع . مثل حركة الجن ، مع أنها دار إقامة وعدن ، وإما من الجنون فهو أن الجنة ، بحيث لو رآها العاقل يصير كالجنون ، لولا أن الله بفضل يتيته ، وإما من الجنة لأنها جنة واقية ثقيل من النار ، أو من الجنين ، فلأن المكلف يكرن في الجنة في غاية التمتع ، ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر ( لا يرون فيها شمساً ولا زمهراً ) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله ( تجرى ) إشارة إلى أن الماء الجارى الطف من الراكد ، ومن ذلك النظر إلى الماء الجارى ، يزيد نوراً في البصر بل كأنه تعالى قال : طاعتك كانت جارية ما دمت حياً على ما قال ( وإعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) فوجب أن تكون أنهار إكرامى جارية إلى الأبد ، ثم قال من تحتها إشارة إلى عدم التغيص ، وذلك لأن التغيص في البستان ، أما بسبب عدم الماء الجارى فذكر الجرى الدائم ، وإما بسبب الغرق والكثرة ، فذكر من تحتها ، ثم الألف واللام في الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن ، وهي نهر الماء واللبن والعسل والخمر ، واعلم أن النهار والآنهار من السعة والضياء ، فلا تسمى الساقية نهراً ، بل العظيم هو الذى يسمى نهراً بدليل قوله ( وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ) فعطف ذلك على البحر .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانياً ، وروى أنه عليه السلام قال « إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة (أما الصفة الأولى) وهي الخلود ، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام ، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل .

( وأما الصفة الثانية ) وهي الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح ، لجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتداء بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ، ثم إنه قدم رضى الله عنهم على قوله ( ورضوا عنه ) لأن الأزل هو المؤثر في المحدث ، والمحدث لا يؤثر في الأزل .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ إنما قال ( رضى الله عنهم ) ولم يقل رضى الرب عنهم ولا سائر الأسماء

لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله ، لأنه هو الإسم الدال على الذات والصفات بأسرها أعنى صفات الجلال وصفات الإكرام ، فلو قال رضى الرب عنهم لم يشعر ذلك بكآل طاعة العبد لأن المرين قد يكتفى بالقليل ، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة ، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة ، فقوله ( رضى الله عنهم ) يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ اختلفوا فى قوله ( رضى الله عنهم ) فقال بعضهم معناه رضى أعمالهم ، وقال بعضهم المراد رضى بأن يمدحهم ويعظمهم ، قال لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله ، وهذا هو الأقرب ، وأما قوله ( ورضوا عنه ) فالمراد أنه رضوا بما جازاهم من النعم والثواب .

قوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخوف فى الطاعة حال حسنة قال تعالى ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ) ولعل الخشية أشد من الخوف ، لأنه تعالى ذكره فى صفات الملائكة مقرروناً بالإشفاق الذى هو أشد الخوف فقال ( هم من خشية ربهم مشفقون ) والكلام فى الخوف والخشية مشهور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلاً على فضل العلم والعلماء ، وذلك لأنه تعالى قال ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) فدلّت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية ، وهذه الآية وهى قوله ( ذلك لمن خشى ربه ) تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : هذه الآية تدل على أن المرء لا ينهى إلى حد يصير معه آمناً بأن يعلم أنه من أهل الجنة ، وجمل هذه الآية دالة عليه . وهذا المذهب غير قوى . لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة ، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام « أعرّفكم بالله أخوفكم من الله ، وأنا أخوفكم منه » والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





## (٩٩) سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ الْمَدِينِيَّةِ وَأَيُّهَا مَكِّيَاتُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ ههنا مسائل :  
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهاً (أحدها) أنه تعالى لما قال ( جزأؤهم عند ربهم ) فكان المكف قال ومتى يكون ذلك بارب فقال : ( إذا زلزلت الأرض زلزالها ) فالعالمون كلهم يكرنون في الخوف ، وأنت في ذلك الوقت تنال جزأؤك وتكون آمناً فيه ، كما قال ( وهم من فزع يومئذ آمنون ) ( وثانيها ) أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر ، فقال : أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره ، مال للأرض تزلزل ، نظيره قوله ( يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ) ثم ذكر الطائفتين فقال ( فأما الذين اسودت وجوههم ) ( وأما الذين ابيضت وجوههم ) ثم جمع بينهما في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله ( إذا ) بحثان ( أحدهما ) أن لقاتل أن يقول ( إذا ) للوقت فكيف وجه البداية بها في أول السورة ؟ ( وجوابه ) من وجوه ( الأول ) كانوا يسألونه متى الساعة ؟ فقال : ( إذا زلزلت الأرض ) كأنه تعالى قال : لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولمكنى أعينه بحسب علاماته ، ( الثاني ) أنه تعالى أراد أن يخبر المكف أن الأرض تحدث و تشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد فكانه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقال ( إذا زلزلت الأرض )

( البحث الثاني ) قالوا كلمة ( إن ) في المجرز ، ( وإذا ) في المقتطوع به ، تقول : إن دخلت الدار فأنت طالق لأن الدخول يجرز ، أما إذا أردت التعليق بما يوجد فطاماً لا تقول ، إن بل تقول . إذا [ بحر إذا ] جاء غد فأنت طالق لأنه يوجد لا محالة . هذا هو الأصل ، فإن استعمل على خلافه فجاز ، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال ( إذا زلزلت ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء : الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم ، وقد قرئ بهما ، وكذلك الوسواس هو الإسم أى اسم الشيطان الذى يوسوس إليك ، والوسواس بالكسر

## وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

المصدر ، والمعنى : حركت حركة شديدة ، كما قال ( إذا رجعت الأرض رجاً ) وقال قوم : ليس المراد من زلزلت حركت ، بل المراد : تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، ولأن هذا أدخل في التهويل كأنه تعالى يقول إن الجراد ليضطرب لأوائل القيامة ، أما أن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك ويقرب منه ( لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ) واعلم أن زل للحركة المعتادة ، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة ، لما فيه من معنى التكرير ، وهو كالصرصر في الريح ، ولاجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال ( إن زلزلة الساعة شيء عظيم ) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال مجاهد : المراد من الزلزلة المذكورة في هذه الآية النفخة الأولى كقوله ( يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الزادفة ) أي تزلزل في النفخة الأولى ، ثم تزلزل ثانياً فتخرج موتاهما وهي الانتقال ، وقال آخرون : هذه الزلزلة هي الثانية بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها أنها تخرج الأرض أثقالها ، وذلك إنما يكون في الزلزلة الثانية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في قوله ( زلزالها ) بالإضافة وجوه ( أحدها ) القدر اللائق بها في الحكمة ، كقولك : أكرم التقى إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة ( والثاني ) أن يكون المعنى زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه ، والمعنى أنه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل ( والثالث ) ( زلزالها ) الموعود أو المكتوب عليها إذا قدرت تقدير الحى ، تقريره ماروى أنها تزلزل من شدة صوت إسرافيل لما أنها قدرت تقدير الحى .  
أما قوله ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الانتقال قولان ( أحدهما ) أنه جمع ثقل وهو متاع البيت ( وتحمل أثقالكم ) جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها ، قال أبو عبيدة والآخرش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وقيل سمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها ويشقون عليها إذا كانوا فوقها ، ثم قال المراد من هذه الزلزلة ، الزلزلة الأولى يقول : أخرجت الأرض أثقالها ، يعنى الكونوز فيمتلى ظهر الأرض ذهباً ولا أحد يلتفت إليه ، كأن الذهب يصيح ويقول : أما كنت تحرب دينك ودينك لأجلى أو تكون الفائدة في إخراجها كما قال تعالى ( يوم يحمى عليها في نار جهنم ) ومن قال المراد من هذه الزلزلة الثانية وهي بدد القيامة . قال تخرج الانتقال يعنى الموتى أحياء كالآم تله حياً ، وقيل تلفظه الأرض ميتاً ، كما دفن ثم يحياه الله تعالى ( والقول الثاني ) أثقالها : أسرارها فيومئذ تكشف الأسرار ، ولذلك قال ( يومئذ تحدث أخبارها ) فشهد لك أو عليك .

## وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٤﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٥﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال في صفة الأرض ( ألم نجعل الأرض كفاتاً ) ثم صارت بحال تزيك وهو تقرير لقوله ( تذهل كل مرضعة عما أرضعت ) وقوله ( يوم يفر المرء ) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما لها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن ، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الاموات

﴿ المسألة الثانية ﴾ قيل هذا قول الكافر وهو كما يقولون ( من بعثنا من مرقدنا ) فأما المؤمن فيقول ( هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ) وقيل بل هو عام في حق المؤمن والكافر أي الإنسان الذي هو كنود جزوع ظالم الذي من شأنه الغفلة والجهالة : يقول ما لها وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب ، لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الأذان . ولا تطلق بها لسان ، ولهذا قال الحسن إنه للكافر والفاجر معاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال ( ما لها ) على غير المواجهة لأنه يماثل بهذا الكلام نفسه ، كأنه يقول : يا نفس ما للأرض تفعل ذلك يعني يا نفس أنت السبب فيه فإنه لولا معاصيك لما صارت الأرض كذلك فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون ( الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أما قوله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فاعلم أن ابن مسعود قرأ ( تنبئ أخبارها ) وسعيد ابن جبير تنبئ (١) ثم فيه سوالات

( الأول ) أين مفعولا تحدث ؟ (الجواب) قد حذف أولها والثاني أخبارها وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً .

( السؤال الثاني ) ما معنى تحديث الأرض ؟ قلنا فيه وجوه : ( أحدها ) وهو قول أبي مسلم يومئذ يقين لكل أحد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك ، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت ( والثاني ) وهو قول الجمهور أن الله تعالى يجعل الأرض عيواناً عاقلاً ناطقاً ويعرفها جميع ما عمل أهلها فيئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى ، قال عليه السلام « أن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها » ثم تلا هذه الآية وهذا على مذهبا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطاً لقبول الحياة ، فالأرض مع بقائها على شكلها ويسها وقسفتها يخلق الله فيها الحياة والنطق ، والمقصود كأن الأرض تشكو من العصاة

(١) الخلاف بين القراءتين ليس في الرسم وإنما في القراءة فاحدى القراءتين بكسر الباء مخففة والثانية بتشديدها .

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٦٠﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوِّاْ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦١﴾

وتشكر من أطاع الله ، فنقول إن فلاناً صلى وزكى وصام وحج في ، وإن فلاناً كفر وزنى وسرق وجار ، حتى يود الكافر أن يساق إلى النار ، وكان على عليه السلام : إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول : لشهدين أنى ملائكتك يحق وفرغتك بحق ( والقول الثالث ) وهو قول المعزلة أن الكلام يجوز خلقه في الجاد ، فلا يبعد أن يخلق الله تعالى في الأرض حال كونها جماداً أصواتاً مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى .

( السؤال الثالث ) إذا ويومئذ مانا نصهما ؟ (الجواب) يومئذ بدل من إذا وناصهما تحدث ( السؤال الرابع ) لفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لا استئناس فما وجه هذا اللفظ (الجواب) أن الأرض كأنها تبك شكواها إلى أولياء الله وملائكته .

أما قوله تعالى ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ ففيه سؤالان :

( السؤال الأول ) بم تعلق الباء في قوله ( بأن ربك ) ؟ (الجواب) بتحدث ، ومعناه تحدث أخبارها بسبب إخبار ربك لها .

( السؤال الثاني ) لم لم يقل أوحى إليها ؟ (الجواب) فيه وجهان ( الأول ) قال أبو عبيدة ( أوحى لها ) أى أوحى إليها وأنشد العجاج : « أوحى لها القرار فاستقرت »

( الثاني ) لعله إنما قال لها أى فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشقى من العصاة . قوله تعالى : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ الصدور ضد الورد فالوارد الجانى والصادر المنصرف واشتاتاً متفرقين ، فيحتمل أن يردوا الأرض ، ثم يصدرون عنها الأرض إلى عرصة القيامة ، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للحاسبة ثم يصدرون عنها إلى موضع الثواب والعقاب ، فإن قوله ( أشتاتاً ) أقرب إلى الوجه الأول ولفظة الصدر أقرب إلى الوجه الثاني ، وقوله ( ليروا أعمالهم ) أقرب إلى الوجه الأول لأن رؤية أعمالهم مكتوبة في الصحائف أقرب إلى الحقيقة من رؤية جزاء الأعمال ، وإن صح أيضاً أن يحمل على رؤية جزاء الأعمال ، وقوله ( أشتاتاً ) فيه وجوه ( أحدها ) أن بعضهم يذهب إلى الموقف راكباً مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادى ينادى بين يديه : هذا ولى الله ، وآخرون يذهب بهم سود الوجوه حفاة عراة مع السلاسل والأغلال والمنادى ينادى بين يديه هذا عدو الله ( وثانيها ) أشتاتاً أى كل فريق مع شكله اليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى ( وثالثها ) أشتاتاً من أقطار الأرض من كل ناحية ، ثم إنه سبحانه ذكر المقصود وقال ( ليروا أعمالهم ) قال بعضهم : ليروا صحائف أعمالهم ، لأن الكتابة يوضع بين يدى الرجل فيقول هذا طلائك وبيمك هل تراه والمرئى وهو الكتاب وقال آخرون : ليروا جزاء أعمالهم ، وهو الجنة أو النار ، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه الجزاء وفاق ، فكانه

## فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

نفس العمل بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة ، وفي قراءة النبي ﷺ ( ليروا ) بالفتح .  
قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وفيه مسائل :  
﴿ المسألة الأولى ﴾ ( مثقال ذرة ) أى زنة ذرة قال السكلى الذرة أصغر النمل ، وقال ابن عباس إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزم به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيراً أو شراً قليلاً كان أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه .  
﴿ المسألة الثانية ﴾ في رواية عن عاصم ( يره ) برفع الياء وقرأ الباقون ( يره ) بفتحها وقرأ بعضهم ( يره ) بالجزم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة ، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر ؟ .  
واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : ( أحدها ) قال احمد بن كعب القرظي ( فمن يعمل مثقال ذرة ) من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة ، وليس له فيها شيء ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، وبدل على صحة هذا التأويل ما روى أنه عليه السلام قال لأبي بكر يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكبره فيه مثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة ( وثانيتها ) قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فتزد حسناته ويعذب بسيئاته ( وثالثها ) أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انجبطت من عقاب كفره ، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية ( ورابعها ) أن تخصص عموم قوله ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ) ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل أن يقول إذا كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم ؟ ( والجواب ) هذا هو الكرم ، لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف ، والكريم لا يجرمه ولا يجرمه وفي الطاعة تعظيم ، وإن قل فالكريم لا يضيعه ، وكان الله سبحانه يقول لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيراً ، فإنك مع ثؤمك وضعفك لم تضيع منى الذرة ، بل اعتبرتها ونظرت فيها ، واستدلت بها على ذاتي وصفاتي واتخذتها مربكاً به وصلت إلى ، فإذا لم تضيع ذرتي أفأضيع ذرتك ! ثم التحقيق أن المقصود هو النية والقصد ، فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب ، وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة فالمقصود فائت ، ومن ذلك ما روى عن كعب : لا تحمقروا شيئاً من المعروف ، فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله ، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت

المقدس فدخلت الجنة . وعن عائشة « كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها ، فجاء سائل فأمرت له بجمعة من ذلك العنب فضحك بمض من كان عندها ، فقالت إن فيما ترون مناقيل الذرة وتلك هذه الآية ، ولعلها كان غرضها التعليم ، وإلا فهي كانت في غاية السخاوة . روى « أن ابن الزبير بعث إليها بمائة ألف وثمانين ألف درهم في غرارتين ، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية فطوري هلمى فجاءت بخبز وزيت ، فقيل لها أما أمسكت لنا درهما نشترى به لحماً نفطر عليه ، فقالت لو ذكرتيني لفعلت ذلك ، وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول ما هذا بشيء ، وإنما تؤجر على ما نعطي أو كان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول لا شيء . على من هذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر ، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر ، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ولهذا قال عليه السلام « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١٠) سُورَةُ الْعَادِيَاتِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا إِخْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حممة ، ولكنه صوت نفس ، ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين :

﴿الاول﴾ ماروى عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل ، وهو قول ابراهيم والقرظي روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحا ، ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال ادعه لي فلما وقفت على رأسه ، قال تفتي للناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للقداد (والعاديات ضبحا) الإبل من عرقة إلى مزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يعنى إبل الحاج ، قال ابن عباس فرجعت عن قولى إلى قول علي عليه السلام « ويتأكد هذا القول بما روى أبى في فضل السورة مرفوعا « من قرأها أظلى من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا » وعلى هذا القول (فالموريات قدحا) أن الحوافر ترمى بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجرا آخر فتورى النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة (فالمغيرات) الإغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى (فأثرن به نفعا) يعنى غباراً بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى (فوسطن به جمعا) يعنى مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها ، وعلى هذا التقدير ؛ فوجه القسم به من وجوه (أحدها) ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه فى قوله ( أفلا ينظرون إلى الإبل ) ( وثانها ) كأنه تعريض بالأدمى الكنود فكأنه تعالى يقول : إنى سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي ( وثالثها ) الغرض بذكر إبل الحج الترغيب فى الحج ، كأنه تعالى يقول : جعلت ذلك الإبل مقسما به ، فكيف أضيع

## فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾

عملك ! وفيه تعريض لمن يرغب الحج ، فإن الكنود هو الكفور ، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك ، كما في قوله تعالى ( والله على الناس حج البيت ) إلى قوله ( ومن كفر ) .  
 ﴿القول الثاني﴾ قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء وأكثرا المحققين أنه الخيل ، وروى ذلك مرفوعاً . قال الكلبي : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى أناس من كنانة فمكث ما شاء الله أن يمكث لا ياتيه منهم خبر فتخرف عليها . فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها ، فإن جعلنا الألف واللام في ( والعاديات ) للدهورد السابق كان محل القسم خيل تلك السرية ، وإن جعلناهما للجنس كان ذلك قسما بكل خيل عدت في سبيل الله .

واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل ، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس ، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة ، كما استعير المشافر والحافر للإنسان ، والشفتان للبهير ، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز ، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر مالا يظهر بحف الإبل ، وكذا قوله ( فالغيرات صبحاً ) لأنه بالخيل أسهل منه بغيره ، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا ، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية ، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة ، وهو الذي قاله الكلبي ، إذا عرفت ذلك فههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب ، فإنها تصلح للطلب والحرب والكر والفر ، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة ، وإذا ظننت أن المصلحة في الحرب قدرت على أشد العدو ، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين ، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين ، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسك لا للزينة والتفاخر ، بل لهذه المنفعة ، وقد نبه تعالى على هذا المعنى في قوله ( والخيل والبغال والحمير لآكل عشبها وزينة ) فأدخل لام التعليل على الركوب وما أدخله على الزينة وإنما قال ( صبحاً ) لأنه أمانة يظهر به التعب وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب ، فكأنه تعالى يقول : إنه مع ضمه لا يترك طاعتك ، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضاً كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في انتصاب ( صبحاً ) وجوهاً ( أحدها ) قال الزجاج : والعاديات تصبغ صبحاً ( وثانيها ) أن يكون ( والعاديات ) في معنى والضاحات ، لأن الضبح يكون مع العدو ، وهو قول الفراء ( وثالثها ) قال البصريون : التقدير : والعاديات ضابحة ، فقوله ( صبحاً ) نصب على الحال .

أما قوله تعالى ﴿ فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾



## فَالْمَغِيرَاتُ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾

فاعلم أن الإبراء لإخراج النار ، والقذح الصك تقول قذح فأورى وقد فاصلد ، ثم في تفسير الآية وجوه (أحدها) قال ابن عباس : يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قذح ، وقال مقاتل : يعنى الخيل تقذحن بحوافرهن في الحجارة نارا كمنار الحياحب (١) والحياحب اسم رجل كان بخيلا لا يوقد النار إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبه أحد أطعمه ناره لئلا ينتفع بها أحد . فشبهت هذه النار التي تقذح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع ومن الناس من يقول : انها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار ، والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنايك نفسها كالحديد (وثالثها) قال قوم هذه الآيات في الخيل . ولكن إبراؤها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم ، كما قال تعالى (كلم) أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله ) ومنه يقال للحرب إذا تخمت حتى الوطيس ( وثالثها ) هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم (فالمرديات) هم الجماعة من الغزاة (ورابعها) إنها هي الألسنة تورى نار العداوة لعظم ما تتكلم به (وخامسها) هي أفكار الرجال تورى نار المكر والخديعة ، روى ذلك عن ابن عباس ، ويقال لأقذحن لك ثم لاورين لك ، أى لا هيجن عليك شرا وحربا ، وقيل هو المكر إلا أنه مكر بإيقاد النار ليراهم العدو كثيرا ، ومن عادة العرب عند الغزو إذا قربوا من العدو أن يوقدوا نيرانا كثيرة ، لكي إذا نظر العدو إليهم ظههم كثيرا (وسادسها) قال عكرمة المرديات قدحا الألسنة (وسابعها) (فالمرديات قدحا) أى فالمنجحات أمرا ، يعنى الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو والحج ، ويقال للمنجح في حاجته ورى زنده ، ثم يرجع هذا إلى الجماعة المنجحة ، ويجوز أن يرجع إلى الخيل ينجح ركبائها قال جرير :  
وجدنا الأزدا كرمهم جرادا وأوراهم إذا قدحوا زنادا  
ويقال فلان إذا قذح أورى ، وإذا منح أورى ، واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإبراء حقيقة في إبراء النار ، وفي غيره مجاز ، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل .

أما قوله تعالى ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعنى الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكأوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئا ، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للدفاع والحاربة ، أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد . وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل ، قالوا المراد هو الإبل تدفع بركبائها يوم النحر من جمع إلى منى ، والسنة أن لا تغير حتى تصبح ، ومعنى الإغارة في اللغة الإسراع ، يقال أغار إذا أسرع وكانت العرب في الجمالية تقول : أشرق ثبير كيا تغير . أى تسرع في الإفاضة .

أما قوله ﴿فأثرن به نقعاً﴾ ففيه مسائل .

(١) ويقال : الحياحب طائر صغير كالذبابه تضىء ليلنا فيظنه الرائي نارا .

## فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا

﴿ المسألة الأولى ﴾ في النقع قولان (أحدهما) أنا هو الغبار وقيل إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار يسمى نقعاً لارتفاعه ، وقيل هو من النقع في الماء ، فكان صاحب الغبار غاص فيه ، كما يفوص الرجل في الماء . (والثاني) النقع الصباح من قوله عليه الصلاة والسلام . « ما لم يكن نقع ولا لقلقة » أي فهيجن في المغار عليهم رياح النوايح ، وارتفعت أصواتهن ، ويقال نثار الغبار والدخان ، أي ارتفع وثار القطا عن مفرصه ، وأثرن الغبار أي هيجنه ، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله به إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه (أحدها) وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه ، والموضع الذي تقع فيه الإغارة ، لأن في قوله (فالمغيرات صبحاً) دليلاً على أن الإغارة لا بد لها من وضع ، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عمالم بحر ذكره بالتصريح كقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) و(ثانيها) إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة ، أي فأثرن في ذلك الوقت نقعاً (وثالثها) وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو ، أي فأثرن بالعدو نقعاً ، وقد تقدم ذكر العدو في قوله (والعاديات) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فإن قيل على أي شيء عطف قوله (فأثرن) قلنا على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، والتقدير واللائى عدون فأورين ، وأغرن فأثرن .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو حيوة (فأثرن) بالتحديد بمعنى فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار ، أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة .

قوله تعالى : ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث وسطت النهر والمفاضة أسطها وسطا وسطة ، أي صرت في وسطها ، وكذلك وسطتها وتوسطتها ، ونحو هذا ، قال الفراء : والضمير في قوله (به) إلى ماذا يرجع فيه وجوه (أحدها) قال مقاتل : أي بالعدو ، وذلك أن العاديات تدل على العدو ، فجازت الكناية عنه ، وقوله (جمعاً) يعني جمع العدو ، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو ، ومن حمل الآيات على الإبل ، قال يعني جمع أمي (وثانيها) أن الضمير عائد إلى النقع أي (وسطن) بالنقع الجمع (وثالثها) المراد أن العاديات وسطن ملبسا بالنقع جمعاً من جموع الأعداء ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ (فوسطن) بالتحديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد كقوله (وأثوابه) وهي مبالغة في وسطن ، واعلم أن الناس أكثرها في صفة الفرس ، وهذا القدر الذي ذكره الله أحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وقال أيضاً « ظهرها حرز

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ

لَشَدِيدٌ ﴿٦٨﴾

وبطها كنز ، واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به ، ذكر المقسم عليه وهو أمور ثلاثة :  
(أحدها) قوله ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال الواحدي أصل الكنود منع الحق والخير والكنود الذي يمنع ماعليه ، والأرض الكنود هي التي لا تنبت شيئاً ثم للمفسرين عبارات ، فقال ابن عباس ومجاهد عكرمة والضحاك وقتادة : الكنود هو الكفور قالوا ومنه سمي الرجل المشهور كندة لأنه كند أباه فقارقه ، وعن الكلبي الكنود بلسان كندة العاصي ولسان بني مالك البخيل ، ولسان مضر وربعة الكفور ، وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ( الكنود ) هو الكفور الذي يمنع رفته ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده ، وقال الحسن ( الكنود ) اللوام لربه يعد المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات ، وهو كقوله ( وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدره عليه رزقه فتقول ربى أهان ) .

واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً ، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس ، فلا بد من صرفه إلى كافر معين ، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله باطفه وتوفيقه من ذلك ، والأول قول الأكثرين قالو لأن ابن عباس قال : إنها نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي ، وأيضاً فقوله ( أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ) لا يلبق إلا بالكافر ، لأن ذلك كالدلالة على أنه منكر لذلك الأمر .

( الثاني ) من الأمور التي أقسم الله عليها قوله ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ وفيه قولان (أحدهما) أن الإنسان على ذلك أى على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بذلك ، أما لأنه أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحد ، أو لأنه يشهد على نفسه بذلك في الآخرة ويعترف بذنوبه ( القول الثاني ) المراد وإن الله على ذلك لشهيد قالوا وهذا أولى لأن للضمير عائداً إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا هو لفظ الرب تعالى ويكون ذلك كالوعيد والزر ليه عين المعاصي من حيث إنه يحصى عليه أعماله ، وأما الناصرون للقول الأول فقالوا إن قوله بعد ذلك ( وإنه لحب الخير لشديد ) الضمير فيه عائداً إلى الإنسان ، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائداً إلى الإنسان ليكون النظم أحسن .

( الأمر الثالث ) مما أقسم الله عليه قوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ الخير المال من قوله تعالى ( إن ترك خيراً ) وقوله ( وإذا مسه الخير منوعاً ) وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً كما أنه تعالى سمي مانعاً للمجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءاً في قوله ( لم يمسه )

## أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾

سره ) والشديد البخيل الممسك ، يقال فلان شديدة ومتشدد ، قال طرفة :  
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد  
ثم في التفسيرى وجوه (أحدها) أنه لأجل حب المال لبخيل بمسك ( وثانيها ) أن يكون المراد  
من الشديدة القرى ، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطبق ، وهو لحب  
عبادة الله وشكر نعمه ضعيف ، تقول هو شديد لهذا الأمر وقوى له ، وإذا كان منطبقاً له ضابطاً  
( وثالثها ) أراد إنه لحب الخيرات غير هنى منبسط ولكنه شديد منقبض ( ورابعها ) قال الفراء  
يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب يعنى أنه يحب المال ، ويجب كونه محباً له ،  
لأنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني ، كما قال ( اشتدت به الريح في يوم عاصف ) أى فى يوم  
عاصف الريح فكتفى بالأولى عن الثانية ( وخامسها ) قال قطرب ، أى إنه شديد حب الخير ، كقولك  
إنه لزيد ضروب أى أنه ضروب زيد .

واعلم أنه تعالى لما عد عليه قبائح أفعاله خوفه ، فقال ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ﴾  
وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القول فى ( بعثر ) مضى فى قوله تعالى ( وإذا القبور بعثرت ) وذكرنا  
أن معنى ( بعثرت ) بعث وأثير وأخرج ، وقرىء بـجثر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يسأل لم قال ( بعثر ما فى القبور ) ولم يقل بعثر من فى القبور ؟  
ثم إنه لما قال ما فى القبور ، فلم قال ( إن ربهم هم ) ولم يقل إن ربها بها يومئذ لخبير ؟ ( الجواب عن  
السؤال الأول ) هو أن ما فى الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب ، أو يقال  
أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك ، فلا جرم كان  
الضمير الأول ضمير غير العقلاء ، والضمير الثانى ضمير العقلاء .

ثم قال تعالى ﴿ وحصل ما فى الصدر ﴾ قال أبو عبيدة ، أى ميز ما فى الصدر ، وقال الليث :  
الحاصل من كل شىء ما بقى وثبت وذهب سواه ، والتحصيل تمييز ما يحصل والإسم الحصيلة قال ليلىد :  
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

وفى التفسيرى وجوه ( أحدها ) معنى حصل جمع فى الصحف ، أى أظهرت محصلاً مجموعاً ( وثانيها )  
أنه لا بد من التمييز بين الواجب ، والمندوب ، والمباح ، والمكروه ، والمحذور ، فإن لكل واحد  
ومنه قيسل للمنخل المحصل ( وثالثها ) أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره ، أما فى  
يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتبتهك الأستار ، ويظهر ما فى البواطن ، كما قال ( يوم تلى السرائر )  
واعلم أن حظ الوعظ منه أن يقال إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه ، فتبنى المقبرة وتشتري

## إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

التابوت ، وتفصل الكفن ، وتغزل العجوز الكفن ، فيقال هذا كله للديدان ، فأين حظ الرحمن ! بل المرأة إذا كانت حاملاً فإنها تعد للطفل ثياباً ، فإذا قلت لها لا طفل لك فما هذا الاستعداد ؟ فتقول ليس يبعثر ما في بطني ؟ فيقول الرب لك : ألا يبعثر ما في بطن الأرض ، فأين الاستعداد ، وقرى . وحصل بالفتح والتخفيف بمعنى ظهر .

ثم قال ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ اعلم أن فيه سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أنه يوم أن علمه بهم في ذلك اليوم إنما حصل بسبب الخبرة ، وذلك يقتضى سبق الجهل وهو على الله تعالى محال ( الجواب ) من وجهين ( أحدهما ) كأنه تعالى يقول : إن من لم يكن عالماً ، فانه يصير بسبب الاختبار عالماً ، فمن كان لم يزل عالماً أن يكون خبيراً بأحوالك ! ( وثانيهما ) أن فائدة تخصيص ذلك الوقت في قوله ( يومئذ ) مع كونه عالماً لم يزل أنه وقت الجزاء ، وتقديره لمن الملك كأنه يقول لا حاكم يروج حكمه ولا عالم تزوج فتواه يومئذ إلا هو ، وكم عالم لا يعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك ، فكأنه تعالى يقول لست كذلك .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم خص أعمال القلوب بالذكر في قوله ( وحصل ما في الصدور ) وأهمل ذكر أعمال الجوارح ؟ ( الجواب ) لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب . فإنه لولا البواعث والإردات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح ، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل في الذم ، فقال ( آثم قلبه ) والأصل في المدح ، فقال ( وجلت قلوبهم ) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال ( وحصل ما في الصدور ) ولم يقل وحصل ما في القلوب ؟ ( الجواب ) لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته ، إنما المنازع في هذا الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر ، ولذلك قال ( يوسوس في صدور الناس ) وقال ( أفن شرح الله صدره للاسلام ) فجعل الصدر موضعاً للاسلام .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الضمير في قوله ( إن ربهم بهم ) عائد إلى الإنسان وهو واحد ( والجواب ) الإنسان في معنى الجمع كقوله تعالى ( إن الإنسان لفي خسر ) ثم قال ( إلا الذين آمنوا ) ولولا أنه للجمع وإلا لما صح ذلك . واعلم أنه بقى من مباحث هذه الآية مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانية ، لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم فيكون منكراً كافراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل أن الحجاج سبق على لسانه أن بالنصب ، فأسقط اللام من قوله ( لخبير ) حتى لا يكون الكلام لحناً ، وهذا يذكر في تقرير فصاحته ، فزعم بعض المشايخ أن هذا كفر لأنه قصد لتغيير المنزل . ونقل عن أبي السماأل أنه قرأ على هذا الوجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

(١٠١) سُورَةُ الْقَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّانَهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فكأنه قيل وما ذلك اليوم؟ فقيل هي القارعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ القارعة ، القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ اعلم أن فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الفرع الضرب بشدة واعتماد ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال الله تعالى ( ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ) ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا ، ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب ، وتقارعوا تضاربوا بالسيوف ، واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة ، واختلفوا في لية هذه التسمية على وجوه (أحدها) أن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق ، لأن في الصيحة الأولى تذهب العقول ، قال تعالى ( فصعق من في السموات ومن في الأرض ) وفي الثانية تموت الخلائق سوى إسرئيل ، ثم يميتة الله ثم يحييه ، فينفخ الثالثة فيقومون . وروى أن الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقب معلومة ، فيجى الله كل جسد يتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقب المعينة ، والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى ( ما ينظرون إلا صيحة واحدة ، فإنما هي زجرة واحدة ) (وثانيها) أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان اصطكاكا شديدا عند تخريب العالم ، فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة ( وثالثها ) أن القارعة هي التي تفرع الناس بالاهوال والإفزاز ، وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار ، وفي الشمس والقمر بالتسكور ، وفي الكواكب بالانتثار ، وفي الجبال بالدك والنسف ، وفي الأرض بالطي والتبديل ، وهو قول الكلبي ( ورابعها ) أنها تفرع أعداء الله بالعذاب والحزى والنكال ، وهو قول مقاتل ، قال بعض المحققين وهذا أولى من قول الكلبي لقوله تعالى ( وهم من فرع يومئذ آمنون ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في إعراب قوله ( القارعة ما القارعة ) وجوه (أحدها) أنه تحذير وقد

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤١﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

الْمَنْفُوشِ ﴿٤٢﴾

جاء التحذير بالرفع والنصب تقول الأيسد الأسد ، فيجوز الرفع والنصب ( وثانيها ) فيه إضمار أى ستأتينكم القارعة على ما أخبرت عنه فى قوله ( إذا بعث مافى القبور ) ( وثالثها ) رفع بالابتداء وخبره ( ما القارعة ) وعلى قول قطرب الخبر . ( وما أدراك ما القارعة ) فإن قيل إذا أخبرت عن شىء بشىء فلا بد وأن تستفيد منه شيئاً زائداً ، وقوله ( وما أدراك ) يفيد كونه جاهلاً به فكيف يعقل أن يكون هذا خبراً ؟ قلنا قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد ، لأننا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع ، فهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع فى الهول والشدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ( وما أدراك ما القارعة ) فيه وجوه ( أحدها ) معناه لا علم لك بكنهها ، لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه ، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك كأنه تعالى قال : قوارع الدنيا فى جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا فى جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ، ولذلك قال فى آخر السورة ( نار حامية ) تنبيهاً على أن نار الدنيا فى جنب تلك ليست بحامية ، وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه . فإن قيل ههنا قال ( وما أدراك ما القارعة ) وقال فى آخر السورة ( فأمه هاوية ، وما أراك ما هية ) ولم يقل وما أدراك ما هاوية فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس ، أما كونها هاوية فليس كذلك ، فظهر الفرق بين الموضوعين ( وثانيها ) أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بأخبار الله وبيانه ، لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات ، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ نظير هذه الآية قوله ( الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ) ثم قال المحققون قوله ( القارعة ما القارعة ) أشد من قوله ( الحاقة ما الحاقة ) لأن النازل آخر الأبد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى ، وأما بالنظر إلى المعنى ، فالحاقة أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل .

قوله تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ قال صاحب الكشاف : الظرف نصب بمضمرة دلت عليه القارعة ، أى تفرع يوم يكون الناس كذا .

واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين ( الأول ) كون الناس فيه ( كالفراش المبثوث ) قال الزجاج : الفراش هو الحيوان الذى يتهاقت فى النار ، وسمى فراشاً لتفرشه وانتشاره ، ثم إنه

تعالى شبه الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبعوث ، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر . أما وجه التشبيه بالفراش ، لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا ، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ، والمبعوث المفرق ، يقال به إذا فرقه . وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة . قال الفراء : كغزاة الجراد يركب بعضه بعضاً ، وبالجملة فإله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبعوث ، لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش ، ويؤكد ما ذكرنا بقوله تعالى ( فتأتون أفواجا ) وقوله ( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) وقوله في قصة يأجوج ومأجوج ( وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ) فإن قيل الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار ، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً ؟ قلنا شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين . أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى . وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع ، ويحتمل أن يقال إنها تكون كباراً أولاً كالجراد ، ثم تصير صغاراً كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس ، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى ( أحدها ) ما روى أنه عليه السلام قال « الناس عالم ومتعلم ، وسائر الناس همج رعاع » فجعلهم الله في الأخرى كذلك ( جزاء وفاقاً ) ( وثانيها ) أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ، فقال ( كالفراش ) لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش ، لأن الفراش لا يعذب ، وهؤلاء يمدبون ، ونظيره ( كالأنعام بل هم أضل ) .

( الصفة الثانية ) من صفات ذلك اليوم قوله تعالى ( وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) العهن الصوف ذو الألوان ، وقد مر تحقيقه عند قوله ( وتكون الجبال كالعهن ) والنفس فك الصوف حتى ينفش بعضه عن بعض ، وفي قراءة ابن مسعود : كالصوف المنفوش .

وأعلم أن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال ( ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ) ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال ، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ! فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تداركه رحمة ربه ، ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حررتها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد وصف الله تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه ( أولها ) أن تصير قطعاً ، كما قال ( ودكت الجبال دكا ) ، ( وثانيها ) أن تصير كثيباً مهيباً ، كما قال ( وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب ) ثم تصير كالعهن المنفوش ، وهي أجزاء كاللذذ تدخل



فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾

من كوة البيت لا تمسها الأيدي ، ثم قال في الرابع تصوير سراباً ، كما قال ( وسيرت الجبال فكانت سراباً ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يقل يوم يكون الناس كالفرش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال ( وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) لأن التكوير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير .  
واعلم أنه تعالى لما وصف يوم القيامة قسم الناس فيه إلى قسمين فقال ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ واعلم أن في الموازين قرنين ( أحدهما ) أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وهذا قول الفراء قال ونظيره يقال : عندي درهم بميزان درهمك ووزن درهمك وداري بميزان دارك ووزن دارك أي بميزانها ( والثاني ) أنه جمع ميزان ، قال ابن عباس الميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال فيتوأتى بحسنات المطيع في أحسن صورة ، فإذا رجح فالجنة له ويتوأتى بسيئات الكافر في أفح صورة فيخف وزنه فيدخل النار . وقال الحسن في الميزان له كفتان ولا يوصف ، قال المتكلمون إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنها ، خصوصاً وقد نقضها ، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن ، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات ، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة فيظهر بذلك الثقل والخفة ، وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سروراً ، وظهور حال صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق .

أما قوله تعالى ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ فالعيشة مصدر بمعنى العيش ، كالخيفة بمعنى الخوف ، وأما الراضية فقال الزجاج : معناه أي عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها وهي كقولهم لابن ، وتامر بمعي ذو لبن وذو تمر ، ولهذا قال المفسرون تفسيرها مرضية على معنى يرضاها صاحبها .

ثم قال تعالى ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أي قلت حسناته فرجحت السيئات على الحسنات قال أبو بكر رضي الله عنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً ، وقال مقاتل : إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف .

فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

أما قوله تعالى ﴿ فأمه هاوية ﴾ ففيه وجوه : ( أحدها ) أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، والمعنى فأواه النار ، وقيل للبأوى أم على سبيل التشبيه بالأم التي لا يقع الفرع من الولد إلا إليها ( وثانيها ) فأم رأسه هاوية في النار ذكره الأخفش ، والكلبي ، وقنادة قال لأنهم يهرون في النار على رؤوسهم ( وثالثها ) أنهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا هوت أمه لأنه إذا هوى أى سقط وهلك فقد هرت أمه جزناً وثلثاً ، فكأنه قيل ( وأما من خفت موازينه ) فقد هلك .

ثم قال تعالى ﴿ وما أدراك ما هي ﴾ قال صاحب الكشف هيه ضمير الداهية التي دل عليها قوله ( فأمه هاوية ) في التفسير ( الثالث ) أو ضمير ( هاوية ) والهاء للسكت فإذا وصل جاز حذفها والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه ، وذكرنا الكلام في هذه الهاء عند قوله ( لم يتسنه ، فبهدام اقتده ، ما أغنى عنى ماله ) .

ثم قال تعالى ﴿ نار حامية ﴾ والمعنى أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية ، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخرتها ، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله التوفيق وحسن المسآب ( ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ) .



(١٠٢) سُورَةُ التَّكْوِيْنِ  
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَكَرُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فِيهِ مَسَائِلُ :

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ الْإِلْهَاءُ الصَّرْفُ إِلَى اللَّهْوِ . وَاللَّهْوُ الْإِنْصِرَافُ إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْهَوَى ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْصِرَافَ إِلَى الشَّيْءِ يَقْتَضِي الْإِعْرَاضَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ أَلْهَانِي فَلَانٍ عَنْ كَذَا أَيْ أَنْسَانِي وَشَعَلْنِي ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ « أَنَّ الزَّبِيرَ كَانَ سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ لَهَى عَنْ حَدِيثِهِ » أَيْ تَرَكَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَرَكَتَهُ فَقَدْ لَهَيْتَ عَنْهُ ، وَالتَّكَاثُرُ التَّبَاهِي بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَنَاقِبِ يُقَالُ تَكَاثَرَ الْقَوْمُ تَكَاثُرًا إِذَا تَعَادَلُوا مَا لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْمَنَاقِبِ ، وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : التَّكَاثُرُ تَفَاعُلٌ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّفَاعُلُ يَقَعُ عَلَى أَحَدٍ وَجْهٍ ثَلَاثَةٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ فَيَسْكُونُ مَفَاعَلَةً ، وَيَحْتَمِلُ تَكْلُفُ الْفِعْلِ تَقُولُ تَكَارَهْتَ عَلَى كَذَا إِذَا فَعَلْتَهُ وَأَنْتَ كَارَهُ ، وَتَقُولُ تَبَاعَدْتَ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا تَكَلَّفْتَ الْعَمَى عَنْهُ وَتَقُولُ تَغَافَلْتَ ، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ كَمَا تَقُولُ تَبَاعَدْتَ عَنِ الْأَمْرِ أَيْ بَعَدْتَ عَنْهُ ، وَلَفْظُ التَّكَاثُرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَيَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ ، فَيَحْتَمِلُ التَّكَاثُرَ بِمَعْنَى الْمَفَاعَلَةِ لِأَنَّهُ كَمِ مِنْ اثْنَيْنِ يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ ( أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا وَأَعَزُّ نَفْرًا ) وَيَحْتَمِلُ تَكْلُفَ الْكَثْرَةِ فَانِ الْحَرِيصُ يَتَكَلَّفُ جَمِيعَ عَمَلِهِ تَكْثِيرَ مَالِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّفَاخُرَ وَالتَّكَاثُرَ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَتَفَاخَرُوا بَيْنَكُمْ ) .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ ﴾ اعْلَمْ أَنَّ التَّفَاخُرَ إِذَا كَانَ يَأْتِي الْإِنْسَانَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ السَّعَادَةِ

لِنَفْسِهِ ، وَأَجْنَاسِ السَّعَادَةِ ثَلَاثَةٌ :

( فَأَحَدُهَا ) فِي النَّفْسِ ( وَالثَّانِيَّةُ ) فِي الْبَدَنِ ( وَالثَّلَاثَةُ ) فِيمَا يُطِيفُ بِالْبَدَنِ مِنْ خَارِجٍ ، أَمَا الَّتِي فِي النَّفْسِ فَهِيَ الْعِلْمُ وَالْإِخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ وَهِيَ الْمُرَادَانُ بِقَوْلِهِ حِكَايَةُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ( رَبِّ هَبْ لِي حِكْمًا وَالحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ ) وَبِهِمَا يَنَالُ الْبَقَاءَ الْأَبَدِيَّ وَالسَّعَادَةَ السَّرْمَدِيَّةَ .

وَأَمَا الَّتِي فِي الْبَدَنِ فَهِيَ الصِّحَّةُ وَالْجَمَالُ وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ ، وَأَمَا الَّتِي تُطِيفُ بِالْبَدَنِ مِنْ خَارِجٍ فَتَسْمَانُ : ( أَحَدُهُمَا ) ضَرُورِي وَهُوَ الْمَالُ وَالْجَاهُ وَالْآخِرُ غَيْرُ ضَرُورِي وَهُوَ الْإِقْرَابُ وَالْأَصْدِقَاءُ .

وهذا الذى عددناه فى المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يحمل المال والجاء فداء له .

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية فإنه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية ، إذا عرفت هذا فنقول : العاقل ينبغي أن يكون سعيه فى تقديم الأهم على المهم ، فالتفاخر بالمال والجاء والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات ، والاشتغال به يمنع الإنسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل ، فيكون ذلك ترجيحاً لأخس المراتب فى السعادات على أشرف المراتب فيها ، وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق ، فلهذا السبب ذههم الله تعالى فقال ( الهاكم التكاثر ) ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاء والأقرباء والأنصار والجيش ، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ( الهاكم ) يحتتمل أن يكون إخباراً عنهم ، ويحتتمل أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ والتفريع أى الهاكم ، كما قرئ أنذرهم وأندرتهم ، وإذا كنا عظاماً وأندنا كنا عظاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على إن التكاثر والتفاخر فى السعادات الحقيقية غير مذموم ، ومن ذلك ما روى من تفاخر العباس بأن السقاية بيده ، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال على عليه السلام : وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلمتم فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى ( أجمعتم سقاية الحاج ) الآية وذكرنا فى تفسير قوله تعالى ( وأما بنعمة ربك فحدث ) أنه يجوز للإنسان أن يفخر بطاعته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدى به ، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر فى العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ، هو الحمود ، وهو أصل الخيرات ، فالأنف واللام فى التكاثر ليسا للاستغراق ، بل للمعهود السابق ، وهو التكاثر فى الدنيا ولذاتها وعلائقها ، فإنه هو الذى يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ، ولما كان ذلك مقررأ فى العقول ومتفقاً عليه فى الأديان ، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى تفسير الآية وجوه ( أحدها ) ( الهاكم التكاثر ) بالعدد روى أنها نزلت فى بنى سهم وبنى عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم عدوا بجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا أفراد بنو سهم ، فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن ، لأن قوله ( حتى زرتم المقابر ) يدل على أنه أمر مضى . فكانه تعالى يعجبهم من أنفسهم ، ويقول هب أنكم أكثر منهم عدداً فلماذا ينفع ، والزيارة إتيان الموضوع ، وذلك يكون لأغراض كثيرة ، وأهمها وأولها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا

فإن مشاهدة القبور تورث ذلك على ما قال عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة » ثم إنكم زرتم القبور ، بسبب قساوة القلب والاستغراق في حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية ، لاجرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب .

(والقول الثاني) أن المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه ، أنه عليه السلام كان يقرأ (أهاكم) وقال ابن آدم ، يقول مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، والمراد من قوله (حتى زرتم المقابر) أي حتى متم وزيارة الذبر عبارة عن الموت ، يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه ، قال جرير للأخطل :

زار القبور أبو مالك فأصبح الأام زوارها

أي مات فيكون معنى الآية : أهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتناكم الموت ، وأنتم على ذلك ، يقال حملة على هذا الوجه مشكل من وجهين (الأول) أن الزائر هو الذي يزور ساعة ثم ينصرف ، والميت يبقى في قبره ، فكيف يقال إنه زار القبر؟ (والثاني) أن قوله (حتى زرتم المقابر) إخبار عن الماضي ، فكيف يحمل على المستقبل؟ (والجواب) عن السؤال الأول أنه قد يمكث الزائر ، لكن لا بد له من الرحيل ، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب (والجواب) عن السؤال الثاني من وجوه (أحدها) يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر ، ولذلك يقال فيه إنه على شفير القبر (وثانيها) أن الخبر عن تقدمهم وعظاً لهم ، فهو كالخبر عنهم ، لأنهم كانوا على طريقتهم ، ومنه قوله تعالى (ويقنلون التيين) (وثالثها) قال أبو مسلم : إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعبيراً للكفار ، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور .

(والقول الثالث) (أهاكم) الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت ، ثم تقول في تلك الحالة : أوصيت لأجل الزكاة بكذا ، ولأجل الحج بكذا .

(والقول الرابع) (أهاكم التكاثر) فلا تلتفتون إلى الدين ، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر البتة إلا إذا زرتم المقابر ، هكذا ينبغي أن تكون حالكم ، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ، ونظيره قوله تعالى (قليل ما نشكرون) أي لا أفتع منكم بهذا القدر القليل من الشكر .

(المسألة السادسة) أنه تعالى لم يقل (أهاكم التكاثر) عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، أي : أهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والنفكر والتدبر ، أو نقول إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى : أهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارة والاستعداد لها قبل الموت ، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى أهاكم التكاثر ، فذسيتم القبر حتى زرتموه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

﴿٦﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

أما قوله تعالى ﴿٤﴾ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴿٥﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده أما الأول ، فعلى وجه الرشد والتكذيب أى ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والاموال والأولاد ، وأما اتصاله بما بعده ، فعلى معنى القسم أى حقاً سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائباً ، والكافر مسلماً ، والحريص زاهداً ، ومنه قول الحسن لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك ، وتقريره (يوم يفر المرء ، ويأتينا فرداً ، ولقد جئناكم فرداً) إلى أن قال (وتركتم ما خولناكم) وهذا يمنعك عن التكاثر ، وذكروا فى التكرير وجوهاً (أحدها) أنه للتأكيد ، وأنه وعيد بعد وعيد كما تقول للنصوح أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل (وثانيها) أن الأول عند الموت حين يقال له لا بشرى والثانى فى سؤال القبر : من ربك ؟ والثالث عند النشور حين ينادى المنادى ، فلان شقى شقارة لا سعادة بعدها أبداً وحين يقال (وامتازوا اليوم) (وثالثها) عن الضحاك سرف تعلمون ، أيها الكفار (ثم كلا سوف تعلمون) أيها المؤمنون ، وكان يقرؤها كذلك ، فالأول وعيد والثانى وعد (ورابعها) أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لا يعرف قدر آثارها وتأثيرها ، ثم إنه تعالى يقول ، سوف تعلم العلم المفضل لكن التفصيل يحتمل الزائد فهما حصلت زيادة لذة ، ازداد علماً ، وكذا فى جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحوال ، فعند المعاينة يزداد ، ثم عند البعث ، ثم عند الحساب . ثم عند دخول الجنة والنار ، فلذلك وقع التكرير (وخامسها) أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة ، كما روى عن ذر أنه قال كنت أشك فى عذاب القبر ، حتى سمعت على بن أبى طالب عليه السلام يقول ، إن هذه الآية تدل على عذاب القبر ، وإنما قال (ثم) لأن بين العالمين والحياتين موتاً .

قوله تعالى : ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ﴿٥﴾ وفيه مسائل : ﴿المسألة الأولى﴾ اتفقوا على أن جواب لو محذوف ، وأنه ليس قوله (لترون الجحيم) جواب لو وبدل عليه وجهان (أحدهما) أن ما كان جواب لو فنفيه إثبات ، وإثباته نفي ، فلو كان قوله (لترون الجحيم) جواباً للـ لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية ، وذلك باطل ، فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً ، فإن قيل المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب فى الدنيا ، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا ترك الظاهر خلاف الأصل (والثانى) أن قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) لإخبار عن أمر سيقع قطعاً ، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح فى النظم ، واعلم أن ترك الجواب

في مثل هذا المكان أحسن ، يقول الرجل للرجل لو فعلت هذا أى لسان كذا ، قال الله تعالى ( لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ) ولم يجيء له جواب وقال ( ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ) إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا في جواب لو وجوهاً ( أحدها ) قال الاخفش ( لو تعلمون علم اليقين ) ما ألهاكم التكاثر ( وثانيها ) قال أبو مسلم لو علمت ماذا يجب عليكم لتسكنتم به أو لو علمت لآى أمر خلقتم لاشتغلتم به ( وثالثها ) أنه حذف الجواب ليذهب الوم كل مذهب فيكون التهويل أعظم ، وكأنه قال ( لو علمت علم اليقين ) لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ، وإسكنكم ضلال وجهلة ، وأما قوله ( لترون الجحيم ) فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدا به مما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بتم تغليظاً للتهديد وزيادة في التهويل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو الزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر ، كأنه تعالى قال لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضرراً آخر ، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضى عندهم ، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى ( كلا ) في هذا الموضع بمعنى حقاً كأنه قيل حقاً ( لو تعلمون علم اليقين ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله ( علم اليقين ) وجهان ( أحدهما ) أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة ، كقوله تعالى ( ولدار الآخرة ) وكما يقال مسجد الجامع وعام الأول ( والثاني ) أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة ، وقد سمي الموت يقيناً في قوله ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) ولأنهما إذا رقا جاء اليقين ، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما ياتي الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله ، وقد يقول الإنسان ، أنا أعلم علم كذا أى أتحققه ، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب ، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال علمت علم كذا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العلم من أشد البواعث على العمل ، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعداً وعظة ، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فينبذ يكون حسرة وندامة ، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات [ وجد خرزاً ] ، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر ، ثم الأخذون كانوا في الغم أى لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا ، والذين لم يأخذوا كانوا أيضاً في الغم ، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتروا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضى أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلًا له فالويل للعالم الذى لا يكون عاملاً ثم الويل له .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في تكرار الرؤية وجوه ( أحدها ) أنه لتأكيد الوعيد أيضاً لعل القوم

## ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضى كون تلك الرؤية اضطرارية ،  
 يعنى لو خليتكم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شتم أم أيتم ( وثانها ) أن أولهما  
 الرؤية من البعيد ( إذا رأيتم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظاً ) وقوله ( وبرزت الجحيم لمن يرى )  
 والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار ( وثالثها ) أن الرؤية الأولى عند الورد والثانية عند  
 الدخول فيها ، وقيل هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال ( ثم لتسألن ) والسؤال يكون قبل الدخول  
 ( ورابعها ) الرؤية الأولى الموعد والثانية المشاهدة ( وخامسها ) أن يكون المراد لبرون الجحيم  
 غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم  
 فكأنه قيل لهم ، على جهة الوعيد ، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة  
 متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله ( ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت - إلى قوله -  
 فارجع البصر كرتين ) بمعنى لو أعدت النظر فيها ما شئت لم تجد فطوراً ولم يرد مرتين فقط ، فكذا  
 ههنا ، إن قيل ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين ؟ قلنا لأنهم في المرة الأولى رأوا لهباً لا غير ،  
 وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ، ولا  
 شك أن هذه الرؤية أجلى ، والحكمة في النقل من العلم الآخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر  
 لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قراءة العامة لترون بفتح التاء ، وقرئ بضمها من رأيته الشيء ، والمعنى  
 أنهم يحشرون إليها فيرونها ، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي كأنهما أرادا لترونها  
 فترونها ، ولذلك قرأ الثانية ( ثم لترونها ) بالفتح ، وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها  
 وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عددناها ، واعلم أن قراءة العامة أولى  
 لوجهين ( الأول ) قال الفراء قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن الجحيم  
 لفظه ( الثانى ) قال أبو على المعنى في ( لترون الجحيم ) لترون عذاب الجحيم ، ألا ترى أن الجحيم  
 يراها المؤمنون أيضاً بدلالة قوله ( وإن منكم إلا واردها ) وإذا كان كذلك كان الوعيد في رؤيتها  
 عذابها لا في رؤيتها نفسها يدل على هذا قوله ( إذ يرون العذاب ) وقوله ( وإذا رأى الذين ظلموا  
 العذاب ) وهذا يدل على أن لترون أرجح من لترون .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ فيه قولان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في أن الذى يسأل عن النعيم من هو ؟ فيه قولان .

﴿ أحدهما ﴾ وهو الأظهر أنهم الكفار ، قال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار

ويدل عليه وجهان ( الأول ) ما روى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية ، قال يا رسول الله : رأيت



أكله أكلها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذي نسأل عنه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك للكفار ، ثم قرأ ( وهل يجازى إلا الكفور ) ( والثاني ) وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه ، وذلك لأن الكفار الهام التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره ، فإله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سبباً لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم في الآخرة .

( والقول الثاني ) أنه عام في حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث ، روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له . ألم نصح لك جسمك وزوك من الماء البارد » وقال محمود بن لبيد لما نزلت هذه السورة قالوا يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ إنما هما الماء والتمر وسبوفنا على عواتقنا والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال « إن ذلك سيكرن » وروى عن عمر أنه قال أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال ﷺ « ظلال المساكين والأشجار والأخبية التي تقيمكم من الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار » وقريب منه « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » وروى أن شاباً أسلم في عهد رسول الله ﷺ فعلمه رسول الله سورة الهاكم ثم زوجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال لا أريد ذلك فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عنه فقال ألسنت علمتني ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك . وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال هل علي من النعمة شيء ؟ قال الظل والتعلان والماء البارد . وأشهر الأخبار في هذا ما روى أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد ، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال ما أخرجك يا أبا بكر ؟ قال الجوع ، قال والله ما أخرجني إلا الذي أخرجك ، ثم دخل عمر فقال مثل ذلك ، فقال قوموا بنا إلى منزل أبي الهيثم ، فدق رسول الله ﷺ الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك فقال لها خيراً ، ثم قالت بأبي أنت وأمي إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ، ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عنافاً وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام « هذا من النعيم الذي تسألون عنه » وروى أيضاً « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره وماله وشبابه وعمله » وعن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن العبد ليسأل يوم القيامة حتى عن كل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، عن لمس ثوب أخيه » واعلم أن الأولى أن يقال السؤال يعم المؤمن والكافر ، لكن سؤال الكافر توبيخ لأنه ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشریف لأنه شكر وأطاع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في النعيم المستؤل عنه وجوهاً ( أحدها ) ما روى أنه خمس : شمع

البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق ( وثانيها ) قال ابن مسعود إنه الأمن والصحة والفراغ ( وثالثها ) قال ابن عباس إنه الصحة وسائر ملاذ المأكل والمشروب ( ورابعها ) قال بعضهم الانتفاع بإدراك السمع والبصر ( وخامسها ) قال الحسن بن الفضل تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ( وسادسها ) قال ابن عمر إنه الماء البارد ( وسابعها ) قال الباقر إنه العافية ، ويروى أيضاً عن جابر الجعفي قال : دخلت على الباقر فقال ما تقول أرباب التأويل في قوله ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) ؟ فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال : لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وأسقيته ماء بارداً آمن عليه ؟ فقلت لا ، قال فأنه أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه ، فقلت ماتا ويله ؟ قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة ، أما سمعت قوله تعالى ( لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا ) الآية ( القول الثامن ) إنما يسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن . ( والتاسع ) وهو الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم ، ويدل عليه وجوه : ( أحدها ) أن الألف واللام يفيدان الاستغراق ( وثانيها ) أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي لا سيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى ( وثالثها ) أنه تعالى قال ( يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ) والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى فكذا ههنا ( ورابعها ) أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاض وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل ، كما أن الترياق اسم للمهجون المركب من الأدوية الكثيرة فإذا ذكر الترياق فقد دخل الكل فيه .

واعلم أن النعم أقسام فمنها ظاهرة وباطنة ، ومنها متصلة ومنفصلة ، ومنها دينية ودنيوية ، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة ، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ما قاله تعالى ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) واستمع في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء ، ثم هم أشد الخلق غفلة ، وفي معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمتجيمين ، وهم أشد الناس جهلا بالصانع ، وفي معرفة سلطان الله بالملوك ، ثم هم أجهل الخلق ، وأما الذي يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمنه هذا من جملته ، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود ، ومنه قول ابن السماك للرشيد أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء في فلاة أكنت تبذل فيه نصف الملك ؟ وإذا شرقت بها أكنت تبذل نصف الملك ؟ وإن احتبس بولك أكنت تبذل كل الملك ؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين ؛ أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره ، قال تعالى ( أن أفيضوا علينا من الماء ) أو لأن السورة نزلت في المترفين ، وهم المختصون بالماء البارد والظل ، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعم سواء كان مما لا بد منه [ أو لا ] ، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون

مصروفاً إلى طاعة الله لا إلى معصيته ، فيكون السؤال وافعاً عن الكل ، ويؤ كده بما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عليه ماذا عمل به ، فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في أن هذا السؤال أين يكون ؟

( فالقول الأول ) أن هذا السؤال إنما يكون في موقف الحساب ، فإن قيل هذا لا يستقيم ، لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله ( ثم لتسألن ) وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم ؟ قلنا المراد من قوله ( ثم ) أى ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة ، وهو كقوله ( فك رقبة أو إطعام في يوم ذى مسغبة ) إلى قوله ( ثم كان من الذين آمنوا ) .

( القول الثانى ) أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخاً لهم ، كما قال ( كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ) وقال ( هاسلكم فى سقر ) ولا شك أن مجيء الرسول نعمة من الله ، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار ، أو يقال إنهم إذا صاروا فى الجحيم وشاهدوها ، يقال لهم إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم فى دار الدنيا اشتغتم بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات ، فيكون ذلك من الملائكة سؤالاً عن نعيمهم فى الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١٠٣) سُورَةُ الْعَصْرِ كَثِيرًا  
وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والعصر﴾ اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالاً

(الأول) أنه الدهر ، واحتج هذا القائل بوجوه (أحدها) ما روى عن النبي ﷺ أنه أقسم بالدهر ، وكان عليه السلام يقرأ : والعصر ونواب الدهر إلا أنا نقول : هذا مفسد للصلاة ، فلا نقول إنه قرأه قرآنًا بل تفسيراً ، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره في (هل أتى) رداً على فساد قولهم بالطبع والدهر (وثانيها) أن الدهر مشتعل على الأعايب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب ، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم ، فإنه مجزأ مقسم بالسنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة ، وكونه ماضياً ومستقبلاً ، فكيف يكون معدوماً ؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة والماضي والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟ (وثالثها) أن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ، ثم تبت في اللحظة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الآباد فعلت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللحظة ، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المسكف ، وإليه الإشارة بقوله (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) (ورابعها) وهو أن قوله تعالى في سورة الأنعام (قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل الله) إشارة إلى المكان والمكانيات ، ثم قال (وله ما سكن في الليل والنهار) وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات ، وقد بينا هناك أن الزمان أعلى وأشرف من المكان ، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسماً بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته (وخامسها) أنهم كانوا يضيفون الحسرة إلى نوات الدهر ، فكانت تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان (وسادسها) أنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته

كسب صار ذلك النقصان عن الخسران ، ولذلك قال ( لفي خسر ) ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكان المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر ( القول الثاني ) وهو قول أبي مسلم : المراد بالعصر أحد طرفي النهار ، والسبب فيه وجوه ( أحدها ) أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فهمما جميعاً من دلائل القدرة فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت ، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسراً فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر ( وثانيها ) قال الحسن رحمه الله إنما أقسم بهذا الوقت تذكيراً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها ، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ما هو حقه فينذ تجل فتكون من الخاسرين ، فكذا نقول والعصر أي عصر الدنيا قد دنت القيامة و [ أنت ] بعد لم تستعد وتعلم أنك تسأل غداً عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك ، وتسأل في معاملتك مع الخلق وكل أحد من المظلومين يدعى ما عليك فإذا أنت خاسر ، ونظيره ( اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ) ، ( وثالثها ) أن هذا الوقت معظم ، والدليل عليه قوله عليه السلام « من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة » فكما أقسم في حق الراجح بالضحى فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الراجح وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وههنا في حق الخاسر توعدده أن أمره إلى الإدبار ، ثم كأنه يقول بمض النهار باق فيحثة على التدارك في البقية بالتوبة ، وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت هذا معنى ( إن الإنسان لفي خسر ) يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر .

( القول الثالث ) وهو قول مقاتل أراد صلاة العصر ، وذكروا فيه وجوهاً ( أحدها ) أنه تعالى أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله ( والصلاة الوسطى ) صلاة العصر في مصحف حفصة وقيل في قوله ( تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ) إنها صلاة العصر ( وثانيها ) قوله عليه السلام « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ( وثالثها ) أن التكليف في أدائها أشق لنهات الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم ( ورابعها ) روى أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول : دلوني على النبي ﷺ فرأها رسول الله ﷺ ، فسألها ماذا حدث ؟ قالت يا رسول الله إن زوجي غاب عني فزيت لجماني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة ؟ فقال عليه السلام أما الزنا فعليك الرجم ، أما قتل الولد فجزؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً ، لكن ظننت أنك تركت صلاة

## إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾

صلاة العصر ، ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة ( وخامسها ) أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار ، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال ، فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها ، فأقسم بهذه الصلاة تفخيماً لشأنها ، وزيادة توصية المكلف على أدائها وإشارة منه أنك إن أدتها على وجهها عاد خسرتك ربحاً ، كما قال ( إلا الذين آمنوا ) ( وسادسها ) قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكهم - [عد] منهم - رجل حلف بعد العصر كاذباً » ( فإن قيل ) صلاة العصر فعلنا ، فكيف يجوز أن يقال أقسم الله تعالى به ؟ ( والجواب ) أنه ليس قسماً من حيث إنها فعلنا ، بل من حيث إنها أمر شريف تعبدنا الله تعالى بها .

( القول الرابع ) أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام ، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام « إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً ، فقال من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط ، فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط ، فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل من العصر إلى المغرب بقيراطين ، فعملتم أتم ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل أجراً فقال الله : وهل نقصت من أجركم شيئاً ، قالوا لا ، قال فهذا فضلي أوتيته من أشاء ، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً ، فهذا الخبر دل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأتمته ، فلا جرم أقسم الله به ، فقوله ( والعصر ) أي والعصر الذي أنت فيه فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله ( وأنت حل بهذا البلد ) وبعمره في قوله ( لعمرك ) فكأنه قال : وعصرك وبلدك وعمرك ، وذلك كله كالظرف له ، فإذا وجب تعظيم حال الظرف فتمس حال المظروف ، ثم وجه القسم ، كأنه تعالى يقول : أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم ، وهم أعرضوا عنك وما التفوا إليك ، فما أعظم خسرتهم وما أجل خذلانهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الالف واللام في الإنسان ، يحتمل أن تكون للجنس ، وأن تكون للمهود السابق ، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين ( الأول ) أن المراد منه الجنس وهو كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس ، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان ( والقول الثاني ) المراد منه شخص معين ، قال ابن عباس : يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطاب . وقال مقاتل : نزلت في أبي لهب ، وفي خبر مرفوع

إنه أبو جهل ، وروى أن هؤلاء كانوا يقولون : إن محمداً لفي خسر ، فأتسم تعالى أن الأمر بالخذ مما يتوهمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخسر الخسران ، كما قيل الكفر في الكفران ، ومعناه نقصان وذهاب رأس المال ، ثم فيه تفسيران ، وذلك لأننا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره ، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله ، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية ، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء ، حينئذ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال ( لفي خسر ) ولم يقل لفي الخسر ، لأن التشكيك يفيد التحويل تارة والتحقيق أخرى ، فإن حملنا على الأول كان المعنى إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وتقديره أن الذنب يعظم بمعظم من في حقه الذنب ، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه ، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم ، وإن حملناه على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان ، وفيه بشارة أن في خلق من هو أعصى منك ، والتأويل الصحيح هو الأول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل : أن يقول قوله ( لفي خسر ) يفيد التوحيد ، مع أنه في أنواع من الخسر ( والجواب ) أن الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه ، وأما البواق وهو الحرمان عن الجنة ، والوقوع في النار ، فبالنسبة إلى الأول كالعدم ، وهنا كما أن الإنسان في وجوده فوائد ، ثم قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) أي لما كان هذا المقصود أجل المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم .

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر ( أحدها ) قوله ( لفي خسر ) يفيد أنه كالمغمور في الخسران ، وأنه أحاط به من كل جانب ( وثانيها ) كلمة إن ، فإنها للتأكيد ( وثالثها ) حرف اللام في لفي خسر ، وههنا احتمالان : ( الأول ) في قوله تعالى ( لفي خسر ) أي في طريق الخسر ، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى : ( إنما يأكلون في بطونهم ناراً ) لما كانت عاقبته النار .

( الاحتمال الثاني ) أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر هو تضييع رأس المال ، ورأس ماله هو عمره ، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره ، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران ، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضاً حاصل ، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر ، مع أنه كان متمكناً من أن يعمل فيه عملاً يبق أثره دائماً ، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها ، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك ، لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية ، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية ، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر ، فكان تعظيمه

## إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل ، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران ، فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران .

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة ، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية ، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة ، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب ، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها ، فكانوا في الخسران والبوار ، فإن قيل إنه تعالى قال في سورة التين ( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ) فهناك يدل على أن الابتداء من النكال والانتهاج إلى النقصان ، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاج إلى النكال ، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا المذكور في سورة التين أحوال البدن ، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مراراً ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج من قال العمل غير داخل في مسمى الإيمان ، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان ، ولو كان عمل الصالحات داخلاً في مسمى الإيمان لكان ذلك تكريراً ولا يمكن أن يقال هذا التكرير واقع في القرآن ، كقوله تعالى ( وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ) وقوله ( وملائكته وجبريل وميكال ) لآنا نقول هناك إنما حسن ، لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلي ، وعمل الصالحات ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان ، فبطل هذا التأويل . قال الحلبي : هذا التكرير واقع لا محالة ، لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات ، لكن قوله ( وعملوا الصالحات ) يشتمل على الإيمان ، فيكون قوله ( وعملوا الصالحات ) مغنياً عن ذكر قوله ( الذين آمنوا ) وأيضاً فقوله ( وعملوا الصالحات ) يشتمل على قوله ( وتواصوا بالحق ) ، وتواصوا بالصبر ( فوجب أن يكون ذلك تكراراً ، أجب الأولون وقالوا : إنا لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد ، لكن الأصل عدمه ، وهذا القدر يكفي في الاستدلال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية ، قالوا : الآية دلت على أن الإنسان في الخسارة مطلقاً ، ثم استثنى ( الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما ، فعلينا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة ، لا بد وأن يكون في الخسارة في الدنيا وفي الآخرة ، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين في غاية القلة ، وكان الخسار



## وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾

لازماً لمن لم يكن مستجمعاً لهما كان الناجي أقل من الهالك ، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيماً حتى لا تكون أنت من القليل ، كيف والناجي أقل ؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة ( أحدها ) أنه تسليية المؤمن من فوت عمره وشبابه ، لأن العمل قد أوصله إلى خير من عمره وشبابه ( وثانيها ) أنه تنبيه على أن كل مادعك إلى طاعة الله فهو الصلاح ، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد ( وثالثها ) قالت المعتزلة تسمية الأعمال بالصالحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على ما يقوله الأشعرية ، لكن الأمر إنما ورد لكونها في أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح ، وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة ، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لسائل أن يسأل ، فيقول إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، ولم يذكر الحكم فما الفرق ( قلنا ) إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل ، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك ، وهو عدم الإقدام على الطاعة ، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل ، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه تعالى في جانب الخسر أجمع ولم يفصل ، وفي جانب الربح فصل وبين ، وهذا هو الالاتق بالكرم .

### قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر و صاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يروصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سيياً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ) فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب ، وفي اجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه ، والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية فيها وعيد شديد ، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة ، وهي الإيمان والعمل الصالح والنواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بجموع هذه الأمور وإنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور ، منها الدعاء إلى الدين والنصيحة والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يجب له ما يجب لنفسه ، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدماء إلى الله ، والثاني الثبات عليه ، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر ، ومنه قوله ( وأنه عن المنكر ، واصبر ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوبي .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمة ، فلذلك قرن به التواصي .  
﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال ( وتواصوا ) ولم يقل ويتواصون لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي ، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ أبو عمرو ( بالصبر ) بضم الباء شيئاً من الحرف ، لا يشبع قال أبو علي ، وهذا مما يجوز في الوقف ، ولا يكون في الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وهذا لا يكاد يكون في القراءة ، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ ، والعصر بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفس أو لعارض منعه من إدراج القراءة ، وعلى هذا يحمل لا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١٠٤) سُوْرَةُ الْهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ  
وَآيَاتُهَا نِسْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وِيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ : فِيهِ مَسَائِلٌ :

﴿ الْمِسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ الْوَيْلُ لِفِظَةِ الذَّمِّ وَالسُّنْخَطِ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ كُلُّ مَكْرُوبٍ يَتَوَلَّوْنَ فَيَدْعُوْنَ بِالْوَيْلِ وَأَصْلُهُ وَى لِفُلَانٍ ثُمَّ كَثُرَتْ فِي كَلَامِهِمْ فَوَصَلَتْ بِاللَّامِ ، وَرَوَى أَنَّهُ جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ إِنْ قِيلَ لَمْ قَالَ هَهُنَا (وَيْلٌ) وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ (وَلَكُمْ الْوَيْلُ) ؟ قُلْنَا لِأَنَّ ثَمَّةَ قَالُوا ( يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) فَقَالَ ( وَلَكُمْ الْوَيْلُ ) وَهَهُنَا نَكَّرَ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كُنْهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَقِيلَ فِي وَيْلٍ لِّهَا كَلِمَةٌ تَقْبِيحٌ ، وَوَيْسٌ اسْتِصْغَارٌ وَوَيْجٌ تَرْحَمٌ ، فَهِيَ هَذَا عَلَى قَبْحِ هَذَا الْفِعْلِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْوَعِيدِ الَّذِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ هَلْ يَتَنَاوَلُ كُلٌّ مِنْ يَتَمَسَّكُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي الْأَفْعَالِ الرَّدِيئَةِ أَوْ هُوَ مَخْصُوصٌ بِأَفْوَامٍ مَعْيَنِينَ ، أَمَّا الْمُحَقِّقُونَ فَقَالُوا إِنَّهُ عَامٌ لِّكُلِّ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ كَاتِمًا مِنْ كَانَ وَذَلِكَ لِأَنَّ خُصُوصَ السَّبَبِ لَا يَقْدَحُ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّهُ مَخْتَصٌّ بِأَنَاسٍ مَعْيَنِينَ ، ثُمَّ قَالَ عَطَاءٌ وَالْكَلْبِيُّ نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ كَانَ يَلْبِزُ النَّاسَ وَيَقْتَابُهُمْ وَخَاصَّةً رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ مَقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ كَانَ يَغْتَابُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَرَائِهِ وَيَطْعُنُ عَلَيْهِ فِي أَوْجِهِهِ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ مَا زِلْنَا نَسْمَعُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفٍ ، قَالَ الْفَرَّاءُ وَكُنَ اللَّفْظُ عَامًا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ شَخْصًا مَعْيِنًا ، كَمَا أَنَّ إِنْسَانًا لَوْ قَالَ لَكَ لَا أَزُورُكَ أَبَدًا فَتَقُولُ أَنْتَ كُلِّ مَنْ لَمْ يَزُرْنِي لَا أَزُورُهُ وَأَنْتَ إِنَّمَا تَرِيدُهُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْعَامَّةِ وَهَذَا هُوَ الْمَسْمُومِي فِي أَصُولِ الْفِقْهِ بِتَخْصِيصِ الْعَامِ بِقَرِيْنَةِ الْعَرَفِ .

﴿ الْمِسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ ﴾ الْهُمَزُ الْكُسْرُ قَالَ تَعَالَى ( هَمَزٌ مَشَاءٌ ) وَاللَّمْزُ الطَّعْنُ وَالْمُرَادُ الْكُسْرُ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ وَالغَضُّ مِنْهُمْ وَالطَّعْنُ فِيهِمْ ، قَالَ تَعَالَى ( وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ) وَبِنَاءِ فِعْلِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مِنْهُ قَدْ ضَرَبَ بِهَا وَنَحْوُهَا اللَّعْنَةُ وَالضَّحْكَةُ ، وَقُرِئَ ( وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ) بِسُكُونِ الْمِيمِ وَهِيَ الْمُسْخَرَةُ الَّتِي تَأْتِي بِالْأَوَابِدِ وَالْإِضَاحِيكُ فَيَضْحَكُ مِنْهُ وَيَشْتَمُ وَالْمُفْسِّرِينَ أَلْفَاظًا ( أَحَدُهَا ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْهُمَزَةُ الْمَغْتَابُ ، وَاللُّمَزَةُ الْعِيَابُ ( وَثَانِيهَا ) قَالَ أَبُو زَيْدٍ : الْهُمَزَةُ بِالْيَدِ وَاللُّمَزَةُ

## الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾

باللسان ( وثالثها ) قال أبو العالية : الحمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب ( ورابعها ) الحمزة جهراً واللمزة سراً بالحاجب والعين ( وخامسها ) الحمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك ، ولكنه لا يلبق بمنصب الرياسة إنما ذلك من عادة السقاط ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا . وقد خكى الحكيم بن العاص مشية النبي صلى الله عليه وسلم فنفاه عن المدينة ولعنه ( وسادسها ) قال الحسن ، الحمزة الذي يهز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه ( وسابعها ) عن أبي الجوزاء قال قلت لابن عباس ( ويل لكل همزة لمزة ) من هؤلاء الذين بذمهم الله بالويل فقال هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإحبة الناعتون للناس بالعيب .

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الخسد والحقد ، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك ، وكل واحد من القسمين ، إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين ، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشي ، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة ، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر ، وقد يكون لغائب ، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما ، وكل ذلك داخل تحت النهي والزجر ، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لما إذا ، فما كان اللفظ موضوعاً له كان منهيّاً بحسب اللفظ ، وما لم يكن اللفظ موضوعاً له كان داخل تحت النهي بحسب القياس الجلي ، ولما كان الرسول أعظم الناس منصباً في الدين كان الطعن فيه عظيماً عند الله ، فلا جرم قال ( ويل لكل همزة لمزة ) .

قوله تعالى : ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ( الذي ) بدل من كل أو نصب على ذم ، وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجرى مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو إعجاب بما جمع من المال ، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستقص غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والتكسائي وابن عامر جمع بالتشديد والباقون بالتخفيف والمعنى في جمع وجمع واحد متقارب ، والفرق أن ( جمع ) بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا ، وأنه لم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، يقال فلان يجمع الأموال أي يجمعها من ههنا وههنا ، وأما جمع بالتخفيف ، فلا يفيد ذلك ، وأما قوله ( مالا ) فالتشكير فيه يحتمل وجهين ( أحدهما ) أن يقال المال اسم لكل ما في الدنيا كما قال ( المال والبنون زينة الحياة الدنيا ) فالإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير ، فكيف يليق به أن يفخر بذلك

## يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ ۖ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤٤﴾

القليل ( والثاني ) أن يكون المراد منه التعظيم أى مال بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات . فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟ أما قوله ( وعدده ) ففيه وجوه أحدها أنه مأخوذ من العدة وهي الذخيرة يقال أعددت الشيء لكذا وعددته إذا أمسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر ( وثانيها ) عدده أى أحصاه وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال فلان يعدد فضائل فلان ، ولهذا قال السدى وعدده أى أحصاه يقول هذا لى وهذا لى يليه ماله بالهار فاذا جاء الليل كان يخفيه ( وثالثها ) عدده أى كثره يقال فى بنى فلان عدد أى كثرة ، وهذا القولان الأخيران راجعان إلى معنى العدد ، والقول الثالث إلى معنى العدة ، وقرأ بعضهم وعدده بالتخفيف وفيه وجهان ( أحدهما ) أن يكون المعنى جمع المال وضبط عدده وأحصاه ( وثانيهما ) جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قورك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الانتصار والرجل متى كان كذلك كان أدخل فى التفاخر .

ثم وصفه تعالى بضرب آخر من الجهل فقال ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ .

واعلم أن أخلده وخلده بمعنى واحد ثم فى التفسير وجوه ( أحدها ) يحتمل أن يكون المعنى طول المال أمله ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أهله ، يحسب أن ماله تركه خالداً فى الدنيا لا يموت وإنما قال ( أخلده ) ولم يقل بخلده لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت وكأنه حكم قد فرغ منه ، ولذلك ذكره على الماضى . قال الحسن : ما رأيت يقيناً لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت ( وثانيها ) يعمل الأعمال المحكمة كتشييد البنيان بالاجر والحرص ، عمل من يظن أنه يبقى حياً أو لأجل أن يذكر بسية بعد الموت ( وثالثها ) أحب المال حباً شديداً حتى اعتقد أنه : إن انتقص مالى أموت ، فلذلك يحفظه من نقصان ليقى حياً ، وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل ( ورابعها ) أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذى يخلد صاحبه فى الدنيا بالذكر الجميل وفى الآخر فى النعيم المقيم .

أما قوله تعالى ﴿ كلاً ﴾ ففيه وجهان ( أحدهما ) أنه ردع له عن حسبانته أى ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده بل العلم والصلاح ، ومنه قول على عليه السلام : مات خزان المال وهم أحياء والعلماء بأقون مابقى الدهر ، والقول الثانى معناه حقاً ( لينبذن ) واللام فى ( لينبذن ) جواب القسم المقدر فدل ذلك على حصول معنى القسم فى كلاً .

أما قوله تعالى ﴿ لينبذن فى الحطمة ﴾ وما أدراك ما الحطمة ﴿ فانما ذكره بلفظ التنبذ الدال على الإهانة ، لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة ، وقويء لينبذان أى هو وماله ولينبذن بضم الذال أى هو وأنصاره ، وأما ( الحطمة ) فقال المبرد إنها النار التى تحطم كل من وقع

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى

الْأَفْعِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾

فيها ورجل حطمة أى شديد الأكل يأتي على زاد القوم ، وأصل الحطم في اللغة الكسر ، ويقال شر الرعاء الحطمة ، يقال راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم المشاية أى يكسرها عند سوقها لعنفه ، قال المفسرون الحطمة اسم من أسماء النار وهى الدركة الثانية من دركات النار ، وقال مقاتل : هى تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : إن الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبة على الركبة فتكسر ثم يرمى به في النار .

واعلم أن الفائدة في ذكر جهنم بهذا الإسم ههنا وجوه : (أحدها) الاتحاد في الصورة كأنه تعالى يقول : ان كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة ( والثاني ) أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى وراءك الحطمة ، وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب ، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبق ولا تذر ( الثالث ) أن الهماز اللماز يأكل لحم الناس والحطمة أيضاً اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم ، ويمكن أن يقال ذكر وصفين الهمز واللمز ، ثم قابلهما باسم واحد وقال خذ واحداً منى بالإنثين منك فإنه بنى ويكفى ، فكان السائل يقول كيف بنى الواحد بالانثين ؟ فقال إنما تقول هذا لأنك لا تعرف هذا الواحد فلذلك قال ( وما أدراك ما الحطمة ) .

أما قوله تعالى ﴿ نار الله ﴾ فالإضافة للتفخيم أى هى نار لا كسائر النيران ﴿ الموقدة ﴾ التى لا تخمد أبداً أو ( الموقدة ) بأمره أو بقدرته ومنه قول على عليه السلام : عجبا بمن يعصى الله تلى وجه الأرض والنار تسعر من تحته ، وفي الحديث « أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت ففى الآن سوداء مظلمة » .

أما قوله تعالى ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ . فاعلم أنه يقال طلع الجبل واطلع عليه إذا علاه ، ثم في تفسير الآية وجهان : ( الأول ) أن النار تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، ولا شئ في بدن الانسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأذى أذى مماسه ، فكيف إذا اطلمت نار جهنم واستولت عليه . ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات ، وهذا هو المراد من قوله ( لا يموت فيها ولا يحيى ) ومعنى الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد ( والثاني ) أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة ، واعلم أنه زوى عن النبي ﷺ أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلمت على أفئدتهم انتهت ، ثم إن الله تعالى يعيد لحمهم وعظمتهم مرة أخرى . أما قوله تعالى ﴿ إنها عليهم موصدة ﴾ فقال الحسن ( موصدة ) أى مطبقة من أصدت الباب

## في عمد ممددة ﴿٩﴾

وأوصدته لغتان ، ولم يقل مطبقة لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة ، والإطباق لا يفيد معنى الباب واعلم أن الآية تفيد المبالغة في العذاب من وجوه (أحدها) أن قوله (لينبذن) يقتضى أنه موضع له قعر عميق جداً كالبر (وثانيها) أنه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يذكرهم الخروج ، فيزيد في حسرتهم (وثالثها) أنه قال (عليهم مؤصدة) ولم يقل مؤصدة عليهم لأن قوله (عليهم مؤصدة) يفيد أن المقصود أولاً كونهم بهذه الحالة ، وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول .

قوله تعالى : ﴿ في عمد ممددة ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ في عمد بضمين وعمد بسكون الميم وعمد بفتحين ، قال الفراء : عمد وعمد وعمد مثل الأديم والإدم والأدم والإهاب والأهب والأهب ، والعقيم والعقم والعقم وقال المبرد وأبو علي : العمد جمع عمرد على غير واحد ؛ أما الجمع على واحد فهو العمد مثل زبور وزبر ورسول ورسل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء ، يقال عمود البيت للذي يقوم به البيت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في تفسير الآية وجهان (الأول) أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تعلق به الدروب ، وفي بمعنى الباء أى أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها ، ولم يقل بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها (والقول الثاني) أن يكون المعنى (إنها عليهم مؤصدة) حال كونهم موثقين (في عمد ممددة) مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص ، اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين .



(١٠٥) سِوْرَةُ الْفِيلِ كَثِيْرَةً  
وَأَيَّانَهَا خَسِفَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التركيّف فعل ربك بأصحاب الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

روى أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أحممة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فيخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فأغضبه ذلك . وقيل أجمت رفة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها خلف ليهدم من الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما ، وثمانية أخرى ، وقيل اثنا عشر ، وقيل ألف ، فلما بلغ قريبا من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه تلك أموال تهامة ليرجع فأبى وعبا جيشه ، وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلا جميلا وسيما ، وقيل هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته ، قال سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هر دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذك ، فقال أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه ، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بملقته وهو يقول :

لام إن المرء يـمـنع حله فامنع حلاك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليهم ومجالهم عدوا محالك

إن كنت تاركهم وكمـبـتـنا فأمر ما بدالك

ويقول : يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع عنهم حماكا

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال والله إنها لطيور غريبة ما هي بنجدية ولا



تهامية ، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجله أكبر من العدسة وأصغر من الحصاة وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانيء نحر قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا في كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يخلق فوقه ، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة . فلما آتتها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه ، وعن عائشة قالت « رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان ، ثم في الآية سوالات .

(الاول) لم قال ( ألم تر ) مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل ؟ (الجواب) المراد من الرؤية العلم والتدكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلالة للرؤية ، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم ( أو لم يروا كم أهلكتنا قبلكم من القرون ) لا يقال : فلم قال ( ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ) لأننا نقول : الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادراً ، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل ، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية .

(السؤال الثاني) لم قال ( ألم تر كيف فعل ربك ) ولم يقل ألم تر ما فعل ربك ؟ (الجواب) لأن الأشياء لها ذوات ، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مدارمتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال ( أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ) ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها . ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله ، وعند المعتزلة ، أن ذلك لا يجوز ، فلا جرم زعموا أنه لا بد وأن يقال كان في ذلك الزمان نبي [أو خطيب] كالحمد بن سنان أو قس بن ساعدة . ثم قالوا ولا يجب أن يشتهر وجودهما ، ويبلغ إلى حد التواتر ، لاحتمال أنه كان مبعوثاً إلى جمع قليلين ، فلا جرم لم يشتهر خبره .

واعلم أن قصة الفيل واقعة على اللحددين جداً ، لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والضوالمق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم أعداراً ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجرى فيها تلك الأعدار ، لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة ، فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة . ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، ولو كان النقل ضعيفاً لشافوه بالنتكذيب ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه .

( السؤال الثالث ) لم قال ( فعل ) ولم يقل جعل ولا خلق ولا عمل ( الجواب ) لأن خلق يستعمل لا ابتداء الفعل ، وجعل للكيفيات قال تعالى ( خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ) وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه ، وسألوه أن يحفظ البيت ، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الالفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر افظاً يشمل الكل .

( السؤال الرابع ) لم قال ربك ، ولم يقل الرب ؟ ( الجواب ) من وجوه ( أحدها ) كأنه تعالى قال إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان ، وأنت يا محمد ماشاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة ، فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الانتقام ، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل ، فأقول ربك ، أى أنا لك ولست لهم بل عليهم ( وثانيها ) كأنه تعالى قال : إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيماً لك وتشريفاً لمقدمك ، فأنا كنت مريباً لك قبل قومك ، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر .

( السؤال الخامس ) قوله ( ألم تركيب فعل ربك ) المذكور في معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة ، فما السبب لهذا التعجب ؟ ( الجواب ) من وجوه ( أحدها ) أن الكعبة تبع لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن العلم يؤدي بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف ، ثم الرسول الذي هو الدر همزه الوليد ولززه حتى ضاق قلبه ، فكأنه تعالى يقول إن الملك العظيم لما طعن في المسجد همزته وأقنيتها ، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أنفيه وأعدمه إن هذا لعجيب ( وثانيها ) أن الكعبة قبله صلاتك وقبلك قبلة معرفتك ، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء ، أفلا نسعى في حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي .

( السؤال السادس ) لم قال ( أصحاب الفيل ) ولم يقل أرباب الفيل أو ملاك الفيل ؟ ( الجواب ) لأن الصاحب يكون من الجنس ، فقوله ( أصحاب الفيل ) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دققة ، وهى : أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين ، فيقال للأدون إنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام إنهم الصحابة ، فقوله ( أصحاب الفيل ) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حال وأدون منزلة من الفيل ، وهو المراد من قوله تعالى ( بل هم أضل ) وبما يؤكده ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه ، كأنه كان يقول لاطاعة مخلوق في معصية الخالق عزى حميد فلا أنزكه وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم .

## أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

(السؤال السابع) أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر ، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة ، فلم سلب الله العذاب على من قصد التخريب ، ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان ؟ (والجواب) لأن وضع الأوثان فيها تعد على حق الله تعالى ، وتخريبها تعد على حق الخلق ، ونظيره قاطع الطريق ، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون ، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة ، وإن كانوا كفار ، لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

(السؤال الثامن) كيف القول في إعراب هذه الآية ؟ (الجواب) قال الزجاج : كيف في موضع نصب بفعل لا بقوله ( ألم تر ) لأن كيف من حروف الاستفهام .  
واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم . فقال ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الكيد هو إرادة مضره بالغير على الخفية ، إن قيل فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا نعم ، لكن الذي كان في قلبه شر بما أظهر ، لأنه كان يضم الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلده .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة : إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقيح ، إذ لو رضى لإضافته إلى ذاته ، كقوله ( الصوم لي ) (والجواب) أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ( في تضليل ) أى في تضييع وإبطال يقال ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائماً ونظيره قوله تعالى ( وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ) وقيل لامرئ القيس : الملك الضليل ، لأنه ضل ملك أبيه أى ضيعه . بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم ، ومعنى حرف الظرف كما يقال سعى فلان في ضلال ، أى سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلالاً وخطأ .

ثم قال تعالى ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ وفيه سوالات :

(السؤال الأول) لم قال ( طيراً ) على التنكير ؟ (والجواب) إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل .

## ترميم بحجارة من سجيل

( السؤال الثاني ) ما الأبايل (الجواب) أما أهل اللغة قال أبو عبيدة أبايل جماعة في تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبايل أبايل من ههنا وههنا ، وهل لهذه اللفظة واحد أم لا ؟ فيه قولان ( الأول ) وهو قول الأخفش والفراء أنه لا واحد لها وهو مثل الشمايط والعباديد ، لا واحد لها ( والثاني ) أنه له واحد ، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه ( أحدها ) زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحداً إبالة ، وفي أمثالهم : ضفت على إبالة ، وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بلإبالة ( وثانيها ) قال الكسائي كنت أسمع النحويين يقولون لبول وأبايل كمجول ومجايل ( وثالثها ) قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبايل إبالة كان صواباً كما قال : دينار ودنانير .

( السؤال الثالث ) ما صفة تلك الطير ؟ ( الجواب ) روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأ كف الكلاب ، وروى عنها قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً ، ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية ، وعن سعيد بن جبير أنها بيض صفار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهمت بها ، والبياض ضد السواد ، وقيل كانت خضراً ولها رهوس مثل رهوس السباع ، وأقول إنها لما كانت أفواجا ، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف مارأى ، وقيل كانت بقاء كالخطاطيف .

قوله تعالى : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو حيوة : يرميهم أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في كيفية الرمي وجوهاً ( أحدها ) قال مقاتل : كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، واحد في منقاره واثنان في رجليه يقتل كل واحد رجلاً ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره ( وثانيها ) روى عكرمة عن ابن عباس ، قال لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفض جلده وثار به الجدرى ، وهو قول سعيد بن جبير ، وكانت تلك الأحجار أصغرهما مثل الغدسة ، وأكبرها مثل الحصاة .

واعلم أن من الناس من أنكرك ذلك ، وقال لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون في وزن التبننة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى

## فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ ﴿١٠١﴾

جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شمس وأقار ولا تراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضرب حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس ، وكل ذلك محال . واعلم أن ذلك جاز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكروا في السجيل وجوهاً (أحدها) أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم للديوان أعمالهم ، كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال ، وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كتب فيه العذاب ، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) وقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) فقوله (من سجيل) أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب (وثانيتها) قال ابن عباس سجيل معناه سنك وكل ، يعني بعضه حجر وبعضه طين (وثالثها) قال أبو عبيدة السجيل الشديد (ورابعها) السجيل اسم لسما الدنيا (وخامسها) السجيل حجارة من جهنم ، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام .

قوله تعالى : ﴿ فجعلهم كعصف ما كُول ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تفسير العصف وجوهاً ذكرناها في قوله (والحب ذو العصف) وذكروا ههنا وجوهاً : (أحدها) أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي (وثانيتها) قال أبو مسلم العصف التبن لقوله (ذو العصف والريحان) لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان ما كولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه (وثالثها) قال الفراء هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل (ورابعها) هو الحب الذي أكل له وبقي قشره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في تفسير المأكول وجوهاً (أحدها) أنه الذي أكل ، وعلى هذا الوجه فقيه احتمالان :

(أحدهما) أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب ، ثم ألقته روئاً ، ثم يحف وتتفرق أجزاءه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن ، كقوله (كانا يأكلان الطعام) وهو قول مقاتل ، وقتادة وعطاء عن ابن عباس .

(والاحتمال الثاني) على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود (الوجه الثاني) في تفسير قوله (مأكول) هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تبته ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف ما كُول الحب كما يقال فلان حسن أي حسن الوجه ، فأجرى ما كُول على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى معلوم وهذا

قول الحسن ( الوجه الثالث ) في التفسير أن يكون معنى ( ما كول ) أنه مما يؤكل ، يعني تأكله الدواب يقال لكل شيء يصلح للأكل هو ما كول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قوله عكرمة والضحاك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شيء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب انك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة ( والجواب ) أنا بينا أن ذلك وقع إرهاباً لأمر محمد ﷺ ، والإرهاب إنما يحتاج إليه قبل قدمه ، أما بعد قدمه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا أَنْبَغُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۝ إِيَّاهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لإيلاف قريش إيلافهم ﴾ اعلم أن ههنا مسائل :  
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام في قوله ( لإيلاف ) تحتمل وجوهاً ثلاثة ، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التي قبلها أو بالآية التي بعدها ، أو لا تكون متعلقة لا بما قبلها ، ولا بما بعدها ( أما الوجه الأول ) وهو أن تكون متعلقة بما قبلها ، ففيه احتمالات :  
 ﴿ الأول ﴾ وهو قول الزجاج وأبي عبيدة أن التقدير ( لجعلهم كعصف ما كول ) لإيلاف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقي قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ، فإن قيل : هذا ضعيف لأنهم إنما جعلوا ( كعصف ما كول ) لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأييف قريش ، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه ( أحدها ) أنا لا نسلم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم ، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة ، قال تعالى ( اليوم تجزي كل نفس بما كسبت ) وقال ( ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهورها من دابة ) ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم ، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار ، بل إنما فعل ذلك بهم ( لإيلاف قريش ) ولتعظيم منصبتهم وإظهار قدرهم ( وثانيها ) هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافي كون شيء آخر مقصود حتى يكون الحكم واقعاً بمجموع الأمرين معاً ( وثالثها ) هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط ، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش ، جاز أن يقال أهلكوا لإيلاف قريش ، كقوله تعالى ( ليكون لهم عدواً وحزناً ) وهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يمهده عليه الالتقاط .

﴿ الاحتمال الثاني ﴾ أن يكون التقدير ( ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، لإيلاف قريش ) كأنه تعالى قال كل ما فعلنا بهم فقد فعلناه ، لإيلاف قريش ، فإنه تعالى جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، حتى صاروا كعصف ما كول ، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش .

( الاحتمال الثالث ) أن تكون اللام في قوله ( لا يلاف ) بمعنى إلى كأنه قال فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم ( رحلة الشتاء والصيف ) تقول نعمة الله نعمة ونعمة لنعمة سواء في المعنى ، هذا قول الفراء ، فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه ، وبقي من مباحث هذا القول أمران :

( الأول ) أن للناس في تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين : ( أحدهما ) أن جعلوا السورتين سورة واحد واحتجوا عليه بوجوه : ( أحدها ) أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة ( وثانيها ) أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة ( وثالثها ) ما روى أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى والتين ، وفي الثانية ألم تر ولا يلاف قريش معاً ، من غير فصل بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم : ( القول الثاني ) وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها ببعضاً وبين بعضها معنى بعض ، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقه ، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وآيات العفوا عند من يقول به ، وقوله ( إنا أنزلناه ) متعلق بما قبله من ذكر القرآن ، وأما قوله إن آيها لم يفصل بينهما فهو معارض بإطلاق الكل على الفصل بينهما ، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الامام قد يقرأ سورتين .

( البحث الثاني ) فيما يتعلق بهذا القول بيان أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً لا يلاف قريش ؟ فنقول لاشك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى ( بواد غير ذي زرع ) إلى قوله ( فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات ) فكان أشرف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الاطعمة والثياب ، وهم إنما كانوا يرجعون في أسفارهم ، ولأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمة وولاية الكعبة حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة ، ازال عنهم هذا العزولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم ، فلما أملاك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلهذا قال الله تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ) ( لا يلاف قريش ... رحلة الشتاء والصيف ) . ( والوجه الثاني ) فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى في آخر هذه السورة ( فليعبدوا رب



هذا البيت الذي ( إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعاقب أول هذه السورة بالسورة المتقدمة .  
 ( القول الثاني ) وهو أن اللام في ( لإيلاف ) متعلقة بقوله ( فليعبدوا ) وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلاف قريش . أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها ، فإن قيل فلم دخلت الفاء في قوله ( فليعبدوا ) ؟ قلنا لما في الكلام من معنى الشرط ، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى ، فكأنه قيل إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبده هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة .

( القول الثالث ) أن تكون هذه اللام غير متعلقة ، لا بما قبلها ولا بما بعدها ، قال الزجاج : قال قوم هذه اللام لام التعجب ، كأن المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وجهلاً وانغماساً في عبادة الأوثان ، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معاشهم ، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه ، ونظيره في اللغة قولك لزبد وما صنعنا به . ولزبد وكرامتنا إياه . وهذا اختيار الكسائي والأخفش والفراء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر وافي الإيلاف ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن الإيلاف هو الإيلاف قال علماء اللغة ألفت الشيء . وألفته إلفاً وإيلافاً بمعنى واحد ، أي لزمته فيكون المعنى إيلاف قريش هاتين الرحلتين فتصلاً ولا تنقطعاً ، وقرأ أبو جعفر : إيلاف قريش . وقرأ الآخرون لإيلاف قريش ، وقرأ عكرمة ليلاف قريش ( وثانيتها ) أن يكون هذا من قرك لزمتم موضع كذا والزمنه الله ، كذا تقول ألفت كذا ، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف ألف بنفسه إلفاً وألفه غيره إيلافاً ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله وهو كقوله ( ولكن الله ألفت بينهم ) وقال ( وألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ) وقد تكون المسرة سبباً للمؤانسة والاتفاق ، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش ، فيكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول ، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتهم ( وثالثها ) أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابي ، فيكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل ، والمعنى لتجهيز قريش رحلتها حتى تتصلاً ولا تنقطعاً ، وقرأ أبو جعفر ليلاف بغير همز فحذف همزة الإفعال حذفاً كلياً وهو كمنهجه في يستهزون وقد مر تقريره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ التكرير في قوله ( لإيلاف قريش إيلافهم ) هو أنه أطلق الإيلاف أولاً ثم جعل المقيد بدلاً لذلك المطلق تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظيم المنفعة فيه ، والأقرب أن يكون قوله ( لا يلاف قريش ) عاماً يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم ، فيدخل فيه مقامهم

## رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾

وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم خص إبلان الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معانيهم كما في قوله ( وجبريل وميكائيل ) وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة ، تقول العرب : ألفت كذا أي لزمته ، والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودعة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئاً لزمه ، ومنه ( ألزمهم كلمة التقوى ) كما أن الإلجام ضربان ( أحدهما ) لدفع الضرر كالهرب من السبع ( والثاني ) لطلب النفع العظيم ، كمن يجد مالا عظيما ولا مانع من أخذه لا عقلا ولا شرعا ولا حسا فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ ، وكذا الدواعي التي تكون دون الإلجام ، مرة تكون لدفع الضرر وأخرى لطلب النفع ، وهو المراد في قوله ( إبلانهم )

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اتفقوا على أن قريشاً ولد النضر بن كنانة ، قال عليه الصلاة والسلام « إنا بنى النضر بن كنانة لانفقوا أمناً ولا ننتفي من أيينا » وذكروا في سبب هذه التسمية وجوها ( أحدها ) أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن ، ولا تطلق إلا بالنار وعن معاوية أنه سأل ابن عباس : بم سميت قريش ؟ قال بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، تعلق ولا تعلق ، وأنشد :

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً

والتصغير للتعظيم ، ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تلي أمر الأمة ، فإن الأئمة من قريش ( وثانيتها ) أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم في البلاد ( وثالثها ) قال الليث كانوا متفرقين في غير الحرم ، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوها مسكناً ، فسموا قريشاً لأن القرش هو التجمع ، يقال قرش القوم إذا اجتمعوا ، ولذلك سمي قصي بجمماً ، قال الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى بجمماً به جمع الله القبائل من فهر

( ورابعها ) أنهم كانوا يسدون خلة محايج الحاج ، فسموا بذلك قريشاً ، لأن القرش التفتيش قال ابن حرة :

أيها الشامت المقرش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء

قوله تعالى : ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث الرحلة اسم الارتحال من القوم للسير ، وفي المراد من هذه الرحلة قولان ( الأول ) وهو المشهور ، قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدها وبالصيف إلى الشام ، وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب في ذلك هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ،

## فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٤﴾

إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والمجاعة فدخل أسد على أمه يبكي فأرسلت إلى أوائك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيباً في قريش ، فقال إنكم أجذبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف لجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فارتج الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر ما لا ولا أعز من قريش ، قال الشاعر فيهم :

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالسكافي

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب القبيل ما أرادوا ، لترك أهل الإفطار تعظيمهم وأيضاً لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور في قوله ( وقطعناهم في الأرض أمماً ) واجتماع القبيلة الواحدة في مكان واحد أدخل في النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى ، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والآلفة ، ومنه قوله تعالى ( ولا جدال في الحج ) والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة ( القول الثاني ) أن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً وموسم منافع مكة يكون بهما ، ولو كان يتم لأصحاب القبيل ما أرادوا تعطلت هذه المنفعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لآمن الإلباس كقوله : كلرا في بمض بطنكم ، وقيل معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وقريءة رحلة بضم الراء وهي الجهة .

قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين ( أحدهما ) دفع الضرر ( والثاني ) جلب النفع والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع [فإنه] غير واجب ، فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية ، لاجرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال ( فليعبدوا ) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا أن العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون ، ثم قال بعضهم : أراد فليوحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذي حفظ البيت دون الأوثان ، ولأن التوحيد مفتاح العبادات ، ومنهم من قال المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح

## الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات ، والاولى حمله على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرجه الدليل ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن يكون معنى فليعبدوا أى فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ، ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة إن للبيت رباً سيحفظه ، ولم يعولوا في ذلك على الأصنام فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه ، كأنه يقول لما عرلتم في الحفظ على فاصرفوا العبادة والخدمة إلى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول يا عبادى وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول وإلهم كذا في البيت [تارة] يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله ( فعبدوا رب هذا البيت ) وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول ( طهرا بيتى ) ثم قال تعالى ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ وفي هذا الاطعام وجوه ( أحدها ) أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم في رحلتهم كان ذلك سبب إطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع ( ثانياً ) قال مقاتل شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام في الشتاء والصيف لطلب الرزق ، فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام في السفن إلى مكة فحملوه ، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالابل والخمر ، ويشترى طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك ، فكفاهم الله مؤونه الرحلتين ( ثالثاً ) قال الكلبي هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال اللهم اجعلهم عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا يا محمد ادع الله فإننا مؤمنون ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط ، فذاك قوله ( أطعمهم من جوع ) ثم في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ العبادات إنما وجبت لأنه تعالى أعطى أصول النعم ، والاطعام ليس من أصول النعم ، فلماذا علل وجوب العبادات بالإطعام ؟ ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة ، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم ، ثم أمرهم بالعبادة ، فكان السائل يقول : لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذبح عن النفس ، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذي أيطعمنا ، فقال : الذي أطعمهم من جوع ، قبل أن يعبدوه ، ألا يطعمهم إذا عبدوه ! ( وثانياً ) أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه ، ثم إنه يطعمهم مع ذلك ، فكانه تعالى يقول : إذالم تستح من أصول النعم ألا تستحى من إحسانى إليك بعد إساءتك ( وثالثاً ) إنما ذكر الإنعام ، لأن البهيمة تطيع من يعافها ، فكانه تعالى يقول لست دون البهيمة .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أليس أنه جعل الدنيا ملكاً لنا بقوله ( خلق لكم ما فى الأرض جميعاً )

## وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

فكيف نحسن المنة علينا بأن أعطانا ملكتنا ؟ (الجواب) انظر في الأشياء التي لا بد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتهيأ ، وفي الأشياء التي لا بد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول ، فإنك تعلم أنه لا بد من الأفلاك والكواكب ، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام ، ولا بد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام ، وحينئذ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة .

( السؤال الثالث ) المنة بالإطعام لا تليق بمن له شيء من السكرم ، فكيف بأكرم الإكرمين ؟ (الجواب) ليس الغرض منه المنة ، بل الإرشاد إلى الأصلاح ، لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة ، بل تقوية البنية على أداء الطاعات ، فكان المقصود من الأمر بالعبادة ذلك .

( السؤال الرابع ) ما الفائدة في قوله ( من جوع ) ؟ (الجواب) فيه فوائد (أحدها) التنبيه على أن أمر الجوع شديد ، ومنه قوله تعالى ( وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ) وقوله ﷺ « من أصبح آمناً في سربه » الحديث ( وثانيها ) تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة ( وثالثها ) التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوع ، لأنه لم يقل وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع ، أما الإشباع فإنه يورث البطنة .

أما قوله تعالى ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ ففي تفسيره وجوه (أحدها) أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يغير عليهم أحد لا في سفرهم ، ولا في حضرهم وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة في السفر والحضر ، وهذا معنى قوله ( أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ) ( ثانيها ) أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل ( وثالثها ) قال الضحاك والربيع : وآمنهم من خوف الجزام ، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام ( ورابعها ) آمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم ( وخامسها ) آمنهم بالإسلام ، فقد كانوا في الكفر يتفكرون ، فيعلمون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به ( وسادسها ) أطعمهم من جوع الجبل بطعام الوحي ، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى ، كأنه تعالى يقول : يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم ، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب ، ثم أنزلت الوحي على نبيكم ، وعلتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون

أهل العلم والقرآن ، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ، ثم إطعام الطعام الذى يكون غذاء الجسد يوجب الشكر ، فأطعام الطعام الذى هو غذاء الروح ، ألا يكون موجبا للشكر ! وفي الآية سوالات :

( السؤال الأول ) لم لم يقل عن جوع وعن خوف ؟ ( قلنا ) لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيداً عنهم ، وهذا يقتضى أن يكون ذلك التباعد مسبقاً بمقاشاة الجوع زماناً ، ثم يصرفه عنه ، ومن لا تقتضى ذلك ، بل معناه أنهم عند ما يجوعون يطعمون ، وحين ما يخافون يؤمنون .

( السؤال الثانى ) لم قال من جوع ، من خوف على سبيل التذكير ؟ ( الجواب ) المراد من التذكير التعظيم . أما الجوع فلما روينا : أنه أصابهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة . وأما الخوف ، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل ، ويحتمل أن يكون المراد من التذكير التحقير ، يكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاؤه فى ذلك الجوع القليل والخوف القليل ، فكيف يجوز فى كرمه لو عبده أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه ( أطمعهم من جوع ) دون جوع ( وآمنهم من خوف ) دون خوف ، ليكون الجوع الثانى ، والخوف الثانى مذكراً ما كانوا فيه أولاً من أنواع الجوع والخوف ، حتى يكونوا شاكرين من وجهه ، وصابرين من وجه آخر ، فيستحقوا ثواب الخصلتين .

( السؤال الثالث ) أنه تعالى إنما أطمعهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أما فى الإطعام فهو قوله ( وارزق أهله ) وأما الأمان فهو قوله ( اجعل هذا البلد آمناً ) وإذا كان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين ؟ ( الجواب ) أن الله تعالى لما قال ( إنى جاعلك للناس إماماً ) قال إبراهيم ( ومن ذريتى ) فقال الله تعالى ( لا ينال عهدى الظالمين ) فنادى إبراهيم بهذا الأدب ، فحين قال ( رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات ) قيده بقوله ( من آمن بالله ) فقال الله لا حاجة إلى هذا التقيد ، بل ومن كفر فأمتعه قليلاً ، فكأنه تعالى قال : أما نعمة الأمان فهى دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقياً ، وأما نعمة الدنيا فهى تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح ، وإن كان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع ، وأمانه من الخوف إنعاماً من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم ، فزال السؤال . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١٠٧) سُورَةُ الْمَاعُونِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا سَبَّحَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ بعضهم أريت بحذف الهمزة ، قال الزجاج : وهذا ليس بالاختيار ، لأن الهمزة إنما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى ، فأما رأيت فليس يصح عن العرب فيها ربت ، ولكن حرف الاستفهام لما كان في أول الكلام سهلاً لإلغاء الهمزة ، ونظيره :

صاح هل ربت أو سمعت براع رد في الضرع ما قرى في العلاب

وقرأ ابن مسعود أرايتك بزيادة حرف الخطاب كقوله ( أرايتك هذا الذي كرمت علي ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( أرايت ) معناه هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو ، فإن لم تعرفه ( فهو الذي يدع اليتيم ) .

واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام ، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك أرايت فلاناً ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ؟ ثم قيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل بل خطاب لكل عاقل أي أرايت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أي فعل ذلك لا لغرض ، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا ، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان ( أحدهما ) أنها مختصة بشخص معين ، وعلى هذا القول ذكروا أشخاصاً ، فقال ابن جريج نزلت في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبوع ، فأتاه يتيم فسأله لما فقره بعصاه ، وقال مقاتل نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة ، والإتيان بالأفعال القبيحة ، وقال السدي نزلت في الوليد بن المغيرة ، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل ، وروى أنه كان وصياً ليتيم ، فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبا به فأيس الصي ، فقال له أ كابر قريش قل لمحمد يشتمك لك ، وكان

## فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢٤﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٥﴾

غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم واتمس منه ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فغيرة قريش ، فقالوا صبوت ، فقال لا والله ماصبوت ، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجهه يطعنني في ، وروى عن ابن عباس أنها نزلت في منافق جمع بين البخل والماراة (والقول الثاني) أنه عام لكل من كان مكذباً بيوم الدين ، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرغبة عن العقاب ، فإذا كان منكراً للقيامه لم يترك شيئاً من المشتهيات واللذات ، فثبت أن إنكار القيامه كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في تفسير الدين وجوه (أحدها) أن يكون المراد من يكذب بنفس الدين والإسلام إما لأنه كان منكراً للصانع ، أو لأنه كان منكراً للنبوة ، أو لأنه كان منكراً للبعاد أولشئ من الشرائع ، فإن قيل كيف يمكن حمله على هذا الوجه ، ولا بد وأن يكون لكل أحد دين (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الدين المطلق في اصطلاح أهل الإسلام ، والقرآن هو الإسلام قال الله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) أما سائر المذاهب فلا تسمى ديناً إلا بضرب من التقييد كدين النصراني واليهود (وثانيها) أن يقال هذه المقالات الباطلة ليست بدين ، لأن الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب إنما هي خضوع للشهوة أو للشبهة (وثالثها) وهو قوله أكثر المفسرين . أن المراد رأيت الذي يكذب بالحساب والجزاء ، قالوا وحمله على هذا الوجه أولى لأن من ينكر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مقرأ بالقيامه والبعث ، أما المقدم على كل قبيح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامه .

ثم قال تعالى ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾ واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب بالدين وصفين (أحدهما) من باب الأفعال وهو قوله (فذلك الذي يدع اليتيم) (والثاني) من باب التروك وهو قوله (ولا يحض على طعام المسكين) والغاء في قوله فذلك للسببية أي لما كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدع اليتيم ، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عن يكذب بالدين ليس إلا ذلك ، لأننا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل ، كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثلاً واحداً تنبيهاً بذكره على سائر القبائح ، أو لاجل أن هاتين الخصلتين ، كما أنهما قبيحان منكراًن بحسب الشرع فهما أيضاً مستنكران بحسب المروءة والإنسانية ، أما قوله (يدع اليتيم) فالعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) وحاصل الأمر في دع اليتيم أمور (أحدها) دفعه



## فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢﴾

عن حقه وماله بالظلم ( والثاني ) ترك المواساة معه ، وإن لم تكن المواساة واجبة . وقد يذم المرء بترك النوافل لا سيما إذا أسند إلى النفاق وعدم الدين ( والثالث ) يجره ويضربه ويستخف به ، وقرى . يدع أى يتركه ، ولا يدعو به بدعوة ، أى يدعو جميع الأجنب ويترك اليتيم مع أنه عليه الصلاة والسلام قال « ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم » وقرى . يدعو اليتيم أى يدعو ربه ثم لا يطعمه وإنما يدعو استخداماً أو تهرأ أو استقالة .

واعلم أن في قوله ( يدع ) بالتشديد فائدة ، وهى أن يدع بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه ، ومثله قوله تعالى ( الذين يحبون كبار الإثم والفواحش إلا اللمم ) سعى ذنب المؤمن لمأ لأنه كالطيف والخيال يطرأ ولا يبق ، لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم ، إنما المكذب هو الذى يصر على الذنب .

أما قوله ( ولا يحض على طعام المسكين ) فقيه وجهان ( أحدهما ) أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين ، فكانه منع المسكين عما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه ( والثاني ) لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يعتقد في ذلك الفعل ثواباً ، والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامه بالإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف ، يعنى أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك ، فوضع الذنب هو التكذيب بالقيامه ، وههنا سؤالان :

( السؤال الأول ) أليس قد لا يحض المرء في كثير من الأحوال ولا يكون آثماً ؟ ( الجواب ) لأن غيره ينوب منابه أو لأنه لا يقبل قوله أو لمفسدة أخرى يتوقعها ، أما ههنا فذكر أنه لا يفعل ذلك [إلا] لما أنه مكذب بالدين .

( السؤال الثاني ) لم لم يقل ولا يطعم المسكين ؟ ( الجواب ) إذا منع اليتيم حقه فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ، بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية في الخسة . فلأن يكون بخيلاً بمال نفسه أولى ، وضده في مدح المؤمنين ( وتواصوا بالمرحمة ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ) . قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه ( أحدها ) أنه لا يفعل إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام دليلاً على النفاق فالصلاة لا مع الخضوع والخضوع أرلى أن تدل على النفاق ، لأن الإيذاء والمنع من النفع معاملة مع المخلوق ، أما الصلاة فإنها خدمة للخالق ، ( وثانيها ) كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلاً قال : أليس إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ فقال له الصلاة كيف تنهى عن هذا الفعل المنكر وهى مصنوعة من عين الرباه

والسهو (وثالثها) كأنه يقول إقدامه على إيذاء اليتيم وتركه للحض ، تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله ، وسهره في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التنظيم لأمر الله ، فلما وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقاوته ، فلماذا قال ( فويل ) واعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله ( ويل للطففين ، فويل لهم بما كتبت أيديهم ، ويل لكل همزة لمزة ) ويروى أن كل أحد ينوح في النار بحسب جريمته ، فقائل يقول ويلى من حب الشرف ، وآخر يقول ويلى من الحية الجاهلية ، وآخر يقول ويلى من صلاتي ، فلماذا يستحب عند سماع مثل الآية ، أن يقول المرء ويلى إن لم يغفر لي .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور ( أحدها ) السهو عن الصلاة ( وثانيها ) فعل المراهة ( وثالثها ) منع الماعون ، وكل ذلك من باب الذنوب ، ولا يصير المرء به منافقاً فلم يحكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال ؟ ولأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون فيه وجوهاً ( أحدها ) أن قوله ( فويل للمصلين ) أي فويل للمصلين من المناققين الذين يأتون بهذه الأفعال ، وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع ، وهو يدل على صحة قول الشافعي : إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وهذا الجواب هو المعتمد ( وثانيها ) ما رواه عطاء عن ابن عباس أنه لو قال الله في صلاتهم ساهون ، لكان هذا الوعيد في المؤمنين لكنه قال ( عن صلاتهم ساهون ) والساهى عن الصلاة هو الذى لا يتذكرها ويكون فارغاً عنها ، وهذا القول ضعيف لأن السهو عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسراً بترك الصلاة ، لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله ( فويل للمصلين ) وأيضاً فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقاً ولا كفراً فيعود الإشكال ، ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مصلين نظراً إلى الصورة وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظراً إلى المعنى كما قال ( وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ) ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة وهذا لا يصدر إلا عن المناق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة ، أما المسلم الذي يعتقد فيها فائدة عينية يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزاء الصلاة ، بل قد يحصل له السهو في الصلاة بمعنى أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة ، ثبت أن السهو في الصلاة من أفعال المؤمن والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر ( وثالثها ) أن يكون معنى ( ساهون ) أي لا يتعمدون أوقات صلواتهم ولا شرائعها ، ومعناه أنه لا يبالي سواء صلى أو لم يصل ، وهو قول سعد بن أبي وقاص وسروق والحسن ومقاتل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في سهو الرسول عليه الصلاة والسلام في صلاته ، فقال كثير من العلماء إنه عليه الصلاة والسلام ماسها ، لكن الله تعالى أذن له في ذلك الفعل حتى يفعل ما يفعله

## الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

الساهى فيصير ذلك بياناً لذلك الشرع بالفعل والبيان بالفعل أقوى ، ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على أقسام (أحدها) سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنة والنوافل (والثاني) ما يكون في الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات (والثالث) الترك لا إلى قضاء والإخراج عن الوقت ، ومن ذلك صلاة المنافق وهي شر من ترك الصلاة لأنه يستهزئ بالدين بتلك الصلاة .

أما قوله تعالى ﴿الذين هم يراءون﴾ فاعلم أن الفرق بين المنافق والمرأى ؛ أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر ، والمرأى المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين ، أو تقول المنافق لا يصلى سراً والمرأى تكون صلته عند الناس أحسن .  
اعلم أنه يجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق لعن فيجب نفي التهمة بالإظهار . إنما الإخفاء في النوافل إلا إذا أظهر النوافل ليقضى به ، وعن بعضهم أنه رأى في المسجد رجلاً يسجد للشكر وأطالها ، فقال ما أحسن هذا لو كان في بيتك ! لكن مع هذا قالوا لا يترك النوافل حياء ولا يأتي بها رياء ، وقلما يتيسر اجتناب الرياء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «الرياء أخفى من ديب الثملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود» فإن قيل ما معنى المراءة؟ قلنا هي مفاعلة من الإراءة لأن المرأى يرى الناس عمله ، وهم يروونه الثناء عليه والإعجاب به .

واعلم أن قوله (عن صلاتهم ساهون) يفيد أمرين : إخراجها عن الوقت ، وكون الإنسان غافلاً فيها ، قوله (الذين هم يراءون) يفيد المراءة ، فظهر أن الصلاة يجب أن تكون خالية عن هذه الأحوال الثلاثة .

ثم لما شرح أمر الصلاة أعقبه بذكر الصلوات فقال ﴿ويمنعون الماعون﴾ وفيه أقوال (الأول) وهو قول أبي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقادة والضحاك هو الزكاة ، وفي حديث أبي «من قرأ سورة (أرأيت) غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً» وذلك يوم أن (الماعون) هو الزكاة ، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة ، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة (والقول الثاني) وهو قول أكثر المفسرين ، أن (الماعون) اسم لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغنى ، ينسب ما نعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة ، كالفأس والقدر والدلو والمقدخة والغربال والقدم ، ويدخل فيه الملح والماء والنار . فإنه روى «ثلاثة لا يحل منعها ، الماء والنار والملح» ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك ، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم ، وأصحاب هذا القول قالوا : الماعون فاعول من المعن . وهو الشيء .

القليل ومنه ماله سمعته ولا معنة أى كثير و لا قليل ، وسميت الزكاة ماعوناً ، لأنه يؤخذ من المال ربع العشر ، فهو قليل من كثير ، ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعوناً ، وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة ، فإن البخل بها يكون في نهاية الدناءة والركاكة ، والمنافقون كانوا كذلك ، لقوله تعالى ( الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وقال (مناع للخير معتد أثيم ) قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران ، فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على الواجب ( والقول الثالث ) قال الفراء سمعت بعض العرب يقول . الماعون هو الماء وأنشدني فيه :

يمج بعيره الماعون مجاً

ولعله خصه بذلك لأنه أعز مفقود وأرخص موجود ، وأول شيء يسأله أهل النار الماء ، كما قال ( أن أفيضوا علينا من الماء ) وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء ، كما قال ( وسقاهم ربهم ) (القول الرابع) ( الماعون ) حسن الانقياد ، يقال رض بعيرك حتى يعطيك الماعون ، أى حتى يعطيك الطاعة .

واعلم أن الأولى أن يحمل على كل طاعة يخفف فعلها لأنه أ أكثر فائدة ، ثم قال المحققون في الملائمة بين قوله ( يراون ) وبين قوله ( ويمنعون الماعون ) كأنه تعالى يقول الصلاة لى الماعون للخلق ، فما يجب جعله لى يعرضونه على الخلق وما هو حق الخلق يسترونه عنهم فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس ( فإن قيل ) لم لم يذكر الله اسم الكافر بعينه ؟ فإن قلت للستر عليه ، قلت لم لم يستر على آدم بل قال ( وعصى آدم ربه ) ؟ ( والجواب ) أنه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقروناً بالتوبة ليكون لطفاً لأولاده ، أنه أخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطعمون في الدخول مع الكبيرة ، وأيضاً فإن وصف تلك الزلة رفعة له فإنه رجل لم يصدر عنه إلا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة .

ولنختم تفسير هذه السورة بالدعاء : إلهنا ، هذه السورة في ذكر المنافقين والسورة التي بعدها في صفة محمد ﷺ فنحن وإن لم نصل في الطاعة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أصحابه ، لم نصل في الأفعال القبيحة إلى هؤلاء المنافقين ، فاعف عنا بفضلك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .



(١٠٨) سُورَةُ الْكُوثْرِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّانَهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴾ .

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف : (إحداها) أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمر أربعة : (أولها) البخل وهو المراد من قوله ( يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ) (الثاني) ترك الصلاة وهو المراد من قوله ( الذين هم عن صلاتهم ساهون ) (والثالث) المراعاة في الصلاة هو المراد من قوله ( الذين هم يراءون ) (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله ( ويمنعون الماعون ) فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر في مقابلة البخل قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، و ذكر في مقابلة ( الذين هم عن صلاتهم ساهون ) قوله ( فضل ) أى دم على الصلاة ، و ذكر في مقابلة ( الذين هم يراءون ) قوله ( لربك ) أى ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا مراعاة الناس ، و ذكر في مقابلة ( ويمنعون الماعون ) قوله ( وانحر ) وأراد به التصدق بلحم الأضاحي ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله ( إن شانئك هو الابتر ) أى المنافق الذى يأتى بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبق من دنياه أثر ولا خبر ، وأما أنت فبقى لك في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل .

( والوجه الثانى ) في لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات : (أعلاها) أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله ( وثانيها ) أن يكونوا مشغولين بالطاعات والعبادات البدنية ( وثالثها ) أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) إشارة إلى المقام الأول

وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف . أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالاً من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله ( فصل لربك ) فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله ( وانحر ) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال ( إن شانئك هو الأبتر ) ومعناه أن النفس التي تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهي السعادات الروحانية والمعارف الربانية التي هي باقية أبدية . ولنشرع الآن في التفسير قوله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) اعلم أن فيه فوائد :

( الفائدة الأولى ) أن هذه السورة كاللثمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كاللثمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة ( والضحي ) في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته ( أولها ) قولكم ( ما ودعك ربك وما قلى ) ، ( وثانيها ) قوله ( والآخرة خير لك من الأولى ) ( وثالثها ) ( ولسرف يعطيك ربك فترضى ) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله ( ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ) ثم ذكر في سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء ( أولها ) ( ألم نشرح لك صدرك ) ( وثانيها ) ( ووضعنا عنك وزرك ، الذي انقض ظهرك ) ، ( وثالثها ) ( ورفعنا لك ذكرك ) ،

ثم إنه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف ( أولها ) أنه أقسم بيلده وهو قوله ( وهذا البلد الأمين ) ، ( وثانيها ) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله ( إلا الذين آمنوا ) ، ( وثالثها ) وصولهم إلى الثواب وهو قوله ( فلهم أجر غير ممنون )

ثم شرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات ( أولها ) ( اقرأ باسم ربك ) أي اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك ( وثانيها ) أنه قهر خصمه بقوله ( فليدع ناديه سندع الزبانية ) ، ( وثالثها ) أنه خصه بالقربة التامة وهو ( واسجد واقترب ) .

وشرفه في سورة القدر بلبلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة ( أولها ) كونها ( خيراً من ألف شهر ) ، ( وثانيها ) نزول ( الملائكة والروح فيها ) ( وثالثها ) كونها ( سلاماً حتى مطلع الفجر ) وشرفه في سورة ( لم يكن ) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات ( أولها ) أنهم ( خير البرية ) ( وثانيها ) أن ( جزاؤهم عند ربهم جنات ) ، ( وثالثها ) رضا الله عنهم ،

وشرفه في سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : ( أولها ) قوله ( يومئذ تحدث أخبارها ) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لآمته بالطاعة والعبودية ( والثاني ) قوله ( يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، ( ثالثها ) قوله ( فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ) ومعرفة الله لاشك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها ثم شرفه في سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف

تلك الخيل بصفات ثلاث ( والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحاً .  
ثم شرف أمته في سورة القارعة بأور ثلاثة ( أولها ) فمن ثقلت موازينه ( وثانيها ) أنهم في  
عيشة راضية ( وثالثها ) أنهم يرون أعداءهم في نار حامية .  
ثم شرفه في سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة  
أوجه ( أولها ) أنهم يرون الجحيم ( وثانيها ) أنهم يرونها عين اليقين ( وثالثها ) أنهم يسألون عن النعيم  
ثم شرف أمته في سورة العصر بأور ثلاثة ( أولها ) الإيمان ( إلا الذين آمنوا ) ، ( وثانيها ) وعملوا  
الصالحات ( وثالثها ) إرشاد الخالق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ،  
ثم شرفه في سورة الهمزة بأن ذكر أن من همز ولمز ، فله ثلاثة أنواع من العذاب ( أولها ) أنه  
لا ينتفع بدنياه البتة ، وهو قوله ( يحسب أن ماله أخلده كلا ) ( وثانيها ) أنه ينبذ في الحطمة ، ( وثالثها )  
أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج ، وهو قوله ( إنها عليهم مؤصدة ) .  
ثم شرفه في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه ( أولها ) جعل كيدهم في تضليل  
( وثانيها ) أرسل عليهم طير أبابيل ( وثالثها ) جعلهم كعصف ما كول .  
ثم شرفه في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه ( أولها ) جعلهم مؤتلفين  
متوافقين لإيلاف قريش ( وثانيها ) أطعمهم من جوع ( وثالثها ) أنه آمنهم من خوف .  
وشرفه في سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة  
( أولها ) الدناءة واللؤم ، وهو قوله ( يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ) ( وثانيها ) ترك تعظيم  
الخالق ، وهو قوله ( عن صلاتهم ساهون الذين هم يرامون ) ( وثالثها ) ترك انتفاع الخلق ، وهو  
قوله ( ويمنعون الماعون ) .  
ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها ( إنا أعطيناك  
الكوثر ) أى إنا أعطيناك هذه المناقب المشكورة المذكورة في السورة المتقدمة التي كل واحدة منها  
أعظم من ملك الدنيا بخلافها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح  
لهم ، أما عبادة الرب فيما بالنفس ، وهو قوله ( فضل لربك ) وإما بالمال ، وهو قوله ( وانحر )  
وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ، فهو قوله ( يا أيها الكافرون  
لا أعبد ما تعبدون ) فثبت أن هذه السورة كاللصمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل  
لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله ( يا أيها  
الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد  
من عسفهم على أرواحهم وأموالهم ، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم ، فلا  
جرم كان الطعن في مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب مالا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره  
بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له ،  
وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف

كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا ، كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فذرتعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تديراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة ، هذه السورة فإن قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه ( أحدها ) أن قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) أى الخير الكثير في الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ ، وهو كقوله ( يا أيها النبي حسبك الله ) وقوله ( والله يعمصك من الناس ) وقوله ( إلاتنصروه فقد نصره الله ) ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه ، فإنه لا يخشى أحداً ( وثانيها ) أنه تعالى لما قال ( إنا أعطيناك الكوثر ) وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف في كلام الله تعالى محال ، فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة ( وثالثها ) أنه عليه السلام لما كفر وأوزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا ، فقال الله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) أى لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر بما لهم ومراعاتهم ( ورابعها ) أن قوله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله ( وكلم الله موسى تكليماً ) بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالزمام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافه في غير هذا المعنى ، بل يفيد قوة في القلب ويزيل الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة ( قل يا أيها الكافرون ) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإفدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمرى ، فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشباع ، أن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجا ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن ، وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة ، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنقش فيها صور الموجودات ، وقد ثبت في العلوم العقلية أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع ، ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقتين ، فبدأ بذكر صفات



الله وشرح جلاله ، وهو سورة (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة (قل أعوذ برب الفلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية ، وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة في كتابه الكريم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ في قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) هي أن كلمة ( إنا ) تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما (الأول) فقد دل الدليل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية ، ما سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم إرسالك ، فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ) وقال موسى : رب اجعل لي من أمة أحد . وهو المراد من قوله ( وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ) وبشر بك المسيح في قوله ( وهبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ) .

وأما (الثاني) وهو أن يكون ذلك محمولا على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب في قوله تعالى ( إنا أعطيناك ) والهبية هي الشيء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة ، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيألفها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، وبإله من تشریف ما أعلاه .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلتها من المهدي العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاعهة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيماً ، لا لأن لذة الهدية في نفسها ، بل لأن صدورها من المهدي العظيم يوجب كونها عظيمة ، فهنا الكوثر وإن كان في نفسه في غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدور من ملك الخلاق بزاد عظمة وكالا .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أنه لما قال ( أعطيناك ) قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبي حنيفة أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوي ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوي فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فهنا لما قال ( إنا أعطيناك الكوثر ) طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه نبى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأسر فيصير مشتافاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه ، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفى الشبهة

ومن ههنا تعرف الفخامة في قوله ( فإنها لا تعنى الإبصار ) فإنه أكثر فخامة مما لو قال فإن الإبصار لا تعنى ، وبما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بأمرك . وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيماً . فلما تقع المساحة به فعظمه يورث الشك في الوفاء به ، فإذا أسند إلى المتكفل العظيم ، فحينئذ يزول ذلك الشك ، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شيء عظيم ، فلما تقع المساحة به . فلما قدم المبتدأ ، وهو قوله ( إنا ) صار ذلك الإسناد ، زيبلاً لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة .

( الفائدة السادسة ) أنه تعالى صدر الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم . وكلام الصادق مصون عن الخلف ، فكيف إذا بالغ في التأكيد .

( الفائدة السابعة ) قال ( أعطيناك ) ولم يقل : سنعطيك لأن قوله ( أعطيناك ) يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلًا في الماضي ، وهذا فيه أنواع من الفوائد ( إحداهما ) أن من كان في الزمان الماضي أبداً عزيزاً مرعى الجانب مقضى الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين ، ( وثانيها ) أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسماعيل والإشقاء والاعتراف والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلًا في الأزل ( وثالثها ) كأنه يقول إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ( ورابعها ) كأنه تعالى يقول نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة ، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والاحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : قبل من قبل لا لعله ، ورد من رد لا لعله .

( الفائدة الثامنة ) قال ( أعطيناك ) ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال ( أعطيناك ) علم أن تلك العطية غير معللة بصفة أصلاً بل هي محض الاختيار والمشية ، كما قال ( نحن قسمنا ، الله يسطقى من الملائكة رسلاً ومن الناس ) .

( الفائدة التاسعة ) قال أولاً ( إنا أعطيناك ) ثم قال ثانياً ( فصل لربك وانحر ) وهذا يدل على أن إعطائه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا ، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعته له صفتنا ، وصفة الخالق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق ، ولهذا نقل عن الواسطي أنه قال لا أعبد رباً يرضيه طاعتي ويسخطه معصيتي . ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتي ومعصيتي محدثتان والمحدث لا أثر له في قديم ، بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لا يزال ، وكذا القول في السخط والمعصية .

( الفائدة العاشرة ) قال ( أعطيناك الكوثر ) ولم يقل آتيناك الكوثر ، والسبب فيه أمران

(الاول) أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلاً ، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة ، محض التفضل منا إليك وليس منه شىء على سبيل الاستحقاق والوجوب ، وفيه بشارة من وجهين (أحدهما) أن الكريم اذا شرع فى التربية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله ، وكرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله (أعطيناك) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً . فإن قيل : أليس قال (آيتناك سبعاً من المثاني) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الاول) أن الإعطاء يوجب التملك ، والملك سبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان (هب لى ملكاً) فقال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيافاً له ، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال فى القرآن (آيتناك) فإنه لا يجوز للنبي أن يكرم شيئاً منه (الثانى) أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة فى النهر ، فهى شركة فى الاعيان وهى عيب (الوجه الثانى) فى بيان أن الإعطاء أبقى بهذا المقام من الإيتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، قال الله تعالى (وأعطى قليلاً وكثيراً) أما الإيتاء ، فلا يستعمل إلا فى الشىء العظيم ، قال الله تعالى (وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلاً) والآق السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (أحدها) يعنى هذا الحوض كالشئ القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هى أعظم من هذا المذكور (وثانيها) أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثرأ ، فيكف سائر النعيم (وثالثها) أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء (ورابعها) كأنه تعالى يقول هذا الذى أعطيتك ، وإن كان كوثرأ لكنه فى حقه إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقه ، وفى العادة أن المهدي إذا كان عظيماً فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال إنها حقيرة أى هى حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدي له فكذا ههنا (وخامسها) أن نقول إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه دنيا ، والقرآن إيتاء لأنه دين (وسادسها) كأنه يقول : جميع ما نلت منى عطية وإن كانت كوثرأ إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرأ وخصمك أتر ، فإنما أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر ، أما الذكر الباقى والمظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك (فصل لربك وانحر) أى فاعبد لى وسل المظفر بعد العبادة فإنى أوجب على كرمى أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة ، كذا روى فى الحديث المسند ، فينبذ أستجيب فيصير

خصمك أتر وهو الإيتاء ، فهذا ما يحظر بالبال في تفسير قوله تعالى ( إنا أعطيناك ) أما الكوثر فهو في اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط في الكثرة ، قيل لأعرابية رجعت إليها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، أى بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر ، قال الكمي :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثر

ويقال للغبير إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر في اللغة ، واختاف المفسرون فيه على وجوه ( الأول ) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر في الجنة ، روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رأيت نهرأ في الجنة حافته قباب اللؤلؤ المجرف فضربت يدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت ماهذا ؟ قيل الكوثر الذي أعطاك الله » وفي رواية أنس « أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضرها أعناق كأنها البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان » ولعله إنما سمي ذلك النهر كوثرأ إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روى أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، أو لكثرة الذين يشربون منها ، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال عليه السلام « إنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير » ( القول الثاني ) أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول ، والقول الأول أن يقال لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمسبح ( والقول الثالث ) الكوثر أولاده قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بدمم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يقرون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ، ثم العالم بمتلى منهم ، ولم يبق من بنى أمية في الدنيا أحد يعاب به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم ( القول الرابع ) الكوثر علماء أمته وهو لعمرى الخير الكثير لأنهم كانوا نبياء بني إسرائيل ، وهم يحبون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه ، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين ( أحدهما ) أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبي ويتبعه أمته فربما يجيء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعي بعض العلماء على عدد متبعي ألف من الأنبياء ( الوجه الثاني ) أنهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذة من الوحي ، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد ، أو على قول البعض إن كان بعضهم مخطئاً لكن المخطئ يكرن أيضاً أجوراً ( القول الخامس ) الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية

ولهذا قال ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) وهو شطر الإيمان بل هي كالنصن في معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لا بد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته ، ثم إذا حصلت معرفة النبوة فينتد يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخيرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء وللمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين ، وهو الذي يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخته وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى . ولندكر ههنا قليلا منها ، فنقول إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى ( فتلقى آدم من ربه كلمات ) وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال ( وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ) وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال ( صحف إبراهيم وموسى ) أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال ( ومهيماً عليه ) وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالاسماء المنشورة فقال ( أنبئوني بأسماء هؤلاء ) ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم ( قل لئن اجتمعت الإنس والجن ) وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل في محمد ﷺ ما هو أعظم منه . روى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فقال لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب الآخر فليسبح ولا يفرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذي أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدي الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبي ﷺ بكيفيك هذا ؟ قال حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبي عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل في حق محمد أعظم من ذلك . عن محمد بن حاطب قال « كنت طفلاً فانصب القدر على من النار ، فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى الرسول ﷺ وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله ﷺ على جلدي ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب البأس ، رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بي » وأكرم موسى ففلق له البحر في الأرض ، وأكرم محمداً ففلق له القمر في السماء ، ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، وفجر له الماء من الحجر ، وفجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظله ، وأكرم موسى باليد البيضاء . وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم ، الذي وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه ، وكان داود إذا مسك الحديد لان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء . درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، روى

أن امرأة معاذ بن عفراء أتهت وكانت برصاء ، وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص ، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس في بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عنه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة ، وفعل ذلك أيضاً للرسول حين نام ورأسه في حجر علي فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى ، وردها مرة أخرى لعلي فصلى العصر في وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك في حق محمد ، روى أن طيراً فجع بولده فجعل يرفوف على رأسه ويكلمه فقال أيكم لجع هذه بولدها ؟ فقال رجل أنا ، فقال اردد إليها ولدها ! وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيرة غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في سباعة ، وكان حمارة يعفور يرسله إلى من يريد فيجىء به ، وقد شكوا إليه من ناقة أنها أغيلت ، وأهم لا يقدر أن عليها فذهب إليها ، فلما رآته خضعت له ، وأرسل معاذاً إلى بعض النواحي ، فلما وصل إلى المفازة ، فإذا أسد جائم فهاله ذلك ولم يستجر [ىء] أن يرجع ، فتقدم وقال إني رسول رسول الله فتبصص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابي بالضرب ، وقال لا تؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضرب ، فتكلم الضرب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفاله وحت الحنابة لرفاقه ، وحين لست الحية عقب الصديق في الغار ، قالت كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه ! وأطعم الخلق الكثير ، من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد ، فلها قدمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثرأ ، فقال ( إنا اعطيناك الكوثر ) (القول السادس) الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، (ولو أن ما في الأرض من شجرة أفلام) (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى) (القول السابع) الكوثر الإسلام ، وهو لعمري الخير الكثير ، فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة . وبفوائده يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والإسلام عبارة عن المعرفة ، أو مالا بد فيه من المعرفة ، قال (ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر ، فإن قيل لم خصه بالإسلام ، مع أن نعمه عمت الكل ؟ قلنا لأن الإسلام وصل منه إلى غيره ، فكان عليه السلام كالأصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الاتباع والأشباع ، ولا شك أن له من الاتباع مالا يحصيهم إلا الله ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال « أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشرى عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة ، فينبأ أكون مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فنتبدرهم بأبصارنا ما منا من نبي إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الوصوة ، فأقول أمتي ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يظهر لنا مثلاً ما ظهر أولاً

فنبتدبرهم بأبصارنا ما من نبي إلا ويرجو أن تكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول أمتي ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فنبتدبرهم ، وذكر كما ذكر في المرة الأولى والثانية ، ثم قال ( ليدخلن ) ثلاث فرق من أمتي الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الادم يوم القيامة ، ولو بالسقط » فإذا كان يباهي بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجرم الغفير ، فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال ( إنا أعطيناك الكوثر ) ( القول التاسع ) ( الكوثر ) الفضائل الكثيرة التي فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثير الخير ، وفي صحاح اللغة ( الكوثر ) السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول ( إنا أعطيناك الكوثر ) ( القول العاشر ) الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره في قوله ( ورفعنا لك ذكرك ) ( القول الحادي عشر ) أنه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه ( أحدها ) أن العلم هو الخير الكثير قال ( وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ) وأمره بطلب العلم ، فقال ( وقل رب زدني علماً ) وسمى الحكمة خيراً كثيراً ، فقال ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ) ( وثانيها ) أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة داخله في العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم ( وثالثها ) أنه لما قال ( أعطيناك الكوثر ) قال عقبيه ( فصل لربك وانحر ) والشئ الذي يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال في سورة النحل ( أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ) وقال في طه ( إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ) فقدم في السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب في قوله ( فصل ) تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم ، ( القول الثاني عشر ) أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعافل ، فأما الانتفاع بالعلم ، فهو مختص بالعقلاء ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالدي يحل عقدهم ويكنى مهمهم ، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه ، قال « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » ( القول الثالث عشر ) الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة ، فقال في الدنيا ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) وقال في الآخرة « شفاعةي لأهل الكبائر من أمتي » وعن أبي هريرة قال عليه السلام « إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » ( القول الرابع عشر ) أن المراد من الكوثر هو هذه السورة ، قال وذلك لأنها مع

## فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿١﴾

قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه ( أولها ) أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الاتباع ، أو على كثرة الأولاد ، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب ، وقد وقع مطابقاً له ، فكان معجزاً ( وثانيها ) أنه قال ( فصل لربك وانحر ) وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر ، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب ( وثالثها ) قوله ( إن شئت لك هو الأبر ) وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً ( ورابعها ) أهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها ، فثبت أن وجه الإعجاز في كمال القرآن ، إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقرر النبوة وإذا تقرر النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع ، وتقرر الدين والاسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المخصرة القوية الوافية باثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة في الصورة كبيرة في المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهي أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهي بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة ( القول الخامس عشر ) أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة ، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي فوجب حملها على الكل ، وروى أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) يقتضى أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آناه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله نهر كالوافع إلا أن الحقيقة ما قدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه في حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكنه أن يجاب عنه بأن من أفر لولده الصغير بضیعة له يصح أن يقال إنه أعطاه تلك الضیعة مع أن الصبي في تلك الحال لا يكون أهلاً للتصرف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( فصل ) وجوه ( الأول ) أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن

قيل اللائق عند النعمة الشكر ، فلم قال فصل ولم يقل فاشكر ؟ ( الجواب ) من وجوه ( الأول )



أن الشكر عبارة عن التعميم وله ثلاثة أركان ( أحدها ) يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره ( والثاني ) باللسان وهو أن يمدحه ( والثالث ) بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هذه المعاني ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن . ( وثانيها ) أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوم أنه ما كان شاكرًا لكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكرًا لنعمة ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحي ، قال ( ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ) ( الثالث ) أنه في أول ما أمره بالصلاة . قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلى ولست على الوضوء ، فقال الله ( إنا أعطيناك الكوثر ) ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقبل له عند ذلك فضل ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة ، فكأنه قال أعطيناك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك ( القول الثاني ) فصل لربك أي فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا في فائدة العاء في قوله فصل وجوهاً ( أحدها ) التذية على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي ( وثانيها ) أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) ثم إنه خص محمداً ﷺ في هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) ولأنه قال له ( فإذا فرغت فانصب ) أي فعليك بأخرى عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتي إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع في الشكر عقيب ذلك ( القول الثالث ) فصل أي فادع الله لأن الصلاة هي الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك ما نخلنا عليك ( بالكوثر ) فكيف بعد سؤالك لكن « سل تعطه واشفع تشفع » وذلك لأنه كان أبدأ في مأمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله ( وانحر ) قولان :

( الأول ) وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن ( والقول الثاني ) أن المراد بقوله ( وانحر ) فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو فيها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوهاً : ( أحدها ) قال الفراء معناها استقبال القبلة ( وثانيها ) روى الأصمعي بن نبانة عن علي عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل « ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربني ؟ قال ليست بنخيرة ولكنه يأمرك إذا نحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » ( وثالثها ) روى عن علي بن أبي طالب أنه فسّر هذا النحر بوضع اليدين على النحر في الصلاة ، وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع ( ورابعها ) قال عطاء معناه أقعد بين السجدين حتى يبدو نحره ( وخامسها ) روى عن الضحاك ، وسليمان التيمي أنهما قالوا ( انحر )

معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى تحرك ، قال الواحدى ، وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذى هو الصدر يقال لمذبح البعير النحر لأن منحره فى صدره حيث يبدو الخلقوم من أعلى الصدر فعنى النحر فى هذا الموضوع هو إصابة النحر كما يقال رأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه . وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابى النحر انتصاب الرجل فى الصلاة بازاء المحراب وهو أن ينصب نحره بازاء القبلة ، ولا يلتفت يمينا ولا شمالا ، وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد :

أباحكم هل أنت عم مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

والنكته المعنوية فيه كأنه تعالى يقول الكعبة بيتى وهى قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتى ونظر عنائى فلتكن القبلتان متناحرتين قال الأكترون حمله على نحر البدن أولى لوجوه (أحدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها ( وثانها ) أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان ف قيل له فصل وانحر لربك ( وثالثها ) أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله ( فصل لربك ) فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشيء على جميعه ( ورابعها ) أن قوله ( فصل ) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله ( وانحر ) إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين ( وخامسها ) أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله فى سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله ( واتبعوه ) ولقوله ( فاتبعونى بحبيبكم الله ) وأصحابنا قالوا الأمر بالمطابفة مخصوص بقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر » .

المسألة الثالثة ﴿ اختلف من فسر قوله ( فصل ) بالصلاة على وجوه ( الأول ) أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصلى ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المجمع بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بين كيفية هذه الصلاة أجاز أبو مسلم ، وقال أراد به الصلاة المفروضة أعنى الجنس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل ( القول الثانى ) أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون هذا قول ضعيف لأن عطف الشيء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب ( القول الثالث ) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى ، والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام في قوله ( لربك ) فيها فوائد ( الفائدة الأولى ) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً ومدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود ، وإن حسنت في الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى لموسى ( وأقم الصلاة لذكري ) وقيل إنه كانت صلاتهم ونحرم للصنم فقيل له لتسكن صلاتك ونحرك لله .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ كأنه تعالى يقول ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراة فصل أنت لا للرباء لكن على سبيل الإخلاص .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفاء في قوله ( فصل ) تفيد سببية أمرين ( أحدهما ) سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية ( والثاني ) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أتر فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء في قوله ( فصل ) اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لاجرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال « وجعلت قرة عيني في الصلاة » ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له أو ليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبداً شكوراً » فقوله « أفلا أكون عبداً شكوراً » إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله ( فصل ) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كان الأليق في الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لنا وانحر . لكنه ترك ذلك إلى قوله ( فصل لربك ) لفوائد ( إحداها ) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة ( وثانيها ) أن صرف الكلام من المضمحل إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين ( وثالثها ) أن قوله ( إنا أعطيناك ) ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضاً كلمة إنا تحتل الجمع كما تحتل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال صل لنا ، لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك ، فلماذا ترك اللفظ ، وقال ( فصل لربك ) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله ( فصل لربك ) أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد الترية المتقدمة المشار إليها بقوله ( إنا أعطيناك الكوثر ) ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يريه ولا يتركه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ في الآية سؤالان : ( أحدهما ) أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور هنا هو النحر ؟ ( والثاني ) لما لم يقل ضحى حتى يشمل جميع أنواع

## إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾

الضحايا ؟ ( والجواب ) عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالامر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة ، فلوجه ( أحدها ) أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له اجعلهما لله ( وثانيها ) أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكة شيء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الركاة عليه ، أما التحرف فقد كان واجباً عليه لقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتي ؛ الضحى والأضحى والوتر » ( وثالثها ) أن أعز الأموال عند العرب ، هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تضيها على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطياتها ، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لابن جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحن على رسول الله ، فلما أخذ على السككين تباعدت منه ( والجواب عن الثاني ) أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام « ابدؤا بما بدأ الله به . »

﴿ المسألة العاشرة ﴾ السورة مكية في أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة ، وزوال الفقر والخرف .

قوله تعالى : ﴿ إن شئتكَ هو الأبتَر ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في سبب النزول وجوهاً ( أحدها ) أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد ، والمعاص بن وائل السهمي يدخل فالتقيا فتحدثا ، وصناديد قريش في المسجد ، فلما دخل قالوا من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتَر ، وأقول إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض ، مع أن الله تعالى أظهره ، فحينئذ يكون ذلك معجزاً ، وروى أيضاً أن المعاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتَر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير ( القول الثاني ) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة أنه جماعة قريش فقالوا نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الأبتَر من قومه ، يزعم أنه خير منا ؟ فقال بل أنتم خير منه فنزل ( إن شئتكَ هو الأبتَر ) ونزل أيضاً ( ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ) ، ( والقول الثالث ) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام ، قالوا بتر محمد أي خالفنا وانقطع

عنا ، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون ( القول الرابع ) نزلت في أبي جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل إني أبغضه لأنه أبر ، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الإبن لم يكن مراده ( القول الخامس ) نزلت في عمه أبي لهب فإنه لما شافه بقوله تبأ لك كان يقول في غيبته إنه أبر ( والقول السادس ) أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وإنه هو الذي كان يقول ذلك ، واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشنآن هو البغض . والشانء هو المبغض ، وأما البتر فهو في اللغة استئصال القطع يقال بترته أبره بترأ وبتر أى صار أبر وهو مقطوع الذنب ، ويقال للذى لا عقب له أبر ، ومنه الحمار الأبر الذى لا ذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحضرة فيه ، فانك إذا قلت زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام إنه أبر لاشك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه . ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات ( أما الأول ) فيحتمل وجوهاً ( أحدها ) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فانا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة ( وثانيها ) قال الحسن عنوا بكونه أبر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك ، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة ( وثالثها ) زعموا أنه أبر لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب ( ورابعها ) الأبر هو الحقير الذليل ، روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلاً حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه ، وبقى النبي عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على أقباح وجهه ، فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء ، فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله ( إن شاتك هو الأبر ) هذه الواقعة ( وخامسها ) أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل ( إن شاتك هو

الأبر) أى الذى قاله فيك فاسد يضمحل ويفنى ، وأما المدح الذى ذكرناه فيك ، فإنه باق على وجه الدهر (وسادسها) أن رجلاً قام إلى الحسن بن على عليهما السلام ، وقال : سوت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية ، فقال لا تؤذيني يرحمك الله ، فإن رسول الله رأى بنى أمية فى المنام يصعدون منبره رجلاً فرجلاً فسامه ذلك ، فأرسل الله تعالى (إنا اعطيناك الكوثر) (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فكان ملك بنى أمية كذلك ، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكفار لما شتموه ، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة ، فقال (إن شانتك هو الأبر) وهكذا سنة الأحباب ، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه ، فهنا تولى الحق سبحانه جوابهم ، وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا (هل ندلكم على رجل يذنبكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لئن خلق جديد ، افترى على الله كذباً أم به جنة) فقال سبحانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وحين قالوا هو مجنون أقسم ثلاثاً ، ثم قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ولما قالوا (لست مرسلًا) أجاب فقال (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) وحين قالوا (أئنا لناركو آلهتنا لشاعر مجنون) رد عليهم وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فصدقه ، ثم ذكر وعيد خصمائه ، وقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) وحين قال حاكياً (أم يقولون شاعر) قال (وما علنناه الشعر) ولما حكى عنهم قولهم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) سماهم كاذبين بقوله (فقد جاؤا ظلماً وزوراً) ولما قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) أجابهم فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إهم لياً كلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فأجل هذه الكرامة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعمة العظيمة ، وعلم تعالى أن النعمة لانتهاً إلا إذا صار العدو مهوراً ، لا لجرم وعده بقهر العدو ، فقال (إن شانتك هو الأبر) وفيه لطائف (إحداها) كأنه تعالى يقول : لا أفعله لكى يرى بعض أسباب دولتك ، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانيها) وصفه بكونه شانتاً ، كأنه تعالى يقول : هذا الذى يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك ، والمبغض إذا عجز عن الإيذاء ، فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً ، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبر ، لأنه كان شانتاً له ومبغضاً ، والأمر بالحقيقة كذلك ، فإن من عادى محسوداً فقد عادى الله تعالى ، لا سيما من تكفل الله بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، فقلب الله الأمر عليه ، وقال العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله ، فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام ، والأبرية والدناءة والذلة للعدو ، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن من تأمل فى مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التى

ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر . روى عن مسيلة أنه عارضها فقال : إنا عطيناك الجاهر ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك رجل كافر ، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه (أحدها) أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة ( وثانها ) أنا ذكرنا أن هذه السورة كاللثة لما قبلها ، وكالأصل لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالا لاكثر لطائف هذه السورة ( وثالثها ) التفاوت العظيم الذي يقربه من له ذوق سليم بين قوله ( إن شئتك هو الأبر ) وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فالله سبحانه مدحه مدحا أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله ( أنا أعطيناك الكوثر ) لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشيء دون شيء ، لاجرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيان ، لأن طاعة البدن هي الصلاة ، وطاعة المال هي الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله ، واللام في قوله ( لربك ) يدل على هذه الحالة ، ثم كآبه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن في الذكر ، وهو قوله ( فصل ) وآخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبها على فساد مذهب أهل الإباحة في أن العبد قد يستغنى بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة ، وعلى أنه لا بد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله في المعاد ، كأنه يقول : كنت رببتك قبل وجودك ، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولا بإفاضة النعم عليه تكفل في آخر السورة بالذبح عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم ، والآخر بتكميل النعم في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



(١٠٩) سُورَةُ الْكَافِرُونَ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّانَهَا سَبِّتُ

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المناذرة وسورة الإخلاص والمقشقة ، وروى أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن ، والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعا للقرآن والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

اعلم أن قوله تعالى ( قل ) فيه فوائد : ( أحدها ) أنه عليه السلام كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال ( ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، يا أيها الذين آمنوا ربوف رحيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) ثم كان مأمورا بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن ( وجاد لهم بالنبي هي أحسن ) ولما كان الأمر كذلك ، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بآي مأمور بهذا الكلام لا أنى ذكرته من عند نفسي فكان المراد من قوله قل تقرير هذا المعنى ( وثانيها ) أنه لما قيل له ( وأندر عشيرتك الأقربين ) وهو كان يحب أقرباه لقوله ( قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ) فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له ( قل ) ، ( وثالثها ) أنه لما قيل له ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ) فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه فلما قال الله تعالى له ( قل يا أيها الكافرون ) نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملة كأنه قال إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أنزل على والذي أنزل على هو مجموع قوله ( قل يا أيها الكافرون ) فأنا أيضا أبلغه إلى الخلق هكذا ( ورابعها ) أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع ، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم ، على ما قال



تعالى ( واثن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) والعبد يتحمل من مولاه مالا يتحملة من غيره ، فلو أنه عليه السلام قال ابتداء ( يا أيها الكافرون ) لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد ، فلعلمهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه . أما لما سمعوا قوله ( قل ) علموا أنه ينقل هذا التعليل عن خالق السموات والأرض ، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيتهم به (وخاسمها) أن قوله ( قل ) يوجب كونه رسولا من عند الله ، فكما قيل له ( قل ) كان ذلك كالمشهور الجديد في ثبوت رسالته ، وذلك يقتضى المبالغة في تعظيم الرسول ، فإن الملك إذا فوض بملكته إلى بعض عبيده ، فإذا كان يكتب له كل شهر سنة منشورا جديداً دل ذلك على غاية اعتناؤه بشأنه ، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيما وتشريفا ( وسادسها ) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة ، فكأنه عليه السلام قال : أستأمرت إلهي فيه . فقال ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( وسابعها ) الكفار قالوا فيه السوء ، فهو تعالى زجرهم عن ذلك ، وأجابهم وقال ( إن شائتك هو الأبر ) وكأنه تعالى قال : حين ذكرك بسوء ، فأما كنت المحجيب بنفسى ، فحين ذكروني بالسوء وأثبتوا لي الشركاء ، فكأن أنت المحجيب ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ( وثامنها ) أنهم سموك أبر ، فإن شئت أن تستوفي منهم القصاص ، فاذكروهم بوصف ذم بحيث تكون صادقا فيه ( قل يا أيها الكافرون ) لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيهم بما هو فعلهم ( وتاسعها ) أن بتقدير أن تقول : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه ، والكفار يقولون : هذا كلام ربك أم كلامك ، فإن كان كلام ربك فربك يقول : أنا لا أعبد هذه الأصنام ، ونحن لا نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك ، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك إنى لا أعبد هذه الأصنام ، فلم قلت إن ربك هو الذى أمرك بذلك ، أما لما قال قل ، سقط هذا الاعتراض لأن قوله ( قل ) يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها ( وعاشرها ) أنه لو أنزل قوله ( يا أيها الكافرون ) لكان يقرؤها عليهم لاحالة ، لأنه لا يجوز أن يخون في الوحي إلا أنه لما قال ( قل ) كان ذلك كالتأكيدي في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم ، والتأكيدي يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم . فهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذى قاله وطلبوه من الرسول أمر منكر في غاية القبح ونهاية الفحش ( الحادى عشر ) كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف ، أما الآن لما قويتا بملك بقولنا ( إنا أعطيناك السكوت ) وبقولنا ( إن شائتك هو الأبر ) فلا تبال بهم ولا تلفت إليهم و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ( الثانى عشر ) أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار ، أنه تعالى لا يكلمهم ، فلو قال ( يا أيها الكافرون ) لكان ذلك من حيث أنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم ، ومن حيث أنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء فينجبر الإيذاء بالإكرام ، أما لما قال ( قل يا أيها الكافرون ) فحينئذ يرجع تشریف

المخاطبة إلى محمد ﷺ ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار ، فيحصل فيه تعظيم الأولياء ، وإهانة الأعداء ، وذلك هو النبوة في الحسن ( الثالث عشر ) أن محمداً عليه السلام كان منهم ، وكان في غاية الشفقة عليهم والرافة بهم ، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب ، والاب الذي يكون في غاية الشفقة بولده ، ويكون في نهاية الصدق والبعد عن المكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم فالولد إن كان عاقلاً يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقتة عليه إلا لصدقه في ذلك ولأنه بلغ مبلغاً لا يقدر على إخفائه ، فقال تعالى ( قل ) يا محمد لهم ( أيها الكافرون ) ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة ، فربما يصير ذلك داعياً لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها ( الرابع عشر ) أن الإيذاء والايحاش من ذوى القربى أشد وأصعب من الغير فأنت من قبيلهم ، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم ( يا أيها الكافرون ) فلهـ يـ يصعب ذلك الكلام عليهم ، فيصير ذلك داعياً لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر ( الخامس عشر ) كأنه تعالى يقول ألسنا بينا في سورة ( والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) وفي سورة الكوثر ( إنا أعطيناك الكوثر ) وأنت بالإيمان والأعمال الصالحات ، بمقتضى قولنا ( فصل لربك وانحر ) بقى عليك التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وذلك هو أن تمنهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله ، فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السادس عشر ) كأنه تعالى يقول يا محمد أنسيت أنى لما أخرت الوحى عليك مدة قليلة ، قال الكافرون إنه ودعه ربه وقلاه ، فشق عليك ذلك غاية المشقة ، حتى أنزلت عليك السورة ، وأقسمت بالضحى ( والليل إذا سجى ) أنه ( ما ودعك ربك وما قلى ) فلما لم تستجز أن أتركك شهراً ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه ( ما ودعك ربك وما قلى ) أقتستجز أن تتركنى شهراً وتشتغل بمباداة آلهتهم فلما ناديت بنفى تلك التهمة ، فنادت أيضاً في العالم بنفى هذه التهمة و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( السابع عشر ) لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إله سنة ، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئاً ، لا لأنه جوز في قلبه أن يكون الذى قاله حقاً ، فإنه كان قاطعاً بفساد ما قالوه لكنه عليه السلام ، توقف في أنه بماذا يجيبهم ؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع ذلك أو بأن يجرم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذاباً ، فاغتم الكفار ذلك السكوت وقالوا إن محمداً مال إلى ديننا ، فكانه تعالى قال يا محمد إن تزفك عن الجواب في نفس الأمر حق ولكنه أوم باطلاً ، فتدارك إزالة ذلك الباطل ، وصرح بما هو الحق و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ( الثامن عشر ) أنه عليه السلام لما قال له ربه ليسلة المعراج أنى على استولى عليه هية الحضرة الإلهية فقال لأحصى ثناء عليك ، فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن فكانه

قيل له إن سكت عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فأطلق لسانك في مذمة الأعباء و ( قل يا أيها الكافرون ) حتى يكون سكوتك الله وكلامك الله ، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل وهنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار ( التاسع عشر ) لو قال له لا تعبد ما يعبدون لم يلزم منه أن يقول بلسانه ( لا أعبد ما تعبدون ) أما لما أمره بأن يقول بلسانه ( لا أعبد ما تعبدون ) يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذبا ، ثبت أنه لما قال له قل ( لا أعبد ما تعبدون ) فلزمه أن يكون منكراً لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه . ولو قال له لا تعبد ما يعبدون لزمه تركه ، أما (٤) لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان ، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه في نفسه وأنكره بلسانه فقوله له ( قل ) يقتضى المبالغة في الإنكار ، فلماذا قال ( قل .. لا أعبد ما تعبدون ) ، ( العشرون ) ذكر التوحيد ونفى الإنداد جنة للعارفين ونار للمشركين فاجعل لفظك جنة للوحدنين ونارا للمشركين و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الحادى والعشرون ) أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبداً لهتنا سنة سكت محمد فقال إن شافهتهم بالرد تأذوا ، وحصلت النفرة عن الإسلام في قلوبهم ، فكانه تعالى قال له يا محمد لم سكت عن الرد ، أما الطمع فيما يعبدونك من قبول دينك ، فلا حاجة بك في هذا المعنى إليهم ( فإننا أعطيناك الكوثر ) وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك ، الخوف بقولنا إن شانتك هو الأبر ( فلا تلتفت إليهم ، ولا تبال بكلامهم ) ( وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثانى والعشرون ) أنسيت يا محمد أى قدمت حقلك على حق نفسى ، فقلت ( لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ) فقدمت أهل الكتاب في الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين في ، فقدمت حقلك على حق نفسى وقدمت أهل الكتاب في الذم على المشركين ، وأنت أيضاً هكذا كنت تفعل فإنهم لما كسروا سنك قلت « اللهم اهد قومي » ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت « اللهم املاً بطونهم ناراً » فههنا أيضاً قدم حق على حق نفسك وسواء كنت خائفاً منهم ، أو لست خائفاً منهم فأظهر إنكار قولهم ( وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثالث والعشرون ) كأنه تعالى يقول قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة ، ثم إنى هناك مريضيت منك أن تضمر في قلبك شيئاً ولا تظهره بلسانك ، بل قلت لك على سبيل العتاب ( وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ) فإذا كنت لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار ، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك في هذه المسألة ، وهى أعظم المسائل خطراً بالسكوت ، قل بصرح لسانك ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الرابع والعشرون ) يا محمد ألست قلت لك ( ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ) ثم إنى مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت في العالمين بأنى لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره ، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت ( ولكن رسول الله وخاتم النبيين )

فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلاً أن يشاركى غيرى فى العبودية أولى أن تنادى فى العالمين بنفى هذه الشركه . فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الخامس والعشرون ) كأنه تعالى يقول القوم جاؤك وأطعموك فى متابعتهم لك ومتابعتك لديهم فسكت عن الإنكار والرد ، ألسنت أنا جعلت البيعة معك ببيعة معي حيث قلت ( إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ) وجعلت متابعتك متابعة لى حيث قلت ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ) ثم إنى ناديت فى العالمين وقلت ( إن الله برىء عن المشركين ورسوله ) فصرح أنت أيضاً بذلك ، و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ، ( السادس والعشرون ) كأنه تعالى يقول ألسنت أراف بك من الولد بولده ، ثم العرى والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب ، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعته عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى ، فقد جربتنى ، ألم أجدك يتيماً وضالاً وعائلاً ، ألم نشرح لك صدرك ، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفارق هبة وبعثان معونة ، وبعلى علماً ، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك ، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف ، ألم أعطك الكوثر ، ألم أضمن أن خصمك أبتى ، ألم يقل جدك فى هذه الأصنام بعد تخريبها ( لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ) فصرح بالبراءة عنها و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ( السابع والعشرون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ألسنت قد أنزلت عليك ( فاذكروا الله كذا كرم آباءكم أو أشد ذكراً ) ثم إن واحداً لو نسبك إلى والدين لغضبت ولا ظهرت الإنكار ولبلغت فيه ، حتى قلت « ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح » فإذا لم تسكت عند التشريك فى الولادة ، فكيف سكت عند التشريك فى العبادة ! بل أظهر الإنكار ، وبالغ فى التصريح به ، و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( الثامن والعشرون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ألسنت قد أنزلت عليك ( أفن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ) فحكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجداد فى العبودية لا يكون عاقلاً بل يكون مجنوناً ، ثم إنى أقسمت وقلت ( ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ) والكفار يقولون إنك مجنون ، فصرح بردمقالتهم فإنها تفيد براءتى عن عيب الشرك ، وبراءتك عن عيب الجنون و ( قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) ، ( التاسع والعشرون ) أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة ، والمشاركة فى الاسم لا توجب المشاركة فى المعنى ، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان فى الإنسانية حقيقة ، ثم القيمة كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر ، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق فى القيمة ، فمن لا قدرة له ولا علم البتة كيف يكون له حق فى القيمة ، بل ههنا شىء آخر : وهو أن امرأته ادعاهارجلان فاصطلحا عليها لا يجوز ، ولو أقام كل واحد منهما بيته على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما ، والجارية بين اثنين لا تحمل لواحد منهما ، فإذا لم يحز حصول زوجة لزوجين ، ولا أمة بين موليين فى حل الوطء .

فكيف يعقل عابد واحد بين معبودين ! بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحمل الزوجة لأحدهما شهراً ، ثم الثاني شهراً آخر كان كافراً ، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافراً فكأنه تعالى يقول لرسوله : إن هذه المقالة في غاية القبح فصرح بالإنكار وقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثلاثون ) كأنه تعالى يقول أنسيت أنى لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك ( قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ) إلى قوله ( أجرأ عظيماً ) ثم خشيت من عاتشة أن تختار الدنيا ، فقلت لها لا تقولى شيئاً حتى تستأمرى أبويك ، فقالت أنى هذا أستأمر أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ! فناقصة العقل ما توقفت فيها يخالف رضاي أتوقف فيها يخالف رضاي وأمرى مع أنى جبار السموات والأرض ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الحادى والثلاثون ) كأنه تعالى يقول : يا محمد ألسنت أنت الذى قلت : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يوقفن مواقف التهم ، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذى يريد أن يفارقه ، لا تخاف السلطان قال ولم ؟ قال : لأنه يوقع الناس فى أحد الخطأين ، وإما أن يعتقدوا أن السلطان متدين ، لأنه يخاطبه العالم الزاهد ، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله ، وكلاهما خطأ ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يا محمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك ، لا سيما وقد سبق أن الشيطان أتى فيها بين قراءتك : تلك الغرائق العلى منها الشفاعة ترتجى ، فأزل عن نفسك هذه التهمة و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثانى والثلاثون ) الحقوق فى الشاهد نوعان حق من أنت تحت يده ، وهو هولاك ، وحق من هو تحت يدك وهو الولد ، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد ، فإذا كان حق المولى المجازى مقدماً ، فبأن يكون حق المولى الحقيقى مقدماً كان أولى ، ثم روى أن علياً عليه السلام إستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الزواج بابنة أبى جهل فضجر وقال لا أذن لا أذن لا أذن أن فاطمة بضعة منى يؤذيني ما يؤذيها ويسرنى ما يسرها والله لا يجمع بين بنت عدو الله ، وبنت حبيب الله ، فكأنه تعالى يقول صرحت هناك بالرد وكررت على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد ، فهنا أولى أن تصرح بالرد ، وتكرره رعاية لحق المولى فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ولا أجمع فى القلب بين طاعة الحبيب وطاعة العدو ( الثالث والثلاثون ) يا محمد ألسنت قلت لعمر رأيت قصراً فى الجنة ، فقلت لمن ؟ فقيل لفتى من قريش ، فقلت من هو ، فقالوا عمر نخشيت غيرتك فلم أدخلها حتى قال عمر أو أغار عليك يا رسول الله ، فكأنه تعالى قال خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره أقبا تخشى غيرتى فى أن تدخل قلبك طاعة غيرى ، ثم هناك أظهرت الامتناع فهنا أيضاً أظهر الامتناع و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ، ( الرابع والثلاثون ) أترى أن نعمتى عليك دون نعمة الوالدة ، أم أربك ؟ أم أخلقك ؟ أم أرزقك ؟ أم أعطتك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق ؟ ثم حين كنت طفلاً عديم العقل وعرفت تربية الأم فلو أخذتك امرأة أجهل وأحسن وأكرم من أمك لا ظهرت النفرة ولبكيت

ولو أعطتك الثدى لسددت فك تقول لا أريد غير الام لأنها أول المنعم على ، فهنا أولى أن تظهر  
 النفرة فنقول لا أعبد سوى ربي لأنه أول منعم على فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون )  
 ( الخامس والثلاثون ) نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة ، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب  
 لا ينسيان نعمة الإطعام ولا يميلان إلى غير من أطعهما فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد  
 والإحسان فكيف في حق أفضل الخلق ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السادس  
 والثلاثون ) مذهب الشافعي أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة فإذا لم تجد من الانصار  
 تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلاً بها ، ( لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك  
 شيئاً ) فتقدير أن كنت متصلاً بها ، كان يجب أن تفصل عنها وتركها ، فكيف وما كنت متصلاً  
 بها أيلق بك أن تقرب الاتصال بها ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( السابع  
 والثلاثون ) هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة في الإلهية كالكثرة في المال يزيد به  
 الغنى وليس الأمر كذلك بل هو كالكثرة في العيال تزيد به الحاجة فقل يا محمد لى إله واحد أقوم له  
 في الليل وأصوم له في النهار ، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه ، فكيف أتزم  
 عبادة آلهة كثيرة ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثامن والثلاثون ) أن مريم عليها  
 السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام ( قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ) فاستعادت  
 أن تميل إلى جبريل دون الله أفستجيز مع كمال رحوليتك أن تميل إلى الأصنام ( قل يا أيها  
 الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( التاسع والثلاثون ) مذهب أبي حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة  
 بالمعز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة يقول لأنه كان قيميا فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب  
 فالحق سبحانه يقول ، كنت قيميا ولم أتعيب ، فكيف يجوز الإعراض عنى ( قل يا أيها الكافرون  
 لا أعبد ما تعبدون ) ( الأربعون ) هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم ( ولئن سألتهم من  
 خالق السموات والأرض ليقولن الله ) وقال في موضع آخر ( أروني ماذا خلقوا من الأرض )  
 فكأنه تعالى يقول هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل ، لأن البذر منى والتربية والسقى  
 منى ، والحفظ منى ، فأى شيء للصنم ، أو شركة الوجوه وذلك أيضاً باطل أتري أن الصنم أكثر  
 شهرة وظهوراً منى ، أو شركة الأبدان وذلك أيضاً باطل ، لأن ذلك يستدعى الجنسية ، أو شركة  
 العنان ، وذلك أيضاً باطل ، لأنه لا بد فيه من نصاب فما نصاب الأصنام ، أو يقول ليس هذه من  
 باب الشركة لكن الصنم يأخذ بالتغلب نصيباً من الملك ، فكان الرب يقول : ما أشد جهلكم إن  
 هذا الصنم أكثر عجزاً من الذبابة ( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ) وأنا أخلق البذر  
 ثم ألقيه في الأرض ، فأكبية والسقى والحفظ منى . ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر  
 والتغلب نصيباً منى ، ما هذا بقول يليق بالعقلاء ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون )  
 ( الحادى والأربعون ) أنه لا ذرة في عالم المحدثات إلا وهى تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات

وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام ، ولما كان كل بق وبعوضة داعياً إلى معرفة الذات والصفات قال ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ) ، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله ، فكأنه تعالى يقول مثل هذا الشيء كيف يستحي منه ، روى أن عمر رضی الله عنه كان في أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشاً وحمله بنفسه فزأه على من بعيد فتسكب على عن الطريق فاستقبله عمر وقال له لم تسكبت عن الطريق ؟ فقال على : حتى لا تستحي ، فقال : وكيف أستحي من حمل ما هو غذائي ! فكأنه تعالى يقول إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذي هو غذاؤه في الدنيا فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذي يعطيك غذاء دينك ، ثم كأنه تعالى يقول يا محمد إن نمرود لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار ، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم أفلا تصرح بالرد عليهم ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) وإن فرعون لما ادعى الإلهية فجبريل ، أأفاه من الطين فإن كنت ضعيفاً فليست أضعف من بعوضة نمرود ، وإن كنت قوياً فليست أقوى من جبريل ، فأظهر الإنكار عليهم و ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثاني والأربعون ) كأنه تعالى يقول يا محمد ( قل ) بلسانك ( لا أعبد ما تعبدون ) واتركه قرصاً على فاني أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه ، ألا ترى أن النصراني إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله فأقول أنا لا أكتفي بهذا ما لم تصرح بالبراءة عن النصرانية ، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصرح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت أيضاً أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيري فقل ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) ( الثالث والأربعون ) أن موسى عليه السلام كان في طبعه الخشونة فلما أرسل إلى فرعون قيل له ( فقولا له قولاً ليناً ) وأما محمد عليه السلام فلما أرسل إلى الخلق أمر بإظهار الخشونة تنبيهاً على أنه في غاية الرحمة ، فقيل له ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) .

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يا أيها ، قد تقدم القول فيها في مواضع ، والذي زبده ههنا ، أنه روى عن علي عليه السلام أنه قال . يا نداء النفس وأي نداء القلب ، وها نداء الروح ، وقيل : يا نداء الغائب وأي للحاضر ، وها للتنبيه ، كأنه يقول أدعوك ثلاثاً ولا تجيبني مرة ما هذا إلا لجهلك الخفي ، ومنهم من قال إنه تعالى جمع بين يا الذي هو للبعيد ، وأي الذي هو للقريب ، كأنه تعالى يقول معاملك معي وفرارك عني يوجب البعد البعيد ، لكن إحساني إليك ، ووصول نعمتي إليك توجب القرب القريب ( ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ) وإنما قدم يا الذي يوجب البعد على أي الذي يوجب القرب ، كأنه يقول التقصير منك والتوفيق مني ، ثم ذكرها بعد ذلك لأن

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾

ما يوجب البعد الذي هو كالموت وأى يوجب القرب الذي هو كالحياة ، فلما حصلنا حالة متوسطة بين الحياة والموت ، وتلك الحالة هي النوم ، والنائم لا بد وأن يذبحها كلمة تنبيه ، فلماذا السبب ختمت حروف النداء بهذا الحرف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى في سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، قالوا الرسول الله تعالى حتى نعبد إلهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل مصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرنا رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة ونزل أيضاً قوله تعالى ( قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ) فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر ، واعلم أن الجهل كالشجرة والكفر كالثمرة ، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤسهم شتموه وأيسوا منه ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم ذكرهم في هذه السورة بالكافرين ، وفي الأخرى بالجاهلين ؟ (الجواب) لأن هذه السورة بتأمرها نازلة فيهم ، فلا بد وأن تكون المبالغة ههنا أشد ، وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أيشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقاً أو مقيداً ، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم ، كقوله عليه السلام في علم الأنساب «علم لا ينفع وجهل لا يضر» .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لما قال تعالى في سورة ( لم تحرم ) يا أيها الذين كفروا ، ولم ينم كر قل ، وههنا ذكر قل ، وذكره باسم الفاعل ( والجواب ) الآية المذكورة في سورة لم تحرم : إنما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولا إليهم فأزال الوساطة وفي ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين . فلذلك ذكره بلفظ الماضي ، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولا إليهم ، فلا جرم قال ( قل يا أيها الكافرون ) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قوله ههنا ( قل يا أيها الكافرون ) خطاب مع الكل أو مع البعض ؟ (الجواب) لا يجوز أن يكون قوله ( لا أعبد ما تعبدون ) خطاباً مع الكل ، لأن في الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز أن يقول لهم ( لا أعبد ما تعبدون ) ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) خطاباً مع الكل ، لأن في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله ، فإذاً وجب أن يقال إن قوله ( يا أيها الكافرون ) خطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ، والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ، ولو حملنا على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك ، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى .

قوله تعالى : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد



## وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية قولان ( أحدهما ) أنه لا تكرار فيها ( والثاني ) أن فيها تكراراً ( أما الأول ) فتقريره من وجوه ( أحدها ) أن الأول للمستقبل ، والثاني للحال والدليل على أن الأول للمستقبل أن لا يتدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال ، أن ترى أن لن تأكيد فيما ينفية لا ، وقال الخليل في إن أصله لا أن ، إذا ثبت هذا فقوله ( لا أعبد ما تعبدون ) أي لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آهنتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ، ثم قال ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) أي ولست في الحال بعباد معبودكم ولا أنتم في الحال بعبادين لمعبودي ( الوجه الثاني ) أن قلب الأمر فتجعل الأول للحال والثاني للاستقبال والدليل على أن قول ( ولا أنا عابد ما عبدتم ) للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا : أنا عابد ما عبدتم ولا شك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال أنا قاتل زيداً فهم منه الاستقبال ( الوجه الثالث ) قال بعضهم كل واحد منهما يصلح للحال وللإستقبال ، وإن كنا نخص أحدهما بالحال ، والثاني بالاستقبال دفأً للتكرار ، فإن قلنا إنه أخبر عن الحال ، ثم عن الاستقبال ، فهو الترتيب ، وإن قلنا أخبر أولاً عن الاستقبال ، فلأنه هو الذي دعوه إليه ، فهو الأهم فبدأ به ، فإن قيل ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم ، وأما الكفار فكأبوا يعبدون الله في بعض الأحوال ؟ قلنا أما الحكاية عن نفسه فلتلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سرأ خوفاً منها أو طمعاً إليها وأما نفيه عبادتهم . فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً ( الوجه الرابع ) وهو اختيار أبي مسلم أن المقصود من الأواين المعبود وما بمعنى الذي ، فكأنه قال لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله ، وأما في الأخيرين فما مع الفعل في تأويل المصدو أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون عبادتي المبنية على اليقين ، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهي ، كان ذلك باطلاً لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم ، فهو منهي عنه ، وغير مأمور به ( الوجه الخامس ) أن تجعل الأولى على نفي الاعتبار الذي ذكره ، والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات فكأنه أولاً قال ( لا أعبد ما تعبدون ) رجاء أن تعبدوا الله ، ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قال ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض ، ومقصود من المقاصد البتة بوجه من الوجوه ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) بوجه من الوجوه ، واعتبار من الاعتبارات ، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعيم ، فيقول لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلاً لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض ( القول الثاني ) وهو أن نسلم حصول التكرار ، وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه ( الأول ) أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير

أحسن ، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله ﷺ في هذا المعنى مراراً ، وسكت رسول الله عن الجواب ، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل ، فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال ( الوجه الثاني ) أنه كان القرآن ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالشركون قالوا استلم بعد آلهتنا حتى تؤمن يهلك فأنزل الله ( ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً فأنزل الله ( ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ) ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضراً البتة ( الوجه الثالث ) أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهمك فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافاً به واستحقاراً لقوله ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ في الآية سؤال وهو أن كلمة ( ما ) لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) أجابوا عنه من وجوه ( أحدها ) أن المراد منه الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق ( وثانها ) أن مصدرية في الجملتين كأنه قال لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل ، ثم قال ثانياً لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال ( وثالثها ) أن يكون ما بمعنى الذي وحينئذ يصح الكلام ( وربها ) أنه لما قال أولاً ( لا أعبد ما تعبدون ) حمل الثاني عليه ليتسق الكلام كقوله ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله ( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) والخبر الصدق عن عدم الشيء يصاد وجود ذلك الشيء فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين ، وأعلم أنه بقي في الآية سوالات :

( السؤال الأول ) أليس أن ذكر الوجه الذي لاجله تقبح عبادة غير الله كان أولى من هذا التكرير ؟ الجواب بل قد يكون التأكيد والتكرير أولى من ذكر الحجة ، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة أو لاجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فالمنظرة في مسألة الجبر والقدر حسنة ، أما القائل بالصنم فهو إما مجنون يجب شدة أو عاقل معاند فيجب قتله ، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه ، والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية :

( السؤال الثاني ) أن أول السورة اشتمل على التشديد ، وهو النداء بالكفر والتكبير وأخراها على اللطف والتساهل ، وهو قوله ( لكم دينكم ولي دين ) فكيف وجه الجمع بين الأمرين ؟

## لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿١﴾

(الجواب) كأنه يقول إنني قد بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح ، وما قصرت فيه ، فإن لم تقبلوا قولي ، فاتركوني سواء بسواء .

(السؤال الثالث) لما كان التكرار لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغي أن يقول : لن أعبد ما تعبدون ، لأن هذا أبلغ ، ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا ( لن ندعو من دونه إلهاً ) (والجواب) المبالغة إنما يحتاج إليها في موضع التهمة ، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع ، فكيف يعبد بعد ظهور الشرع ، بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل .

قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ فقيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ابن عباس لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له ، فإن قيل فهل يقال إنه أذن لهم في الكفر قلنا ، كلا فإنه عليه السلام ما بعث إلا للذم من الكفر فكيف يأذن فيه ، ولكن المقصود منه أحد أمور (أحدها) أن المقصود منه التهديد ، كقوله اعملوا ما شئتم (وثانيها) كأنه يقول إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فاتركوني ولا تدعوني إلى الشرك (وثالثها) ( لكم دينكم ) فكفروا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم (ولي ديني) لأنني لا أرفضه (القول الثاني) في تفسير الآية أن الدين هو الحساب أي لكم حسابكم ولحسابي ، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر البتة (القول الثالث) أن يكون على تقدير حذف المضاف أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني وحسبهم جزاء دينهم وبالإضافة عقاباً كما حسبك جزاء دينك تعظيماً وثواباً (القول الرابع) الدين العقوبة (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله يعني الحد ، فلنكم العقوبة من ربي ، ولي العقوبة من أصنامكم ، لكن أصنامكم جمادات ، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام ، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض (القول الخامس) الدين الدعاء ، فادعوا الله مخلصين له الدين ، أي لكم دعاؤكم (ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) (وإن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ثم ليها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم ، بل يوم القيامة يجدون لساناً فيكفرون بشركم ، وأما ربي فيقول (ويستجيب الذين آمنوا) (ادعوني أستجب لكم) (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (القول السادس) الدين العادة ، قال الشاعر:

يقول لها وقد دارت وضيئي أهذا دينها أبداً وديني

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ، ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي ، ثم يبقى كل واحد منا على عادته ، حتى تلقوا الشياطين والنار ، وأنتي الملائكة والجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( لكم دينكم ) يفيد الحصر ، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم ، ولي ديني لا لغيري ، وهو إشارة إلى قوله ( وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ) أي أنا مأمور بالوحي والتبليغ ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول ، فأنا لما فعلت ما كلفت به خرجت عن عهدة التكليف ، وأما إصراركم على كفركم ، فذلك مما لا يرجع إلى منه ضرر البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المشاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا ، وعلى آله وصحبه وسلم .



## (١١٠) سِوْرَةُ النَّصْرِ قَلْبِيهَا وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ في الآية لطائف :

(إحداها) أنه تعالى لما وعد محمداً بالترزية العظيمة بقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله (إنا أعطيناك الكوثر) لاجرم كان يزداد كل يوم أمره ، كأنه تعالى قال يا محمد لم يضيق قلبك ، ألسنت حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك بل نصرتك بالطير اليا بيل ، وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة أن يكفيكم ( أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ) ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصرأ لك بذاتي ( إذا جاء نصر الله ) فقال إلهي إنما تم النعمة إذا فتحت لي دارمولدي ومسكني فقال (والفتح) فقال إلهي لكن القوم إذا خرجوا ، فأى لذة في ذلك فقال ( ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ) ثم كأنه قال هل تعلم يا محمد بأى سبب وجدت هذه التشریفات الثلاثة إنما وجدت لانك قلت في السورة المتقدمة ( يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ) وهذا يشتمل على أمور ثلاثة ( أولها ) نصرتي بلسانك فكان جزاؤه ( إذا جاء نصر الله ) ( وثانيها ) فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله ، والفتح ( والثالث ) أدخلت رعية جوارحك وأعضائك في طاعتي وعبوديتي فأنا أيضا أدخلت عبادي في طاعتك ، وهو المراد من قوله ( يدخلون في دين الله أفواجا ) ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلق الثلاثة فابعث إلى حضرتي بثلاث أنواع من العبودية تهادوا وتحابوا ، إن نصرتك فسيح ، وإن فتحت مكة فاحمد وإن أسلبوا ، فاستغفر ، وإنما وضع في مقابلة ( نصر الله ) تسديحه ، لأن التسبيح هو تنزيهه الله عن مشابهة المحدثات ، يعنى تشهد أنه نصرك ، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لانك تستحق منه ذلك النحر ، بل اعتقد كونه منزهاً عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً ، ثم جعل في مقابلة فتح مكة الحمد لان النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد ، ثم جعل في مقابلة دخول الناس في الدين الاستغفار وهو المراد من قوله ( واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ) أى كثرة الاتباع بما يشغل

القلب بلذة الجاه والقبول ، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك ، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر ( الوجه الثاني ) أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء في قوله ( يا أيها الكافرون ) كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخسونة فقال ( لكم دينكم ولي دين ) فقليل يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك ( إذا جاء نصر الله ) نظيره « زويت لى الأرض » يعنى لا تذهب إلى الأرض بل تجمى الأرض إليك ، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة ، فثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين ( سبحان الذى أسرى بعبده ) بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم أمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقى الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه ( وأزلفت الجنة للمتقين ) ( الوجه الثالث ) كأنه سبحانه قال يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال الرحيل الرحيل أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال ، فاستغفره أيها الإنسان لا تحزن من جوع الربيع فمقبيه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فمقبيه وحشة الشتاء ، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه :

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

إلهى لم فعلت كذلك قال حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبدا على جناح الارتحال والسفر ( الوجه الرابع ) لما قال فى آخر السورة المتقدمة ( لكم دينكم ولي دين ) فكأنه قال إلهى وما جزأتى فقال نصر الله فيقول وما جزاء عمى حين دعانى إلى عبادة الأصنام فقال ( تب يدا أبى لهب ) فإن قيل فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا لوجوه ( أحدها ) لأن رحمته سبقت غضبه ( والثانى ) ليسكن الجنس متصلا بالجنس فإنه قال ( ولي دين ) وهو النصر كقوله ( يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين أسودت وجوههم ) ، ( وثالثها ) الوفاء بالوعد أهم فى الكرم من الوفاء بالانتقام ، فتأمل فى هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره ( الوجه الخامس ) أن فى السورة المتقدمة لم يذكر شيئا من أسماء الله ، بل قال ما أعبد بلفظ ما ، كأنه قال لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفروا فتزداد عقوبتهم ، وفى هذه السورة ذكر أعظم أسمائه لأنها منزلة على الاحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكأنه سبحانه قال لا تذكر اسمى مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الأولياء حتى يكرموه ( الوجه السادس ) قال النحويون إذا منصوب بسبح ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله ، كأنه سبحانه يقول جعلت الوقت ظرفا لما تریده وهو النصر والفتح والظفر . وملا ذلك الطرف من هذه

الاشياء ، وبعثته إليك فلا ترده على فارغاً ، بل املاءه من العبودية ليتحقق معنى « تهادوا تحابوا » فكان محمداً عليه السلام قال : بأى شيء املاً ظرف هديتك وأنا فقير ، فيقول الله في المعنى : إن لم تجد شيئاً آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فلما فعل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك حصل معنى تهادوا ، لا جرم حصلت المحبة ، فلهذا كان محمد حبيب الله (الوجه السابع) كأنه تعالى يقول : إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس في دينك ، فاشتغل أنت أيضاً بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فإني قلت «لئن شكرتم لأزيدنكم» فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة ، ولا تزال تكون في الترقى حتى يصير الوعد بقولي ( إنا أعطيناك الكوثر ) (الوجه الثامن) أن الإيمان إنما يتم بأمرين : بالنفي والإثبات وبالبراءة والولاية ، فالنفي والبراءة قوله ( لا أعبد ما تعبدون ) والإثبات والولاية قوله ( إذا جاء نصر الله ) فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة .

واعلم أن في الآية أسراراً ، وإنما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب .

( السؤال الأول ) ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً ، وظاهر أن النصر كالسبب الفتح ، فلهذا بدأ يذكر النصر وعطف الفتح عليه (وثانيها) يحتمل أن يقال النصر كإل الدين ، والفتح الإقبال الديني الذي هو تمام النعمة ، ونظير هذه الآية قوله ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ) ( وثالثها ) النصر هو الظفر في الدنيا على المنى ، والفتح بالجنة ، كما قال ( وفتحت أبوابها ) وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب .

( السؤال الثاني ) أن رسول الله ﷺ كان أبداً منصوراً بالدلائل والمعجزات ، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ (الجواب) من وجهين (أحدهما) المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع ، وإنما جعل لفظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر المخصوص ، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم ، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى ( وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ) ، ( وثانيهما ) نعمل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذي حكم به لآنبيائه كقوله ( إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ) .

( السؤال الثالث ) النصر لا يكون إلا من الله ، قال تعالى ( وما النصر إلا من عند الله ) فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله ( نصر الله ) ؟ (الجواب) معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله أولاً يليق إلا بحكمته ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا ، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم ( متى نصر الله ) فيقول هذا الذي سألتهموه .

(السؤال الرابع) وصف النصر بالمجىء مجاز وحقيقته إذا وقع نصر الله فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز؟ الجواب فيه إشارات: (إحداها) أن الأمور مزبونة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتها مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر وإليه الإشارة بقوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، (وثانيها) أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقاً له بحكم الوعد فالمقتضى كان موجوداً إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكأن كالثقل المعلق فان ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقل يكون كالمشتاق إلى الهوى ، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) أن عالم العدم عالم لا نهاية له وهو عالم الظلمات إلا أن في قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده ، ثم انشعبت بحار الجود والانوار وأخذت في السيلان ، وسيلانها يقتضى في كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين فيبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة في السيلان من الأزل فكأنه قيل يا محمد قرب ووصولها إليك ومجيئها إليك فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها ، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله ( بسم الله مجراها ومرساها ) .

(السؤال الخامس) لاشك أن الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والانصار ، ثم إنه سمي نصرتهم لرسول الله ( نصر الله ) فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافاً إلى الله؟ (الجواب) هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر ، وذلك لأن فعلهم فعل الله ، وتقديره أن أفعالهم مسندة إلى ما في قلوبهم من الدواعي والصوارف ، وتلك الدواعي والصوارف أمور حادثة فلا بد لها من محدث وليس هو العبد ، وإلا لزم التسلسل ، فلا بد وأن يكون الله تعالى ، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى ، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد . فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى ، فإن قيل فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد مفرعاً على فعل الله تعالى ، وهذا يخالف النص ، لأنه قال ( إن تنصروا الله ينصركم ) فجعل نصرنا له مقدماً على نصره لنا (والجواب) أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل ، فيصير ذلك سبباً لصدور فعل عنا ، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب ، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية .

(السؤال السادس) كلمة (إذا) للاستقبال ، فههنا لما ذكر وعداً مستقبلاً بالنصر ، قال ( إذا جاء نصر الله ) فذكر ذاته باسم الله ، ولما ذكر النصر الماضي حين قال ( ولئن جاء نصر من ربك



## وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

ليقولن ) فذكره بلفظ الرّب ، فما السبب في ذلك ؟ ( الجواب ) لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار رباً ، وقبله ما كان رباً لكن كان إلهاً .

( السؤال السابع ) أنه تعالى قال ( إن تنصروا الله ينصركم ) وإن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال ( يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ) فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله ، فلا جرم قال ( إذا جاء نصر الله ) فهل تقول بأن هذا النصر كان واجباً عليه ؟ ( الجواب ) أن ما ليس بواجب قد يصير واجباً بالوعد ، ولهذا قيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، كيف ويجب على الوالد نصره ولده ، وعلى المولى نصره عبده ، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحداً اتفاقاً ، وإن كان مشغولاً بصلاة نفسه ، ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى فوعده مع الكريم وهو أرف بعبدته من الوالد بولده والمولى بعبدته وهو ولي بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة ، وقيام للتدبير وواحد فرد لا ثاني له فوجب عليه وجوب الكريم نصره عبده ، فلهذا قال ( إذا جاء نصر الله ) .

قوله تعالى : ﴿ والفتح ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذي يقال له فتح الفتوح روى أنه لما كان صاح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة وكانوا في عهد رسول الله ﷺ فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه ، ثم قال أما إن هذا العارض ليخبرني أن الظفر يجيء من الله ، ثم قال لأصحابه انظروا فإن أبا سفيان يجيء ويلتمس أن يجدد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكبر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك ورجع إلى مكة آيساً وتجهز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكة ، ثم روى أن سارة مولاة بعض بني هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها جئت مسلة ؟ قالت لا لكن كنتم الموالي وبني حاجة ، فحث عليها رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتاباً إلى مكة نسخته : اعلوا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وعمراً في جماعة وأمرهم أن يأخذوا الكتاب وإلا فاضربوا عنقها ، فلما أدركوها جحدت وحلفت فسل على عليه السلام سيفه ، وقال الله ما كذبنا فأخرجته من عقبة شعرها ، واستحضر النبي حاطباً وقال ما حملك عليه ؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، لكن كنت غريباً في قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحملون أهاليهم فخشيت على أهلي فأردت أن أنخذ عنهم يداً ، فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق

فقال وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ، ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران ، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال أبو سفيان ، إما أن تأذن لي وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعاً وعطشاً فرق قلبه ، فأذن له وقال له : ألم يأن أن تسلم وتوحد ؟ فقال أظن أنه واحد ، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا ، فقال : ألم يأن أن تعرف أني رسوله ؟ فقال إن لي شكاً في ذلك ، فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر ، فقال : وماذا أصنع بالعزى ، فقال عمر لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك ، فقال : يا محمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصلح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك ، و [ لا ] تعرضهم للشن والغارة ، فقال عليه السلام : هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي ، وأهل مكة أخرجوني وظلموني ، فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم ، وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتبية تمر عليه ، فيقول من هذا ؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتبية الخضراء التي لا يرى منها إلا الحدق ، فسأل عنهم ، فقال العباس : هذا رسول الله ، فقال أوتى ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال العباس : هو النبوة ، فقال هيئات النبوة ، ثم تقدم ودخل مكة ، وقال إن محمداً جاء بعسكر لا بطيئة أحد ، فصاحت هند وقالت : اقتلوا هذا المبشر ، وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه ، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعاً شديداً وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً ، ثم التمس أبو سفيان الأمان ، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقال : ومن تسع داري ، فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن فقال : ومن يسع المسجد ، فقال : من أتى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم وقف رسول الله ﷺ على باب المسجد ، وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ما ترون إنى فاعل بكم ، فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء فاعتقهم ، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لمعاوية أنى يسترى المولى والمعتمق يعنى اعتقناكم حين مكنتنا الله من رقابكم ولم يقل اذهبوا فأنتم معتقون ، بل قال : الطلقاء ، لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق ، والمطلقة يجوز تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر ، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان ، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء ، والمطلقة تجلس في البيت للعدة ، وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ، ثم إن القوم بايهرار رسول الله ﷺ على الإسلام ، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجا ، روى أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات : أربعة صلاة الضحى ، وأربعة أخرى شكراً لله نافلة ، فهذا هو

## وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١﴾

قصة فتح مكة ، والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة ، وبما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر . وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر ، والفتح دون النصر كاجلاء بني النضير ، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم ، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح ، وصار الخلق له كالآرقاء حتى اعتقهم ( القول الثاني ) أن المراد فتح خيبر ، وكان ذلك على يد علي عليه السلام ، والقصة مشهورة ، روى أنه أستصحب خالد بن الوليد ، وكان يساميه في الشجاعة ، فلما نصب السلم قال لخالد : أتقدم ؟ قال لا ، فلما تقدم علي عليه السلام سأله كم صعدت ؟ فقال لا أدري لشدة الخوف ، وروى أنه قال لعلي عليه السلام ألا تصارعني ، فقال ألت صرعتك ؟ فقال نعم لكن ذاك قبل إسلامي ، ولعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يمتنع عنه علي ، أو كان علي يقول صرعتك حين كنت كافراً ، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعتك ( القول الثالث ) أنه فتح الطائف وقصته طويلة ( والقول الرابع ) المراد النصر على الكفار ، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق ، وهو قوله أبي مسلم ( والقول الخامس ) أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم ، ومنه قوله ( وقل رب زدني علماً ) لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوفاً بانسراح الصدر وصفاء القلب ، وذلك هو المراد من قوله ( إذا جاء نصر الله ) ويمكن أن يكون المراد بنصر الله اعانته على الطاعات والخيرات ، والفتح هو ارتفاع عالم المعقولات والروحانيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان (أحدهما) أن فتح مكة كان سنة ثمان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، ولذلك سميت سورة التوديع ( والقول الثاني ) أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى ( إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) وقوله ( إذا جاء نصر الله والفتح ) يقتضي الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء وإذا وقع ، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ، والإخبار عن الغيب معجز ( فإن قيل ) لم ذكر النصر مضافاً إلى الله تعالى ، وذكر الفتح بالآلف واللام ؟ ( الجواب ) الآلف واللام للبهود السابق ، فينصرف إلى فتح مكة .

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ رأيت يحتمل أن يكون معناه أبصرت ، وأن يكون معناه علمت ، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون في محل النصب على الحال ، والتقدير : ورأيت الناس حال دخولهم

في دين الله أفواجاً ، وإن كان معناه علمت كان يدخلون في دين الله مفعولاً ثانياً لعلمت ، والتقدير : علمت الناس داخليين في دين الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر لفظ الناس للعموم ، فيقتضى أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك ( الجواب ) من وجهين ( الأول ) أن المقصود من الإنسانية والعقل ، إنما هو الدين والطاعة ، على ما قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) فمن أعرض عن الدين الحق وبقي على الكفر ، فكأنه ليس بإنسان ، وهذا المعنى هو المراد من قوله ( أولئك كالأنعام بل هم أضل ) وقال ( آمنوا كما آمن الناس ) وسئل الحسن بن علي عليه السلام . من الناس ؟ فقال نحن الناس ، وأشياعنا أشباه الناس ، وأعداؤنا النسناس ، فقبله على عليه السلام بين عينيه ، وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن قيل إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير ، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم ؟ فلنا هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله ، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره ، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه ، ويمدحه هذا المدح العظيم ، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان : أنتيت وإن كنت قد أنتيت . ويروى أنه عليه السلام قال « لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد ، والظالم الوارء » والمعنى كان الرب تعالى يقول ربيته سبعين سنة ، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار ، فينثند يضيع إحسانى إليه في سبعين سنة ، فكلمها كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولا ( الوجه الثاني ) في الجواب ، روى أن المراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت هذه السورة ، قال رسول الله ﷺ « الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقهاء يمان والحكمة يمانية ، وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمون إن إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية ، قالوا إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المثل على محمد عليه السلام ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً لما ذكره في هذا المعرض . ثم انا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية والمكان والحيز ولا إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري ، فعلينا أن إيمان المقلد صحيح ، ولا يقال إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالماً بهذه التفاصيل ، لأننا نقول إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركباً من عشر مقدمات ، فمن علم تسعة

منها ، وكان في المقدمة العاشرة مقلداً كان في النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عائناً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحالة كون غيره أعرف منه بذلك الدليل ، لأن تلك الزيادة إن كانت جزءاً معتبراً في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل ، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة ، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية ، وإن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمراً منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول ، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة والنقصان ، فأما أن يقال إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة ، وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك . فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين ، وبما يؤكد ما ذكرنا ماروى عن الحسن أنه قال لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم وجب إن يكون على الحق ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال ، هذا مارواه الحسن ، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد ، فعلينا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دين الله هو الإسلام لقوله تعالى ( إن الدين عند الله الإسلام ) ولقوله ( ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ) وللدين أسماء أخرى ، منها الإيمان قال الله تعالى ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) ومنها الصراط قال تعالى ( صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ) ومنها كلمة الله ، ومنها النور ( ليظفروا نور الله ) ومنها الهدى لقوله ( يهدي به من يشاء ) ومنها العروة ( فقد استمسك بالعروة الوثقى ) ومنها الحبل ( واعتصموا بحبل الله ) ومنها صبغة الله ، وفطرة الله ، وإنما قال ( في دين الله ) ولم يقل في دين الرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين ( الأول ) أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول ( والثاني ) لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه ربك ، وأحسن إليك وحينئذ تكن طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلا يكون الإخلاص حاصلًا ، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين وإثنين ، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له ما يبكيك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً » نعوذ بالله من السلب بعد العطاء .

## فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ، ولهذا الترتيب فوائد :

﴿ القائدة الأولى ﴾ اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمداً كان على الحق مما يتقرب على القلب ويقع في القلب أنى إذا كنت على الحق فلم لاتصرفي ولم سلطت هؤلاء الكفرة على فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح ، أما عل قولنا فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما تفعله فإيما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء فقائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئاً ، وأما على قول المعتزلة ما فائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي فينتد يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر ، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه ( الوجه الثاني ) أن للسائرين طريقين فمنهم من قال مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده ، ومنهم من قال مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، ولا شك أن هذا الطريق أكمل ، أما بحسب المعالم الحكيمية ، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر ، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود ، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة ، ولأن الاستدلال بالأصل على التسبيح يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل ، وإذا ثبت هذا فنقول : الآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين وذلك لأنه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخالق أمرين ( أحدهما ) التسبيح ( والثاني ) التحميد ، ثم ذكر في المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة مزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق .

واعلم أن صفات الحق محصورة في السلب والإيجاب والنفي والإثبات والسلوب مقدمة على الإيجابات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لو اوجب الوجود وهي صفات الجلال ، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له ، وهي صفات الإكرام ، ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام ، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس ، وفيه رؤية جود الحق ، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس ، ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروماً عن مطالعة حضرة جلال الله ، فهذه الدقيقة أحر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد ( الوجه الثالث ) أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكوتية ، وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل

متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم ( ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) فقوله ههنا ( فسبح بحمد ربك ) إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم ( ونحن نسبح بحمدك ) وقوله ههنا ( واستغفره ) إشارة إلى قوله تعالى ( ونقدس لك ) لأنهم فسروا قوله ( ونقدس لك ) أي نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك والاستغفار يرجع معناه أيضاً إلى تقديس النفس ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدى ورأوا ذلك من أنفسهم ، وأما أنت فسبح بحمدى واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيق وإحسانى ، ويحتمل أن يقال الملائكة كما قالوا في حق أنفسهم ( ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) قال الله في حقهم ( ويستغفرون للذين آمنوا ) فانت يا محمد استغفر للذين جاؤا أفواجا كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون ( ربنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ) (الوجه الرابع) التسييح هو التطهير ، فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام وكسرها ثم قال ( بحمد ربك ) أن ينبغي أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك ، وإعانتة وتقويته ، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغي أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللاتقة به ، بل يجب أن ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة ، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته ( والوجه الخامس ) كأنه تعالى يقول يا محمد إما أن تكون معصوماً أو لم تكن معصوماً فإن كنت معصوما فاشتغل بالتسييح والتحميد ، وإن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف في العبودية كما قال ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المراد من التسييح وجهان ( الأول ) أنه ذكر الله بالتنزه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال تنزيه الله عن كل سوء وأصله من سبح فإن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتبديد لأنك تسبحه أى تبعده عما لا يجوز عليه ، وإنما حسن استعماله في تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات والفعل نفياً وإثباتاً لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لا يقبل ما لا ينبغي البتة فاللفظ يفيد التنزيه في الذات والصفات والأفعال ( والقول الثانى ) أن المراد بالتسييح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى ( فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ) وقال ( فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ) والذي يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل ، وكان عليه السلام في آخر مرضه يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » جعل يلجلجها في صدره وما يقبض بها لسانه ، ثم قال بعضهم : عنى به صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات ، وقال آخرون هى صلاة الضحى ، وقال آخرون : صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة الضحى وتسمية الصلاة بالتسييح لما أنها لا تفك عنه ( وفيه تنبيه ) على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص فى الأفعال والأفعال ، واحتج

أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك ، روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك ، وقالت أيضاً كان الرسول يقول كثيراً في ركوعه سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي وعنها أيضاً كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان الله وبحمده فقلت يا رسول الله إنك تكثر من قوله سبحان الله وبحمده قال إني أمرت بها ، وقرأ ( إذا جاء نصر الله ) وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور » وروى أنه قال « إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافياً في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ، ولم لا يكون كذلك وقوله « الصوم لي » من أعظم الفضائل للصوم فانه أضافه إلى ذاته ، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم في هذا التشریف ( وأن المساجد لله ) فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير ، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال ( ولذكر الله أكبر ) وكيف لا يكون كذلك ، والثناء عليه بما مدحه معلوم عقلاً وشرعاً أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير . فإن قيل عدم وجوب التسبيحات يقتضى أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة . فلنا الجواب عنه من وجوه : ( أحدها ) أن سائر أفعال الصلاة بما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح والتهليل فالعقل داع إليه والروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعي ولذلك قال ( والذين آمنوا أشد حبا لله ) ، ( وثانيها ) أن قوله ( فسيح ) أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء ، ومن قال الأمر المطلق للندب قال إنه ههنا للوجوب بقريته أنه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق العطف التشرية بين والمعطوف والمعطوف عليه ( وثالثها ) أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهاراً لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما الحمد فقد تقدم تفسيره ، وأما تفسير قوله ( فسيح بحمد ربك ) فقد كروا فيه وجوهاً : ( أحدها ) قال صاحب الكشاف أى قل ( سبحان الله والحمد لله ) متعجباً بما أراك من عجيب انعامه أى اجمع بينهما تقول شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خلطاً وشرباً ( وثانيها ) أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد لأن الثناء عليه والشكر له لا بد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال الحمد لله الذى نصر عبده ، ولم يفتح كلامه بالتسبيح فقوله ( فسيح بحمد ربك ) معناه سبحه بواسطة أن تحمده أى سبحه بهذا الطريق ( وثالثها )



أن يكون حالاً ، ومعناه سبح حامداً كقولك اخرج بسلاحك أى متسلحاً ( ورابعها ) يجوز أن يكون معناه سبح مقدراً أن تحمد بعد التسييح كأنه يقول لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوى الصلاة مقدراً أن تنجر بعدها ، فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة كذا ههنا ( وخامسها ) أن تكون هذه الباء هي التي في قولك : فعلت هذا بفضل الله ، أى سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه ، لا بحمد غيره ، ونظيره في حديث الإفك قول عائشة « بحمد الله لا بحمدك » والمعنى : فسبحه بحمده ، فإنه الذي هداك دون غيره ، ولذلك روى أنه عليه السلام كان يقول « الحمد لله على الحمد لله » ( وسادسها ) روى السدى بحمد ربك ، أى بأمر ربك ( وسابعها ) أن تكون الباء صلة زائدة ، ويكون التقدير : سبح حمد ربك ، ثم فيه احتمالات ( أحدها ) اختر له أظهر المحامد وأزكاها ( والثاني ) ظهر محامد ربك عن الرياء والسمعة ، والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة ( والثالث ) ظهر محامد ربك عن أن تقوله جئت بها كما يليق به . وإليه الإشارة بقوله ( وما قدروا الله حق قدره ) ( وثامنها ) أى أنت بالتسييح بدلا عن الحمد الواجب عليك ، وذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم ، ونعم الله علينا غير متناهية ، فحمدها لا يكون في وسع البشر ، ولذلك قال ( وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) فكانه تعالى يقول : أنت عاجز عن الحمد ، فأنت بالتسييح والتنزيه بدلا عن الحمد ( وناسعها ) فيه إشارة إلى أن التسييح والحمد أمران لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني ، ولا يتصور أيضاً أن يوتي بهما معاً ، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب ، وجب أن يقول : اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع ، كذا قال ( فسبح بحمد ربك ) ليقعا معاً ، فيصير حامداً مسبحاً في وقت واحد معاً ( وعاشرها ) أن يكون المراد سبح قلبك ، أى طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك ، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله ، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك ، فقوله ( فسبح ) إشارة إلى نفي ماسوى الله تعالى ، وقوله ( بحمد ربك ) إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في قوله ( واستغفره ) وجوه ( أحدها ) لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم من آذاه ، ويسأل الله أن ينصره ، فلما سمع ( إذا جاء نصر الله ) استبشر ، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم انتغصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي ﷺ بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام ، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم ؟ ثم ختم بلفظ الثواب كأنه يقول إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التي عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعه منه ، سواء كان المشتري عدواً أو ولياً ، فكذلك الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكيّاً أو مدنياً ، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم

( لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ) أى أمرنى أن استغفر لكم فلا يجوز أن يردنى ( وثالثها ) أن قوله ( واستغفره ) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فن قال صدرت المعصية عنه ذكر فى فائدة الاستغفار وجوهاً : ( أحدها ) أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر فى جعل ذنبه صغيرة ( وثانيها ) لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار ( وثالثها ) لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً ، وأما من قال ما صدرت المعصية عنه فذكر فى هذا الاستغفار وجوهاً : ( أحدها ) أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار ( وثانيها ) تعبد الله بذلك ليقضى به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه فى عبادته ، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغنى عن الاستغفار فكيف من دونه ( وثالثها ) أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل ( ورابعها ) أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر الله لأجل ذلك ( وخامسها ) الاستغفار بسبب التقصير الواقع فى السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام فى العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لاجرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية ، أما الاحتمال ( الثانى ) وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر ، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته فى قوله ( واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ) فهنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهكذا إذا قلنا المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الآية إشكال ، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم على التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإذام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغى أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب فى أن صار هكذا كوراً على العكس من هذا الترتيب ؟ ( وجوابه ) من وجوه ( أولها ) أنه ابتداء بالأشرف ، فالأشرف نار لا إلى الأخص فالأخص ، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق ( وثانيها ) فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه ( وثالثها ) التسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق [الله] ، والأول كالصلاة ، والثانى كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة ، فكذلك ههنا .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ، وذلك من وجوه ( أحدها ) أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة

إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواتراً ، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض ( وثانها ) أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة ( وثالثها ) أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر ، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال واستغفره حين نعت نفسه إليه ليفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ في الآية سوالات ( أحدها ) وهو أنه قال ( إنه كان تواباً ) على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل ( وثانها ) هلا قال غفاراً كما قاله في سورة نوح ( وثالثها ) أنه قال ( نصر الله ) وقال ( في دين الله ) فلم لم يقل بحمد الله بل قال ( بحمد ربك ) ( والجواب ) عن الأول من وجوه ( أحدها ) أن هذا أبلغ كأنه يقول ألسنت أنيت عليكم بأنكم ( خير أمة أخرجت للناس ) ثم من كان دونكم كنت أقبّل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفتح البحر وتفتح الجبل ، ونزول المن والسلوى عصوا ربهم . وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً للتوبة من دونكم أفلا أقبّلها منكم ( وثانها ) منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف في كرم الرحمن ( وثالثها ) كنت تواباً قبل أن أمركم بالاستغفار أفلا أقبّل وقد أمرتكم بالاستغفار ( ورابعها ) كأنه إشارة إلى تخفيف جناباتهم أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفي ، والجنابة مصيبة للجاني والمصيبة إذا عمدت خفت ( وخامسها ) كأنه نظير ما يقال : لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

( والجواب ) عن السؤال الثاني من وجوه ( أحدها ) لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار ، ويقال تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالى كنت لي سميّاً من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى مختلفاً فقب حتى تصير سميّاً لي آخر الأمر ، فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب في حق الله ، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً ( وثانها ) إنما قيل تواباً لأن القائل قد يقول استغفر الله وليس بتائب ، ومنه قوله « المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستزى . بربه » إن قيل فقدي يقول أتوب ، وليس بتائب ، قلنا فإذا يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه ، فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمال ، وروى أنه لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار ( والجواب ) عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين ( أحدهما ) الرب ( والثاني ) التواب ، ولما كانت التوبة تحصل أولاً والتوايبية آخرها ، لاجرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخرها .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعى لرسول الله ﷺ روى أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال نعت إليك نفسك فقال الأمر كما تقول ، وقيل إن ابن عباس هو الذي قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً » روى أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبدالرحمن أتأذن لهذا الفتى معنا ، وفي أبنائنا من هو مثله ؟ فقال لأنه ممن قد علمتم قال ابن عباس فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله ( إذا جاء نصر الله ) وكأنه مأسأ لهم إلا من أجلى فقال بعضهم أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت ليس كذلك ولكن نعت إليه نفسه فقال عمر ما أعلم منها إلا مثل ماتلم ، ثم قال كيف تلومونني عليه بعد ماترون ، وروى أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختر لقاء الله » فقال السائل وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى ؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) قال بعضهم إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير ( وثانيها ) أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يعقبه الزوال كما قيل :

إذا تم شيء دنا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

( وثالثها ) أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز ( ورابعها ) قوله ( واستغفره ) تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر ، ونبه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة ( وخامسها ) كأنه قيل له كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته ، وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله تعالى وعدك بقوله « والآخرة خير لك من الأولى » فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة . وأما الذين قالوا إنها نزلت بعد فتح مكة ، فذكر الماوردي أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة لإلاستين يوماً مستديماً للتسبيح والاستغفار ، وقال مقاتل عاش بعدها حولاً ونزل ( اليوم أكملت لكم دينكم ) فعاش بعده ثمانين يوماً ثم نزل آية الكلاله ، فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ثم نزل ( واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ) فعاش بعدها أحد عشر يوماً وفي رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم كيف كان ذلك .

### (١١١) سُورَةُ الْمَسَدِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا خَمْسُونَ

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعلم أنه تعالى قال ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) ثم بين في سورة ( قل يا أيها الكافرون ) أن محمداً عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفي عبادة الشركاء والأضداد وان الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد ، فكأنه قيل : إلهنا ما ثواب المطيع ، وما عقاب العاصي ؟ فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستيلاء في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى ، كما دل عليه سورة ( إذا جاء نصر الله ) وأما عقاب العاصي فهو الخسار في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى ، كما دلت عليه سورة ( تبت ) ونظيره قوله تعالى في آخر سورة الانعام ( وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات ) فكأنه قيل : إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز ، فما السبب في هذا التفاوت ؟ فقال ( ليلوكم فيما آتاكم ) فكأنه قيل : إلهنا فإذا كان العبد مذنباً عاصياً فكيف حاله ؟ فقال في الجواب ( إن ربك سريع العقاب ) وإن كان مطيعاً منقاداً كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفوراً لسيئاته في الدنيا رحيماً كريماً في الآخرة ، وذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوهاً ( أحدها ) قال ابن عباس كان رسول الله يكتف أمره في أول المبعث ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى ( وأنذر عشيرتكم الأقرين ) فصعد الصفا ونادى يا آل غالب نخرجت إليه غالب من المسجد فقال أبو لهب هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى يا آل لؤي فرجع من لم يكن من لؤي فقال أبو لهب هذه لؤي قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة ، فقال أبو لهب هذه مرة قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال يا آل كلاب ، ثم قال بعده يا آل قصي ، فقال أبو لهب هذه قصي قد أتتك فما عندك ؟ فقال إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين وأنتم الأقرين ، اعلوا أني لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال أبو لهب عند ذلك تبأ لك ألهذا دعوتنا ، فنزلت السورة ( وثانيها ) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ قال أرايتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني ؟ قالوا بلى قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال عند ذلك أبو لهب ما قال فنزلت السورة ( وثالثها ) أنه جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً في صحفة فاستحقروه وقالوا إن أحدنا يأكل كل الشاة ، فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلا اليسير ، ثم قالوا فما عندك ؟ فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو لهب ما قال ، وروى أنه قال أبو لهب فإني إن أسلمت فقال ما للسلبيين ، فقال أفلا أفضل عليهم ؟ فقال

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

النبي عليه الصلاة والسلام بماذا تفضل ! فقال تبا لهذا الدين يستوى فيه أنا وغيري ( ورابعها ) كان إذا وفد على النبي وفد سألوا عمه عنه وقالوا أنت أعلم به فيقول لهم إنه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا نتصرف حتى نراه فقال إننا لم نزل نعالجه من الجنون فتبأ له وتعسا ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فحزن ونزلت السورة .

قوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ اعلم أن قوله ( تبت ) فيه أقاويل ( أحدها ) التباب الهلاك ، ومنه قولهم شابة أم تابة أى هالكة من الهرم ، ونظيره قوله تعالى ( وما كيد فرعون إلا في تباب ) أى فى هلاك ، والذي يقرر ذلك أن الأعرابي لما واقع أهله فى نهار رمضان قال : هلكت وأهلك ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك ، فدل على أنه كان صادقا فى ذلك ، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلا فى الإيمان ، أو إن كان داخلا لكنه أضف أجزاءه ، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك ، ففى حق أبى لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل ، وحصل وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك ، فلهذا قال ( تبت ) ( وثانيها ) تبت خسرت ، والتباب هو الخسران المفضى إلى الهلاك ، ومنه قوله تعالى ( وما زادهم غير تتيب ) أى تخسير بدليل أنه قال فى موضع آخر غير تخسير ( وثالثها ) تبت خابت ، قال ابن عباس لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله إنه ساحر ، فيصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كلاب فكان لا يهتم ، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهما فلم يقبل قوله فى الرسول بعد ذلك ، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه ، فيقول انصرف راشداً فإنه مجنون ، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع ( ورابعها ) عن عطاء تبت أى غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هى العليا وأنه يخرج من مكة ويذله ويغلب عليه ( وخامسها ) عن ابن وثاب : صفرت يداه على كل خير ، وإن قيل ما فائدة ذكر اليد ؟ قلنا فيه وجوه ( أحدها ) ما يرى أنه أخذ حجراً ليرمى به رسول الله ، روى عن طارق المخزومي أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله فتلجوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقيقه ،

## وَتَبَّ

لا تطيعوه فإنه كذاب ، فقلت من هذا ، فقالوا : محمد وعمه أبو لهب ( وثانها ) المراد من اليدين الجملة كقوله تعالى ( ذلك بما قدمت يداك ) ومنه قولهم : يداك أو كتا ، وقوله تعالى ( بما عملت أيدينا ) وهذا التأويل متأكد بقوله ( وتب ) ( وثانها ) ثبت يده أي دينه ودينه أولاه وعقباه ، أو لأن ياحدى اليدين تجر المنفعة ، وبالآخرى تدفع المضرة ، أو لأن النبي سلاح والآخرى جنة ( ورابعها ) روى أنه عليه السلام لما دعاه نهاراً فأنى ، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستنابسة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له جئتني معتذراً فجلس النبي عليه السلام أمامه كالاحتاج ، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : إن كان يمنعك العار فأجبن في هذا الوقت واسكت ، فقال لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدى ، فقال عليه الصلاة والسلام للجدى : من أنا ؟ فقال رسول الله . وأطلق لسانه يثنى عليه ، فاستولى الحسد على أبي لهب ، فأخذ يدي الجدى ومزقه وقال : تباً لك أثر فيك السحر ، فقال الجدى : بل تباً لك ، فنزلت السورة على وفق ذلك ( ثبت يدا أبي لهب ) لتمر يقه يدي الجدى ( وخامسها ) قال محمد بن إسحق : يروى أن أبالهب كان يقول : يعدني محمد أشباه ، لا أرى أنها كائنة يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع في يدي من ذلك شيئاً ، ثم ينفخ في يديه ويقول : تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فنزلت السورة .

أما قوله تعالى ﴿ وتب ﴾ ففيه وجوه ( أحدها ) أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله ( قتل الإنسان ما أ كفره ) والثاني مخرج الخبر أي كان ذلك وحصل ، وبؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب ( وثانها ) كل واحد منهما لإخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله ، وبالثاني هلاك نفسه ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله ، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين ( وثانها ) ( ثبت يدا أبي لهب ) يعنى ماله ومنه يقال ذات اليد ( وتب ) هو بنفسه كما يقال ( خسروا أنفسهم وأهلهم ) وهو قول أبي مسلم ( ورابعها ) ( ثبت يدا أبي لهب ) يعنى نفسه ( وتب ) يعنى ولده عتبة على ما روى أن عتبة بن أبي لهب خرج إلى الشام مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم عتبة بلغوا محمدأ عنى أنى قد كفرت بالنجم إذا هوى ، وروى أنه قال ذلك في وجه رسول الله وتفل في وجهه ، وكان مبالعاً في عداوته ، فقال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فوقع الرعب في قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالي فلما كان قريباً من الصبح ، فقال له أصحابه هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتى اقتربه ومزقه ، فإن قيل نزول هذه السورة كان قبل هذه الواقعة ، وقوله ( وتب ) لإخبار عن الماضى ، فكيف يحمل عليه ؟ قلنا لأنه كان في معلومه تعالى أنه محصل ذلك

( وخامساً ) ( تبث يدا أبي لهب ) حيث لم يعرف حق ربه ( وتب ) حيث لم يعرف حق رسوله وفي الآية سؤالات :

( السؤال الاول ) لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتكنية من باب التعظيم ؟ ( والجواب ) عن الاول أن التكنية قد تكون اسماً ، ويؤيده قراءة من قرأ تبث يدا أبو لهب كما يقال علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كناههم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه ( أحدها ) أنه لما كان اسماً خرج عن إفادة التعظيم ( والثاني ) أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته ( والثالث ) أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير ( الرابع ) كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكماً به واحتقاراً له .

( السؤال الثاني ) أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبي الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق ، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له ( لأرجمنك واهجرني ملياً ) قال ( سلام عليك سأستغفر لك ربي ) وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون ( فقولا له قولاً ليناً ) مع أن جرم فرعون كان أعظم من جرم أبي لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصاً ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره ( والجواب ) من وجوه ( أحدها ) أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ما كانوا يتمونه ، لأنه كان كالأب له ، فصار ذلك كالمنايع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة متهماً في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك ( وثانيها ) أن الحكمة في ذلك ، أن محمداً لو كان يدهن أحداً في الدين ويسامحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه ، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الاطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحداً في شيء يتعلق بالدين أصلاً ( وثالثها ) أن الوجه الذي ذكرتم كالمعارض ، فإن كونه عمّاً يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه ، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم .

( السؤال الثالث ) ما السبب في أنه لم يقل قل ( تبث يدا أبي لهب وتب ) وقال ، في سورة الكافرون ( قل يا أيها الكافرون ) ؟ ( الجواب ) من وجوه ( الاول ) لأن قرابة العمومة تقتضي



## مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢٧﴾

رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماماً له (الثاني) أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى يا محمد أجب عنهم (قل يا أيها الكافرون) وفي هذه السورة طعنوا في محمد ، فقال الله تعالى أسكت أنت فإني أشتمهم (تبت يدا أبي لهب) (الثالث) لما شتموك ، فأسكت حتى تندرج تحت هذه الآية (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وإذا سكّت أنت أكون أنا المجيب عنك ، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكناً ، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره ، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكّت الرسول ، فقال أبو بكر : ما السبب في ذلك ؟ قال : لأنك حين كنت ساكناً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان .

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذاباً عنه وناصرآ له ومعيناً ﴿السؤال الرابع﴾ ما الوجه في قراءة عبدالله بن كثير المكي حيث كان يقرأ (أبي لهب) ساكناً الهاء؟ (الجواب) قال أبو علي يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر ، وأجمعوا في قوله (سيصلى ناراً ذات لهب) على فتح الهاء ، وكذا قوله (ولا يغنى من الذهب) وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان ، وقال غيره إنما انفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوافق الفواصل . قوله تعالى : ﴿ ما اغنى عنه ماله وما كسب ﴾ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما في قوله (ما اغنى) يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفيًا ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أى تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحداً كثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه ، ولا أعظم ملكاً من سليمان فهل دفع الموت عنه ، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخباراً بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك .

﴿المسألة الثانية﴾ ما كسب مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعنى مكسوبه أو كسبه ، يروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وأولادى ، فأرسل الله تعالى هذه الآية ، ثم ذكروا في المعنى وجوهاً : (أحدها) لم يتفعه ماله وما كسب بماله يعنى رأس المال والأرباح (وثانيها) أن المال هو المشاشية وما كسب من نسلها ، وتناجها ، فإنه كان صاحب النعم والتناج (وثالثها) (ماله) الذى ورثه من أبيه والذى كسبه بنفسه (ورابعها) قال ابن عباس (ما كسب) ولده ، والدليل عليه قوله عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » وقال عليه السلام « أنت ومالك لأبيك » وروى أن بنى أبي لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع : فغضب فقال أخرجوا عنى الكسب

## سَيَصَلِّي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

الخبيث ( وخامسها ) قال الضحاك ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعني كيدته في عداوة رسول الله ( وسادسها ) قال قتادة ( وما كسب ) أى عمله الذى ظن أنه منه على شيء كقوله ( وقد منا إلى ما عملوا من عمل ) وفى الآية سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال همنا ( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) وقال فى سورة ( والليل إذا يغشى ) : ( وما يغنى عنه ماله إذا تردى ) فما الفرق ؟ ( الجواب ) التعبير بلفظ الماضى يكون أكد كقوله ( ما أغنى عنى مالى ) وقوله ( أتى أمر الله ) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما أغنى عنه ماله وكسبه فيماذا ؟ ( الجواب ) قال بعضهم فى عداوة الرسول فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم بل لم يغنيا عنه فى دفع النار ولذلك قال ( سيصلى ) .

قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما أخبر تعالى عن حال أبى لهب فى الماضى بالتياب وبأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه ، أخبر عن حاله فى المستقبل بأنه ( سيصلى ناراً ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ( سيصلى ) قرئ بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه ( أحدها ) الإخبار عنه بالتياب والخسار ، وقد كان كذلك ( وثانيها ) الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده ، وقد كان كذلك . روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام دخل بيتنا ، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا ، وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه ، وكان أبو لهب يخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعت مكانه رجلاً آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فى أنفسنا قوة ، وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح ألحياً فى حجرة زمزم ، فكنت جالساً هناك وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جانا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجر رجله ، فجلس على طنب الحجرة وكان ظهرى إلى ظهره ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث ابن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أختى ؟ فقال لقينا القوم ومنحنهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا ، وإيم الله مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة ، ثم قلت أولئك والله الملائكة ، فأخذنى وضربنى على الأرض ، ثم برك على فصربنى وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود فصربته على رأسه وشجته ، وقالت تستضعفه أن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال ، فانصرف ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ،

## وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتى أتتني في بيته ، وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها كما يتقي الناس الطاعون ، وقالوا نخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه ، فهذا معنى قوله ( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) (وثالثها) الإخبار بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أهل السنة على وقوع تكليف ما لا يطاق بأن الله تعالى كلف أباطب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه ، وبما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأنه يؤمن بأنه لا يؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين التقيضين وهو محال . وأجاب الكعبي وأبو الحسين البصري بأنه لو آمن أبو طب لهذا الخبر خبراً بأنه آمن ، لا بأنه ما آمن ، وأجاب القاضي عنه فقال متى قيل لو فعل الله ما أخبر أنه لا يفعله فكيف يكون ؟ لجوابنا أنه لا يصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم .

واعلم أن هذين الجوابين في غاية السقوط ، أما ( الأول ) فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع ، والخبر الصدق عن عدم إيمانه ينافيه وجود الإيمان منافاة ذاتية بمنزلة الزوال فإذا كان كلفه أن يأتي بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين .

وأما الجواب (الثاني) فأرك من الأول لأننا لسنا في طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم ، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقاً ، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية ، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفاً بالجمع بين الضدين ، وهذا الإشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئاً أو بقي ساكناً .

قوله تعالى : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرى . ومرئته بالتصغير وقرى . حمالة الحطب بالنصب على الشتم ، قال صاحب الكشاف وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل وقرى . بالنصب والتنوين والرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمه معاوية ، وكانت في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكروا في تفسير كونها حمالة الحطب وجوهاً : (أحدها) انها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتثرها بالليل في طريق رسول الله ، فإن قيل إنها كانت من بيت العز فكيف يقال إنها حمالة الحطب ؟ قلنا لعلها كانت مع كثرة ما لها خسيصة او كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب ، لأجل ان تلقيه في طريق رسول الله (وثانيها) انها كانت تمشي بالنيمة يقال المشاء بالهائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد بينهم النار ، ويقال للكفار : هو حاطب

ليل ( وثالثها ) قول قتادة أنها كانت تعبر رسول الله بالفقر ، فعبرت بأنها كانت تحتطب ( والرابع ) قول أبي مسلم وسعيد بن جبير أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول ، لأنه كالحطب في تصيرها إلى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشى وعلى ظهره حمل ، قال تعالى ( فقد احتملوا بهتاتاً وإثماً مبيناً ) وقال تعالى ( يحملون أوزارهم على ظهورهم ) وقال تعالى ( وحماها الإنسان ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ امرأته إن رفعتنه ، فقيه وجهان ( أحدهما ) العطف على الضمير في سيصلي ، أي سيصلي هو وامرأته . وفي غيرها في موضع الحال ( والثاني ) الرفع على الإبتداء ، وفي غيرها الخبر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ عن أسماء لما نزلت ( تبت ) جاءت أم جميل ولها ولولة ويدها حجر ، فدخلت المسجد ، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر ، وهي تقول :

مذمماً قلينا ودينه أيننا وحكمه عصينا .

فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك ، فقال عليه السلام « إنها لا تراني ، وقرأ ) وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججاً مستوراً ) وقالت لآبي بكر : قد ذكر لي أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فولت وهي تقول :  
قد علمت قريش أني بنت سيدها  
وفي هذه الحكاية أبحاث :

( الأول ) كيف جاز في أم جميل أن لا ترى الرسول ، وترى أبا بكر والمكان واحد ؟ ( الجواب ) أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل ، لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزاً لا واجباً ، فإن خلق الله الإدراك رأى وإلا فلا ، وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوها ( أحدها ) لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاها ظهره ، ثم لأنها كانت لغاية غضبها لم تفتش ، أو لأن الله ألقى في قلبها خوفاً ، فصار ذلك صارفاً لها عن النظر ( وثانيها ) لعل الله تعالى ألقى شبه إنسان آخر على الرسول ، كما فعل ذلك بعيسى ( وثالثها ) لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمعت حتى أنها ما رآته .

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثة لازم ، لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشيء حاضر ولا نراه ، وإذا جوزنا ذلك فلم لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات ، ولا نراها ولا نسمعها .

( البحث الثاني ) أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك ، وهذا من باب المعاريض ، لأن القرآن لا يسمى هجراً ، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ، فدلّت هذه الحكاية على جواز المعاريض .

## فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿٥﴾

بقي من مباحث هذه الآية سؤالان :

(السؤال الأول) لم لم يكتف بقوله (وامراته) بل وصفها بأنها حاملة الحطب؟ (الجواب) قيل كان له امرأتان سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له ، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة .

(السؤال الثاني) أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة ، فكيف يليق ذكرها بكلام الله ، ولا سيما امرأة العم؟ (الجواب) لما لم يستبعد في امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين ، فلأن لا يستعبد في امرأة كافرة زوجها رجل كافر أولى .

قوله تعالى : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ قال الواحدي : المسد في كلام العرب القتل ، يقال مسد الحبل يمسه مسداً إذا أجاد قتله ، ورجل بمسود إذا كان مجذول الخلق ، والمسد ما مسد أي قتل من أي شيء كان ، فيقال لما قتل من جلود الإبل ، ومن الليف والخوص مسد . ولما قتل من الحديد أيضاً مسد ، إذا عرفت هذا فنقول ذكر المفسرون وجوهاً (أحدها) في جيدها حبل مما مسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون ، والمقصود بيان خساستها تشبيهاً لها بالخطابات إيذاء لها ولزوجها (وثانيها) أن يكون المعنى أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الرقوم وفي جيدها حبل من سلاسل النار . فإن قيل الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبداً في النار؟ قلنا كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً في النار ، ومنهم من قال ذلك المسد يكون من الحديد ، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد أو من غيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .



(١١٢) سُورَةُ الْاِخْلَاصِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا اذْنَبِيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قل هو الله أحد ﴾ قبل الخوض في التفسير لابد من تقديم فصول :

(الفصل الأول) روى أبي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة قل هو الله أحد ، فكأنما قرأ ثلث القرآن وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وأمن بالله » وقال عليه الصلاة والسلام « من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد » ، وروى « أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذ أقبل أبو ذر الغفاري ، فقال جبريل هذا أبو ذر قد أقبل ، فقال عليه الصلاة والسلام أو تعرفونه ؟ قال هو أشهر عندنا منه عندكم ، فقال عليه الصلاة والسلام بماذا نال هذه الفضيلة ؟ قال لصغره في نفسه وكثرة قراءته قل هو الله أحد » وروى أنس قال « كنا في تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء ومارأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا ، فنزل جبريل وقال إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية ، فهل لك أن تصلي عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو وأصحابه عليه ، ثم قال : بم بلغ مبلغ ؟ فقال جبريل كان يجب سورة الإخلاص » وروى « أنه دخل المسجد فسمع رجلا يدعو ويقول أسألك يا الله يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال غفرلك غفرلك غفرلك ثلاث مرات » وعن سهل بن سعد « جاء رجل إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد ومن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك ، وأقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه » وعن أنس « أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلواته ( قل هو الله أحد ) فسأله الرسول عن ذلك فقال يا رسول الله إنى أحبها ، فقال حبك إياها

يدخلك الجنة » وقيل من قرأها في المنام : أعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله ، وكان مستجاب الدعوة .

(الفصل الثاني) في سبب نزولها وفيه وجوه (الأول) أنها نزلت بسبب سؤال المشركين ، قال الضحاك إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا شققت عصانا وسبيت آلهتنا ، وخالفت دين آباتك ، فإن كنت فقيراً أغنيناك ، وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن هويت امرأة زوجنا كما ، فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأنزل الله هذه السورة ، فقالوا له ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بجوانحنا ، فكيف يقوم الواحد بجوانح الخلق ؟ فنزلت (والصافات) إلى قوله (إن إلهكم لواحد) فأرسلوه أخرى ، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) (الثاني) أنها نزلت بسبب سؤال اليهود روى عكرمة عن ابن عباس ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف ، فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه ، وقال اخفض جناحك يا محمد ، فنزل (قل هو الله أحد) فلما تلاه عليهم قالوا صف لنا ربك كيف عضده ، وكيف ذراعه ؟ فغضب أشد من غضبه الأول ، فأناه جبريل بقوله (وما قدروا الله حق قدره) (الثالث) أنها نزلت بسبب سؤال النصارى ، روى عطاء عن ابن عباس ، قال قدم وفد نجران ، فقالوا صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ فقال إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت (قل هو الله أحد) قالوا هو واحد ، وأنت واحد ، فقال ليس كمثل شيء ، قالوا زدنا من الصفة ، فقال (الله الصمد) فقالوا وما الصمد ؟ فقال الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج ، فقالوا زدنا فنزل (لم يلد) كما ولدت مريم (ولم يولد) كما ولد عيسى (ولم يكن له كفواً أحد) يريد نظيراً من خلقه .

(الفصل الثالث) في أسامها ، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة ، والعرف يشهد لما ذكرناه (فأحدها) سورة التفريد (وثانيها) سورة التجريد (وثالثها) سورة التوحيد (ورابعها) سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال ، ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله ، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار ، ولأن ما قبله خلص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب ( وخامسها) سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا ، وعن النار في الآخرة (وسادسها) سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة (وسابعها) سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك ، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم « يا أخا بني سليم استوص

بنسبة الله خيراً ، وهو من لطيف المباني ، لأنهم لما قالوا انسب لنا ربك ، فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب ، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص ، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها ( وثامنها ) سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة ، روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك ( وتاسعها ) سورة الجلال قال عليه الصلاة والسلام « إن الله جميل يحب الجمال » فسألوه عن ذلك فقال أحد صحبه لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه ( وعاشرها ) سورة المقشقة ، يقال تقشيش المريض مما به ، فمن عرف هذا حصل له البره من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال ( في قلوبهم مرض ) ( الحادى عشر ) المعوذة ، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللذين بعدها ، ثم قال « تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها » ( والثانى عشر ) سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى ( والثالث عشر ) سورة الأساس ، قال عليه الصلاة والسلام « أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد » وبما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله ( تكداد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال ) فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعامة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) ( الرابع عشر ) سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهى من ذخائر كنوز عرشى ، وهى المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران ( الخامس عشر ) سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت ( السادس عشر ) المنفرة لأن الشيطان ينفر عند فرأيتها ( السابع عشر ) البراءة لأنه روى أنه عليه السلام رأى رجلاً يقرأ هذه السورة ، فقال أما هذا فقد برىء من الشرك ، وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة فى صلاة أو فى غيرها كتبت له براءة من النار ( الثامن عشر ) سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقرأة السورة كالوسمة تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه ( التاسع عشر ) سورة النور قال الله تعالى ( الله نور السموات والأرض ) فهو المنور للسموات والأرض ، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام « إن لكل شىء نور ونور القرآن قل هو الله أحد » ونظيره أن نور الإنسان فى أصغر أعضائه وهو الحدقة ، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان ( العشرون ) سورة الأمان قال عليه السلام « إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابي » .

( الفصل الرابع ) فى فضائل هذه السورة وهى من وجوه ( الأول ) اشتهر فى الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن ، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات ، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله ، وهذه السورة مشتملة



على معرفة الذات ، فكانت هذه السورة معادلة لثلاث القرآن ، وأما سورة ( قل يا أيها الكافرون ) فهي معادلة لربع القرآن ، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة ، وسورة ( قل يا أيها الكافرون ) لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب ، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ( قل يا أيها الكافرون ) ، و ( قل هو الله أحد ) في بعض الأسماء فهما المقشقتان والمبرتان ، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى ، إلا أن ( قل يا أيها الكافرون ) يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و ( قل هو الله أحد ) يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ( قل يا أيها الكافرون ) تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله ، و ( قل هو الله أحد ) تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به ( الوجه الثاني ) وهو أن ليلة القدر لكونها صدقاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله ( قل هو الله أحد ) فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة ( الوجه الثالث ) وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه ، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة ، فكانت هذه السورة أعظم السور ، فإن قيل فضفات الله أيضاً مذكورة في سائر السور ، قلنا لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب ، فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل وليرجع الآن إلى التفسير قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك ، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ، ولا كان القبر سجناً على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه ، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريد بها الهوى والعقل ، فصارت جنة مطلقة ، وبيان ما قلنا أن العقل يريد أميناً تودع عنده الحسنات ، والشهوة تريد غنياً يطلب منه المستلذات ، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه ، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غنى ، فإنه ينشط للانتجاع إليه ، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المترتبة ، فلما عرفاه كما أراد عالمياً وغنياً تعلقاً بذيله ، فقال العقل : لا أشكر أحداً سواك ، وقالت الشهوة : لا أسأل أحداً إلا إياك ، ثم جاءت الشهوة فقالت : يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً ؟ وبيا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر ؟ فبقى العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة ، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكأن الحق سبحانه قال : كيف أنقض على عبدى لذة الاشتغال بخدمتي وشكري ، فبعث الله رسوله وقال : لا تقله من عند نفسك ، بل قل هو الذي عرفته صادقاً

الفخر الرازي - ج ٣٢ م ١٢

يقول لى ( قل هو الله أحد ) فعرفك الوجدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل ، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعالم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات ، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل جواز وقوعه ، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معاً ، وهو كالعالم بأنه واحد وبأنه مرتئى إلى غيرهما ، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوجدانية في تفسير قوله تعالى ( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة ( قل يا أيها الكافرون ) من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة ( تبت ) وأما في هذه السورة فقد اختلفوا ، فالقراءة المشهورة ( قل هو الله أحد ) وقرأ أبو وابن مسعود . بغير قل هكذا ( هو الله أحد ) وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ، بدون قل هو هكذا ( الله أحد الله الصمد ) فمن أثبت قل قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره ، بل يحكى كل ما يقال له ، ومن حذفه قال : لا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهاً ( أحدها ) أن هو كتابة عن اسم الله ، فيكون قوله : الله مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ ، ويجوز في قوله ( أحد ) ما يجوز في قولك : زيد أخوك قائم ( الثانى ) أن هو كناية عن الشأن ، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره ، والجملة تكون خبراً عن هو ، والتقدير الشأن والحديث : هو أن الله أحد ، ونظيره قوله ( فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا ) إلا أن هي جاءت على التأنيت ، لأن في التفسير : اسمها مؤنثاً ، وعلى هذا جاء ( فإنها لا تعنى الأبصار ) أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة ، كقوله ( إنه من يأت ربه مجرمًا ) ( والثالث ) قال الزجاج : تقدير هذه الآية أن هذا الذى سألتكم عنه هو الله أحد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في أحد وجهان ( أحدهما ) أنه بمعنى واحد ، قال الخليل : يجوز أن يقال أحد اثنان وأصل أحد وحد لأنه قلبت الواو همزة للاختفيف وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة ، والمكسورة كقولهم وجوده وأجوره وسادة وأسادة ( والقول الثانى ) أن الواحد والاحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهرى : لا يوصف شىء بالأحادية غير الله تعالى لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال : رجل واحد أى فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شىء . ثم ذكروا فى الفرق بين الواحد والاحد وجوهاً ( أحدها ) أن الواحد يدخل فى الأحاد والاحد لا يدخل فيه ( وثانيها ) أنك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحاد . فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان

(ونالها) أن الواحد يستعمل في الإثبات والاحد في النفي ، تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً وتقول في النفي ما رأيت أحداً فيفيد العموم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختاف القراء في قوله (أحد الله الصمد) قراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله ، وهو القياس الذي لا إشكال فيه ، وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة ، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر ، وعن أبي عمرو ، أحد الله بغير تنوين ، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزداد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويعزوا القوم ، ويرى القوم ، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحو (لم يك) (ولا تك في مربة) فكذا ههنا حذفت في أحد الله لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف .

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله (عزير ابن الله) ويروى أيضاً عن أبي عمرو (أحد الله) وقال أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلا على السكون ، قال أبو علي قد تجرى الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف وعلى هذا قال من قال (فأضلونا السيلا ، ربنا) (وما أدراك ماهيه ، نار) فكذلك (أحد الله) لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم ، وقرأ الأعمش (قل هو الله الواحد) فإن قيل لماذا؟ قيل أحد على النكرة ، قال الماوردي فيه وجهان (أحدهما) حذف لام التعريف على نية ضمها والتقدير قل هو الله الأحد (والثاني) أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اعلم أن قوله (هو الله أحد) ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبيين (فالمقام الأول) مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحققوها من حيث هي هي ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً ، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه ، وقوله (هو) إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين ، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى يميز ، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان ، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فهذا السبب كانت لفظه (هو) كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء ، (المقام الثاني) وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول ، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً ، فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق ، بل لابد هناك من يميز به يتميز الحق عن الخلق : فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظه الله بلفظه هو ، فقيل لأجلهم هو

الله ، لأن الله هو الموجود الذي يفترق إليه ما عداه ، ويستغنى هو عن كل ما عداه (والمقام الثالث) وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالا لمقالاتهم فقيل ( قل هو الله أحد ) .

( وههنا بحث آخر ) أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية ، أما الإضافية فكقولنا عالم ، قادر مرشد خلاق ، وأما السلبية فكقولنا ليس بجسم ولا بجزهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات وثانياً على النوع الثاني منها ، وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وقولنا أحد يدل على مجامع الصفات السلبية ، فكان قولنا ( الله أحد ) تاماً في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية ، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وهذه مجامع الصفات الإضافية ، وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحادية ، وذلك لأن المراد من الأحادية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن انحاء التركيب ، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته ، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات متمتع أن يكون ممكناً ، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحادية ، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره ، وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهاد ، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشيء ، لأنه مع حاله لا يكون أحداً ، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة ، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجباً الوجود لا مشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعيين وما به المشاركة غير مابه الممايزة فكل واحد منهما مركب ، ثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً ( فإن قيل ) كيف يعقل كون الشيء أحداً ، فإن كل حقيقة توصف بالأحادية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحادية وبمجرعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد ( الجواب ) أن الأحادية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحادية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحادية ، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله ( الله أحد ) كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وتتمام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله ( وإلهكم إله واحد ) .

## اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ فيه مسائل :  
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تفسير ( الصمد ) وجهين ( الأول ) أنه فعل بمعنى مفعول  
 من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ، قال الشاعر :

الأبكر الناعي بخير بني أسد      بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد  
 وقال أيضاً : علوته بحسامي ثم قلت له      خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة هذا التفسير ما روى ابن عباس « أنه لما نزلت هذه الآية قالوا ما الصمد ؟  
 قال عليه السلام هو السيد الذي يصمد إليه في الحوائج » وقال الليث صمدت صمد هذا الأمر أي  
 قصدت قصده ( والقول الثاني ) أن الصمد هو الذي لا جوف له ، ومنه يقال لسداد القارورة  
 الضماد ، وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة ، وقال قتادة ، وعلى هذا التفسير : الدال فيه  
 مبدلة من التاء وهو المصمت ، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة الصمد هو الأملس من الحجر  
 الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء ، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال  
 المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً ينافي جسماً فقدمت  
 هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير  
 صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك ، فإذاً يجب أن يحمل ذلك على مجازه ، وذلك لأن  
 الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه  
 واجباً لذاته متمتعاً بالتغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته ، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوي في هذه الآية .  
 وأما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه ، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيداً  
 مرجوعاً إليه في دفع الحاجات ، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية ، وبعضها بالوجه الثاني  
 وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته متمتعاً بالتغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات  
 السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين .

أما النوع ( الأول ) فذكروا فيه وجوهاً : ( الأول ) الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن  
 كونه سيداً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك ( الثاني ) الصمد هو الخليم لأن كونه  
 سيداً يقتضى الحلم والكرم ( الثالث ) وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي  
 قد انتهى سيؤدده ( الرابع ) قال الأصم الصمد هو الخالق للأشياء ، وذلك لأن كونه سيداً يقتضى  
 ذلك ( الخامس ) قال السدي الصمد هو المقصود في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب ( السادس )  
 قال الحسين بن الفضل البجلي : الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لامعقب لحكمه ، ولا راد  
 لقضائه ( السابع ) أنه السيد المعظم ( الثامن ) أنه الفرد المسجد لا يقضى في أمر دونه .

وأما النوع ( الثاني ) وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوهاً : ( الأول ) الصمد هو الغنى على ما قال ( وهو الغنى الحميد ) ( الثاني ) الصمد الذي ليس فيه أحد لقوله ( وهو القاهر فوق عباده ) ولا يخاف من فوقه ، ولا يرحو من دونه ترفع الحوائج إليه ( الثالث ) قال قتادة لا يأكل ولا يشرب ( وهو يطعم ولا يطعم ) ( الرابع ) قال قتادة الباقي بعد فناء خلقه ( كل من عليها فان ) ( الخامس ) قال الحسن البصري : الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان ، ولا أين ولا أوان ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا جنى ولا إنسى وهو الآن كما كان ( السادس ) قال أبي بن كعب : الذي لا يموت ولا يورث وله ميراث السموات والأرض ( السابع ) قال يمان وأبو مالك : الذي لا ينام ولا يسهو ( الثامن ) قال ابن كيسان : هو الذي لا يوصف بصفة أحد ( التاسع ) قال مقاتل بن حبان : هو الذي لا عيب فيه ( العاشر ) قال الربيع بن أنس : هو الذي لا تعتربه الآفات ( الحادي عشر ) قال سعيد بن جبير : إنه الكامل في جميع صفاته ، وفي جميع أفعاله ( الثاني عشر ) قال جعفر الصادق : إنه الذي يغلب ولا يغلب ( الثالث عشر ) قال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ( الرابع عشر ) قال أبو بكر الوراق : إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كفيته ( الخامس عشر ) هو الذي لا تدركه الأبصار ( السادس عشر ) قال أبو العالية ومحمد القرظي : هو الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث ، ولا شيء يولد إلا ويسيموت ( السابع عشر ) قال ابن عباس : إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد ( الثامن عشر ) أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات ، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات ، وعن إحاطة الأزمنة والامكنة والآتات والجهات .

وأما ( الوجه الثالث ) وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل ، لأنه بحسب دلالاته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب ، وبحسب دلالاته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع النوعات الإلهية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله ( الله الصمد ) يقتضى أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله ، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه في الحوائج ، أو بما لا يقبل التغير في ذاته لزم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى ، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد ، فقوله ( الله أحد ) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه ، وقوله ( الله الصمد ) إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد . وبقي في الآية سؤالان : ( السؤال الأول ) لم جاء أحد منكرأ ، وجاء الصمد معرفاً ؟ ( الجواب ) الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا ما لا يكون منقسماً لا يكون خاطراً بيان أكثر الخلق ، وأما الصمد فهو الذي يكون مصموداً إليه في الحوائج ، وهذا كان معلوماً للعرب بل لا أكثر الخلق على ما قال ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) وإذا كانت

## لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

الأحادية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق ، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق ، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف .

( السؤال الثاني ) ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله ( الله أحد الله الصمد ) ؟ ( الجواب ) لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا ، إما نكرتين أو معرفتين ، وقد بينا أن ذلك غير جائز ، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكراً ولفظ الصمد معرفاً .  
— قوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ فيه سؤالات :

( السؤال الأول ) لم قدم قوله ( لم يلد ) على قوله ( ولم يولد ) مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً ، ثم يكون والداً ؟ ( الجواب ) إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد ، لأنهم ادعوا أن له ولداً ، وذلك لأن مشركي العرب قالوا ( الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزيزاً بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ) ولم يدع أحد أن له والداً فلماذا السبب بدأ بالأم فقال ( لم يلد ) ثم أشار إلى الحجّة فقال : ( ولم يولد ) كأنه قيل الدليل على امتناع الولادة اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره .

( السؤال الثاني ) لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال ( لم يلد ) ولم يقل لن يلد ؟ ( الجواب ) إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى ( ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ) فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي ، لا جرم وردت الآية على وفق قولهم .

( السؤال الثالث ) لم قال ههنا ( لم يلد ) وقال في سورة بن إسرائيل ( ولم يتخذ ولداً ) ؟ ( الجواب ) أن الولد يكون على وجهين : ( أحدهما ) أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي ( والثاني ) أن لا يكون متولداً منه وإنما يتخذ ولداً ويسميه هذا الاسم ، وإن لم يكن ولداً له في الحقيقة ، والنصارى فريقان : منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة ، ومنهم من قال إن الله اتخذ ولداً تشريفاً له ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له ، فقوله ( لم يلد ) فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة ، وقوله ( لم يتخذ ولداً ) إشارة إلى نفي القسم الثاني ، ولهذا قال ( لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ) لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب ، ولذلك قال في سورة أخرى ( وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه هو الغنى ) وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة .

( السؤال الرابع ) نفي كونه تعالى والداً ومولوداً ، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا ، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا ؟ ( الجواب ) نفي كونه تعالى والداً مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم ، ونفي كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى

## وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قديم ، والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن ، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الأدلة السمعية . بقى أن يقال فلما لم يكن استفادتهما من السمع ، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة ؟ ( قلنا ) قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه في ذاته وما هيته منزهاً عن جميع أنحاء التراكيب ، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته متمتع التغير في ذاته وجميع صفاته ، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية ، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية ، لاجرم ذكر هذين الحكيمين ، فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفاءهما .

( السؤال الخامس ) هل في قوله تعالى ( لم يلد ولم يولد ) فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية ؟ ( قلنا ) فيه فوائد كثيرة ، وذلك لأن قوله ( الله أحد ) إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وما هيته منزهاً عن التركيب ، وقوله ( الله الصمد ) إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان ، وبين الفلاسفة ، إلا أن من بعد هذا الموضوع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة ، فإن الفلاسفة قالوا : إنه يتولد عن واجب الوجود عقل ، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك ، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر ، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحتة ، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه ، فالحق سبحانه وتعالى نفي الوالدية أولاً ، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفوس ، ثم قال : والشيء الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شيء آخر ، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه .

قوله سبحانه ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فيه سؤالان :

( السؤال الأول ) الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيديويه على ذلك في كتابه ، فإبانه ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟ ( والجواب ) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله ، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الاسم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم .

( السؤال الثاني ) كيف القراءة في هذه الآية ؟ ( الجواب ) قرئ . ( كفواً ) بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء ، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطلب وعنق وعنق ، وقال أبو عبيدة يقال كفو وكف ، وكفاء كفه بمعنى واحد وهو المثل ، وللفسرين فيه أقاويل ( أحدها ) قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عدل ، ومنه المكافأة في الجزاء لأنه



يعطيه ما يساوى ما أعطاه ( وثانيها ) قال مجاهد : لم يكن صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال : لم يكن أحد كفواً له فيصاهره ، رداً على من حكى الله عنه قوله ( وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ) فتفسير هذه الآية كالتأكيدي لقوله تعالى ( لم يلد ) ( وثالثها ) وهو التحقيق أنه تعالى بين لما بين أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله ( لم يلد ولم يولد ) على ما بيناه ، فحينئذ ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له في شيء من صفات الجلال والعظمة ، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي ، وأما سائر الحقائق ، فإنها قابلة للعدم ، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالى ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك ، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان ! واعلم أن هذه السورة أربع آيات ، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد :

( الفائدة الأولى ) أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد ، والصد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و ( لم يلد ولم يولد ) على أنه غنى على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً ، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضرر ، بل بمحض الإحسان وقوله ( ولم يكن له كفواً أحد ) إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات .

( الفائدة الثانية ) نفي الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله ( أحد ) ونفي النقص والمغلوبة بلفظ الصمد ، ونفي المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد ، ونفي الأضداد والأنداد بقوله ( ولم يكن له كفواً أحد ) .

( الفائدة الثالثة ) قوله ( أحد ) يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، والنصارى في التثليث ، والصابئين في الأفلاك والنجوم ، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طاب جميع الحاجات ، والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، والمشركين في أن الملائكة بنات الله ، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاه له وشركاء .

( الفائدة الرابعة ) أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبت لا ولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا الله ولداً ، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى ، فلهذا السبب قال ههنا ( قل ) حتى تكون ذاباً عنى ، وفي سورة ( إنا أعطيناك ) أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك ، والله سبحانه وتعالى أعلم ،

## (١١٣) سُورَةُ الْفَلَقِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصلين :

(الفصل الأول) سمعت بعض العارفين فسر هاتين السورتين على وجه عجيب ، فقال إنه سبحانه لما شرح أمر الإلهية في سورة الإخلاص ذكر هذه السورة عقيها في شرح مراتب مخلوقات الله فقال أولا ( قل أعوذ برب الفلق ) وذلك لأن ظلمات العدم غير متناهية ، والحق سبحانه هو الذي فلق تلك الظلمات بنور التكوين والإيجاد والإبداع ، فلهذا قال ( قل أعوذ برب الفلق ) ثم قال ( من شر ما خلق ) والوجه فيه أن عالم الممكنات على قسمين عالم الأمر وعالم الخلق على ما قال ( أله الخلق والأمر ) وعالم الأمر كله خيرات محضة بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، فالشر لا يحصل إلا فيه ، وإنما سمي عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق . لأن الخلق هو التقدير : والمقدار من لواحق الجسم ، فلما كان الأمر كذلك ، لاجرم قال : أعوذ بالرب الذي فلق ظلمات بحر العدم بنور الإيجاد والإبداع من الشرور الواقعة في عالم الخلق وهو عالم الأجسام والجسمانيات ، ثم من الظاهر أن الأجسام ، إما أثرية أو عنصرية والأجسام الأثرية خيرات ، لأنها بريئة عن الاختلال والفتور ، على ما قال ( ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ) وأما العنصريات فهي إما جماد أو نبات أو حيوان ، أما الجمادات فهي خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمة فيها خالصة والأنوار عنها بالكلية زائلة ، وهي المراد من قوله ( ومن شر غاسق إذا وقب ) وأما النبات فالقوة العاذية النباتية هي التي تزيد في للطول والعرض والعمق معاً ، فهذه النباتية كأنها تنفت في العقد الثلاثة ، وأما الحيوان فالقوى الحيوانية هي الحواس الظاهرة والحواس الباطنية والشهوة والغضب وكلها تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله وهو المراد من قوله ( ومن شر حاسد إذا حسد ) ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهي المستعيزة ، فلا تكون مستعاضاً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة وذكر بعدها في سورة الناس مراتب درجات النفس الإنسانية في الرقي ، وذلك لأنها بأصل فطرتها مستعدة ، لأن تنفث بمعرفة الله تعالى ومحبهه إلا أنها تكون أول الأمر خالية عن هذه المعارف بالكلية ، ثم إنه في المرتبة الثانية يحصل فيها علوم أولية بديهية يمكن التوصل بها إلى استعمال الجهولات

الفكرية ، ثم في آخر الأمر تلك المجهولات الفكرية من القوة إلى الفعل ، فقوله تعالى ( قل أعوذ برب الناس ) إشارة إلى المرتبة الأولى من مراتب النفس الإنسانية وهي حال كونها خالية من جميع العلوم البديهية والكسبية ، وذلك لأن النفس في تلك المرتبة تحتاج إلى مرب يربها ويزينها بتلك المعارف البديهية ، ثم في المرتبة الثانية وهي عند حصول هذه العلوم البديهية يحصل لها ملكة من الانتقال منها إلى استعمال العلوم الفكرية وهو المراد من قوله ( ملك الناس ) ثم في المرتبة الثالثة وهي عند خروج تلك العلوم الفكرية من القوة إلى الفعل يحصل الكمال التام للنفس وهو المراد من قوله ( إله الناس ) فكأن الحق سبحانه يسمى نفسه بحسب كل مرتبة من مراتب النفس الإنسانية بما يليق بتلك المرتبة . ثم قال ( من شر الوسواس الخناس ) والمراد منه القوة الوهمية ، والسبب في إطلاق اسم الخناس على الوهم أن العقل والوهم ، قديتساعدان على تسليم بعض المقدمات ، ثم إذا آل الأمر إلى النتيجة فالعقل يساعد على النتيجة والوهم يخنس ، ويرجع ويمتنع عن تسليم النتيجة ، فلهذا السبب يسمى الوهم ( بالخناس ) ثم بين سبحانه أن ضرر هذا الخناس عظيم على العقل ، وأنه قلما ينفك أحد عنه فكأنه سبحانه بين في هذه السورة مراتب الأرواح البشرية ونبه على عدوها ونبه على ما به يقع الامتياز بين العقل وبين الوهم ، وهناك آخر درجات مراتب النفس الإنسانية ، فلا جرم ، وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه .

( الفصل الثاني ) ذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوها ( أحدها ) روى أن جبريل عليه السلام أتاه وقال إن عفريتاً من الجن يكيدك ، فقال إذا أويت إلى فراشك قل أعوذ برب السورتين ( وثانيها ) أن الله تعالى أنزلها عليه ليكونا رقية من العين ، وعن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا : تعالوا نتجوع فنعين محمداً ففعلوا ، ثم أتوه وقالوا ما أشد عضك ، وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين ( وثالثها ) وهو قول جمهور المفسرين ، أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة وفي وترده في بئر يقال لها ذروان فرض رسول الله ﷺ ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان لذلك ، وأخبره جبريل بموضع السحر فأرسل علياً عليه السلام ، وطلحة وجاءابه ، وقال جبريل للنبي حل عقدة ، وقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخنفة والراحة .

واعلم أن المعتزلة أنكروا ذلك بأسرهم ، قال القاضي هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول ( والله يعصمك من الناس ) وقال ( ولا يفلح الساحر حيث أتى ) ولأن تجويزه بفضي إلى القدح في النبوة ، ولأنه لو صح ذلك لكان من الواجب أن يصلوا إلى الضرر لجميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل ، ولأن الكفار كانوا يعيرونه بأنه مسحور ، فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك

الدعوة ، ولحصل فيه عليه السلام ذلك العيب ، ومعلوم أن ذلك غير جائز ، قال الأصحاب : هذه القصة قد صحت عند جمهور أهل النقل ، والوجه المذكورة قد سبق الكلام عليها في سورة البقرة أما قوله : الكفار كانوا يميون الرسول عليه السلام بأنه مسحور ، فلو وقع ذلك لكان الكفار صادقين في ذلك القول (جوابه) أن الكفار كانوا يريدون بكونه مسحوراً بأنه مجنون أزيل عقله بواسطة السحر ، فلذلك ترك دينهم ، فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه فذلك مما لا ينكره أحد ، وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ولا إنسياً ولا جنياً يؤذيه في دينه وشرعه ونبوته ، فأما في الإضرار بيده فلا يبعد ، وتام الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة ولنرجع إلى التفسير :

## قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله ( قل ) فوائد ( أحدها ) أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به في ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكان العبد قال : إلهنا هذه الطاعة عظيمة جداً لا أتق بنفسى في الوفاء بها ، فأجاب بأن قال ( قل أعوذ برب الفلق ) أى استعذ بالله ، والتجىء إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه ( وثانيها ) أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته ، فكان الرسول عليه السلام قال : كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لا يليق بك ، فقال الله ( قل أعوذ برب الفلق ) أى استعذ بى حتى أصونك عن شرم ( وثالثها ) كأنه تعالى يقول : من التجأ إلى بيتى شرقت وجعلته آمناً قلت ومن دخله كان آمناً فالتجىء أنت أيضاً إلى حتى أجعلك آمناً ( فقل أعوذ برب الفلق ) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟ منهم قال إنه يجوز واحتجوا بوجوه ( أحدها ) ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى فرماه جبريل عليه السلام ، فقال بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ، والله يشفيك ( وثانيها ) قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعلنا من الأوجاع كلها والجمي هذا الدعاء « بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار » ( وثالثها ) قال عليه السلام من دخل على مريض لم يحضره أجله ؛ فقال أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى ( ورابعها ) عن علي عليه السلام قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال : « أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شافى إلا أنت » ( وخامسها ) عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول « أعينكما بكلمات الله التامة من شيطان وهامة ، ومن

كل عين لامة» ويقول هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ ابنه إسماعيل وإسحاق (وسادسها) قال عثمان بن أبي العاص الثقفى قدمت على رسول الله وبنى وجمع قد كاد يبطنى فقال رسول الله ﷺ «اجعل يدك اليمنى عليه ، وقل بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد ، سبع مرات ففعلت ذلك فشفانى الله (وسابعها) روى أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول «يا أرض ، ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فىك وشر ما يخرج منك ، وشر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود وحية وعقرب ، ومن شر ما كنى البلد ووالد وما ولد ، (وثامنها) قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين فى كفه اليمنى ومسح بها المكان الذى يشتكى ومن الناس من منع من الرقى لما روى عن جابر ، قال نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، وقال عليه السلام «إن لله عبادة لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» وقال عليه السلام «لم يتوكل على الله من اکتوى واسترقى» وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهى عن الرقى المجهولة التى لا تعرف حقائقها ، فأما ما كان له أصل موثوق ، فلا نهى عنه ، واختلفوا فى التعليق ، فروى أنه عليه السلام قال «من علق شيئاً وكل إليه» وعن ابن مسعود : أنه رأى على أم ولده تيممة مربوطة بعضدها ، فجنبها جذباً عينياً فقطعها ، ومنهم من جوزة ، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه ، واختلفوا فى النفث أيضاً ، فروى عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده ، فلما اشتكى رسول الله ﷺ وجهه الذى توفى فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها على نفسه ، وعنه عليه السلام «أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ فيهما بالمعوذات ، ثم مسح بهما جسده» ومنهم من أنكر النفث ، قال عكرمة : لا ينبغى للرقى أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد . وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون النفث فى الرقى ، وقال بعضهم : دخلت على الضحاک وهو وجيع ، فقلت ألا أعوذك يا أبا محمد ؟ قال بلى ولكن لا تنفث ، فعوذته بالمعوذتين . قال الحلينى : الذى روى عن عكرمة أنه ينبغى للراقى أن لا ينفث ولا يمسح ولا يعقد ، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث فى العقد مما يستعاذ منه ، فوجب أن يكون منهاياً عنه إلا أن هذا ضعيف ، لأن النفث فى العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان . فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون حراماً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى قال فى مفتاح القراءة (فاستعذ بالله) وقال ههنا (أعوذ برب الفلق) وفى موضع آخر (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) وجاء فى الأحاديث (أعوذ بكلمات الله التامات) ولا شك أن أفضل أسماء الله هو الله ، وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره ، قال تعالى (أرباب متفرقون) فما السبب فى أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل أعوذ بالله بل قال (رب الفلق) ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (أحدها) أنه فى قوله (وإذا قرأت القرآن فاستعذ

بالله) إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن ، وإنما أمره بالاستعاذة ههنا في هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر ، والمهم الأول أعظم ، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم ( وثانها ) أن الشيطان يباليغ حال منعك من العبادة أشد مبالغة في إيصال الضر إلى بدنك وروحك ، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا ( وثالثها ) أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له في الزمان الآتي ، أو كان العبد يقول : التربية والاحسان حرفتك فلا تهملني ، ولا تخيب رجائي ( ورابعها ) أن بالتربية صار شارعاً في الإحسان ، والشروع ملزم ( وخامسها ) أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تذكيراً على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته وإحسانه ، فإن قيل إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال ( ملك الناس إله الناس ) قلنا فيه لطيفة وهي كونه تعالى قال قل أعوذ بمن هو ربي ولكنه إله قاهر لو سوسة الخناس فهو كالآب المشفق الذي يقول ارجع عند مهماتك إلى أهلك المشفق عليك الذي هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية ( وسادسها ) كان الحق قال لمحمد عليه السلام قلبك لي فلا تدخل فيه حب غيري ، ولسانك لي فلا تذكر به أحداً غيري ، وبدنك لي فلا تشغله بخدمة غيري ، وإن أردت شيئاً فلا تطلبه إلا مني ، فإن أردت العلم فقل ( رب زدني علماً ) وإن أردت الدنيا فاسألوا الله من فضله ، وإن خفت ضرراً فقل ( أعوذ برب الفلق ) فإني أنا الذي وصفت نفسي بأني خالق الأصباح . وبأني فالق الحب والنوى ، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك ، فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك ، أفلا أصونك عن الآفات والمخافات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا في ( الفلق ) وجوهاً ( أحدها ) أنه الصبح وهو قول الأكثرين قال الزجاج لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال هو أين من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه في التعوذ لوجوه ( الأول ) أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائد كل ما يخافه ويخشاه ( الثاني ) أن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج ، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصبح كذلك الخائف يكون مترقياً لطلوع صباح النجاح ( الثالث ) أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان في الظلام يكون كلحم على وضئ ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالآمان وبشر بالفرج ، فهذا السبب يمد كل مريض وهموم خفة في وقت السحر ، فالحق سبحانه يقول ( قل أعوذ برب ) يعطى إنعام فلق الصبح قبل السؤال . فكيف بعد السؤال ( الرابع ) قال بعضهم إن يوسف عليه السلام لما أتى في الحب وجعت ركبته وجمعاً شديداً فبات ليلته ساهاً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام يأذن الله يسليه ويأمره بأن يدعوا ربه فقال يا جبريل ادع أنت وأؤمن أنا فدعا جبريل وأمن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر ، فلما طاب وقت يوسف قال جبريل وأنا أدعو أيضاً

وتؤمن أنت ، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاد في ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل ، وروى أن دعاءه في الجب : يا عدتي في شدتي ويا مؤنسي في وحشتي وياراحم غربتي ويا كاشف كربتي ويا مجيب دعوتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ارحم صغري سني وضعف ركني وقلة حيلتي يا حي يا قويم يا ذا الجلال والإكرام ( الخامس ) لعزل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم ( السادس ) يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أتمزوج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور ، ثم منهم من يخرج من داره مفلساً عرباناً لا يلتفت إليه ، ومنهم من كان مذبوناً فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه ، كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار ، ومن عبد كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق ( السابع ) يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال ( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة قوله ( ناكسوا رؤوسهم ) والسجود في الصلاة يذكر قوله ( ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ) والقعود يذكر قوله ( وترى كل أمة جاثية ) فكان العبد يقول : إلهي كما خلصتني من ظلمة الليل غلصتني من هذه الأهوال ، وإنما خص وقت صلاة الصبح لأن لها مزيد شرف على ما قال ( إن قرآن الفجر كان مشهوداً ) أي تحضرها ملائكة الليل والنهار ( الثامن ) أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال ( والمستغفرين بالأسحار ) ( القول الثاني ) في الفلق أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالارض عن النبات ( إن الله فلق الحب والنوى ) والجبال عن العيون ( وإن منها لما يتفجر منه الأنهار ) والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرخ والقلوب عن المعارف ، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب ، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود ، وثبت أنه كان الله في الأزل ولم يكن معه شيء البتة فكأنه سبحانه هو الذي فلق بحمار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع ، فهذا هو المراد من الفلق ، وهذا التأويل أقرب من وجوه ( أحدها ) هو أن الموجود إما الخالق وإما الخلق ، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات . فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى ( وثانيها ) أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، الممكن لذاته يكون موجوداً بغيره ، معدوماً في حد ذاته ، فإذا كان ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ويبقيه حال بقاءه ، فإن الممكن حال بقاءه يفترق إلى المؤثر والترية ، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء ، فكأنه يقول : إنك لست محتاجاً إلى حال

## من شر ما خلق ﴿٢﴾

الحدوث فقط بل في حال الحدوث وحال البقاء معاً في الذات وفي جميع الصفات ، فقوله ( برب الفلق ) يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتي الحدوث والبقاء في الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات وسر التوحيد لا يصفون عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعاني ، ( وثالثها ) أن التصوير والتكوين في الظلمة أصعب منه في النور ، فكأنه يقول أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء ومثل ذلك بما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة وإليه الإشارة بقوله ( هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ) ( القول الثالث ) أنه واد في جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمان من الأرض الفلق واجمع فلقدان ، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال لا أبالي ، أليس من ورائهم الفلق ، فقيل وما الفلق ؟ قال بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، وإنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أو هام الخلق ، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه ، فكأنه يقول يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأكمل وأتم وأسبق وأقدم من عذابك .  
قوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير هذه الآية وجوه ( أحدها ) قال عطاء عن ابن عباس يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شر منه ولأن السورة إنما نزلت في الاستعاذة من السحر ، وذلك إنما يتم بإبليس وبأعوانه وجنوده ( وثانيها ) يريد جهنم كأنه يقول قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها ( وثالثها ) ( من شر ما خلق ) يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما ، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذيني من الجن والإنس أيضاً ووصفاً فعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة ما ، لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة ما فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ويدخل فيه شرور الأظعمة الممرضة وشرور الماء والنار ، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء ، على قول أكثر المتكلمين ، أو متولدة من قوى خلقها الله تعالى في هذه الأجرام ، على ما هو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين ، وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله ، فما معناه ؟ قلنا وأى بأس بذلك ، ولقد صرح عليه السلام بذلك ، فقال « وأعوذ بك منك » ( ورابعها ) أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات ، وزعم الجبائي والقاضي أن هذا التفسير باطل ، لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر ، قالوا



## وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

ويدل عليه وجوه (الأول) أنه يلزم على هذا التقدير أن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمرنا أن نتعوذ به ، وذلك متناقض (والثاني) أن أفعال الله كلها حكمة وصواب ، وذلك لا يجوز أن يقال إنه شر (والثالث) أن فعل الله لو كان شراً لوصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك (والجواب) عن الأول أنا بينا أنه لا امتناع في قوله أعوذ بك منك ؟ وعن الثاني أن الإنسان لما تألم به فإنه يمد شراً ، فور اللفظ على وفق قوله ، كافي قوله . (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعن الثالث أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية ، ثم الذي يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى (إذا مسه الشر جزوعاً) وقوله (وإذا مسه الشر فذر دعاء عريض) وكان عليه السلام يقول « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ طعن بعض الملحدة في قوله (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) من وجوه (أحدها) أن المستعاذ منه أمر واقع بقضاء الله وقدره ، أولاً بقضاء الله ولا بقدره ؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعذ بالله منه ، وذلك لأن ما قضى الله به وقدره فهو واقع ، فكأنه تعالى يقول الشيء الذي قضيت بوقوعه ، وهو لا بد واقع فاستعذني منه حتى لا أوقعه ، وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدر في ملك الله وملكوته (وثانيها) أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له ، فلا فائدة في الاستعاذة وإن كان معلوم اللا وقوع ، فلا حاجة إلى الاستعاذة (وثالثها) أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المسكف في طلب دفعه ومنعه ، وإن كان مفسدة فكيف خلقه وقدره ، واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات ، أن يقال إنه (لا يسأل عما يفعل) وقد تكرر هذا الكلام في هذا الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ ذكروا في الغاسق وجوهاً (أحدها) أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله (إلى غسق الليل) ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً ، وهذا قول الفراء وأبي عبيدة ، وأنشد ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكتك الهم والارقا

وقال الزجاج الغاسق في اللغة هو البارد ، وسمى الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، ومنه قوله إنه الزهري (وثالثها) قال قوم الغاسق والغساق هو السائل من قولهم : غسقت العين تغسق غسقا إذا سالت بالماء ، وسمى الليل غاسقاً لا نصاب ظلامه على الأرض ، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين ، يقال وقب يقب وقوباً إذا دخل ، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء ، والإيقاب إدخال الشيء في الوقبة ، هذا ما يتعلق باللغة والمفسرين في الآية أقوال الفخر الرازي - ج ٣٢ م ١٣

## وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾

(أحدها) أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل ، وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهرام من مكائها ، ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ، ولذلك لو شهر [معتد] سلاحا على إنسان ليلاقفته المشهري عليه لا يلزمه قصاص ، ولو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث ، وقال قوم إن في الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين ، وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم ، أما في الليل فيحصل لهم نوع استيلاء (وثانيها) أن الغاسق إذا وقب هو القمر ، قال ابن قتيبة الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيفسق ، أي يذهب ضوءه ويسود ، [ و ] وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد ، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأشار إلى القمر ، وقال « استعيني بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب » قال ابن قتيبة : ومعنى قوله تعوذى بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف ، وعندى فيه وجه آخر : وهو أنه صح أن القمر في جرمه غير مستدير بل هو مظلم ، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً ، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر الشهر ، والمنجمون يقولون إنه في آخر الشهر يكون من حوساً قليل القوة لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته ، ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض في هذا الوقت ، وهذا مناسب لسبب نزول السورة فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبي ﷺ لأجل التمريض ( وثالثها ) قال ابن زيد الغاسق إذا وقب يعني الثريا إذا سقطت قال ، وكانت الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقاً ، لانصباها عند وقوعه في المغرب ، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين ( ورابعها ) قال صاحب الكشاف يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقوبه ضربه ونقبه ، والوقب والنقب واحد ، واعلم أن هذا التأويل أضعف الوجوه المذكورة ( وخامسها ) الغاسق ( إذا وقب ) هو الشمس إذا غابت وإنما سميت غاسقاً لأنها في الفلك تسبح فسمى حركتها وجريانها بالغسق ، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ومن شر النفثات في العقد ﴾ فيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية قولان ( الأول ) أن النفث النفخ مع ريق ، هكذا قاله صاحب الكشاف ، ومنهم من قال إنه النفخ فقط ، ومنه قوله عليه السلام إن جبريل نفث في روعي والعقد جمع عقدة ، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خبطاً ، ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث في تلك العقد ، وإنما أنت النفثات لوجوه ( أحدها ) أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن ، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه ، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهرتهن ، فلا جرم كان

## وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

هذا العمل منهن أقوى ، قال أبو عبيدة ( النفاثات ) هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي ﷺ ( وثانيها ) أن المراد من ( النفاثات ) النفوس ( وثالثها ) المراد منها الجماعات ، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد ( القول الثاني ) وهو اختيا أبي مسلم ( من شر النفاثات ) أى النساء فى العقد ، أى فى عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال ، والنفت وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً ، فعنى الآية أن النساء لاجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحوانهم من رأى إلى رأى ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله ( إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ) فلذلك عظم الله كيدهن فقال ( إن كيدكن عظيم ) .

واعلم أن هذا القول حسن ، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نكرت المعتزلة تأثير السحر ، وقد تقدمت هذه المسألة ، ثم قالوا سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه ( أحدها ) أن يستعاذ من ائمه عملهن فى السحر ( والثانى ) أن يستعاذ من فتنهن الناس بسحرهن ( والثالث ) أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت .

قوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ من المعلوم أن الحاسد هو الذى تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه ، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل ، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه ، وقد دخل فى هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرز منه ديناً ودنياً ، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة فى التعوذ لكل أمر ، ويجوز أن يراد بشر الحاسد ائمه وسماجة حاله فى وقت حسده وإظهاره أثره . بقى هنا سؤالان :

( السؤال الأول ) قوله ( من شر ما خلق ) عام فى كل ما يستعاذ منه ، فامعنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ( الجواب ) تديهاً على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر .

( السؤال الثانى ) لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بضمه ؟ ( الجواب ) عرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسقاً لأنه ليس كل غاسق شريراً ، وأيضاً ليس كل حاسد شريراً ، بل رب حسد يكون محموداً وهو الحسد فى الخيرات .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(١١٤) سُورَةُ النَّاسِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيُّهَا سَيِّتٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③

### بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ فيه مسائل :  
﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ ( قل أعوذ ) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ونظيره  
(نخذ أربعة من الطير) وأيضاً أجمع القراء على ترك الإمالة في الناس ، وروى عن الكسائي الإمالة  
في الناس إذا كان في موضع الخفض ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى رب جميع المحدثات ، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على  
التخصيص وذلك لوجوه (أحدها) أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس  
فكانه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم  
ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراه خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم (وثانيها)  
أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس (وثالثها) أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان ، فإذا  
قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول : يارب ياملكى يا إلهي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى ( ملك الناس ، إله الناس ) هما عطف بيان كقوله سيرة  
أبي حفص عمر الفاروق ، فوصف أولاً بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون ، كما  
يقال رب الدار ورب المتاع قال تعالى ( اتخذوا أحرارهم وربانهم أرباباً من دون الله ) فلا جرم  
بينه بقوله ( ملك الناس ) ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون فلا جرم بينه بقوله ( إله الناس )  
لأن الإله خاص به وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره وأيضاً بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره  
وإصلاحه ، وهو من أوائل نعمه إلى أن رباه وأعطاه العقل فينتد عرف بالدليل أنه عبد مملوك  
وهو ملكه ، فتنى بذكر الملك ، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وعرف أن معبوده  
مستحق لتلك العبادة عرف أنه إله ، فلماذا ختم به ، وأيضاً أول ما يعرف العبد من ربه كونه مطيعاً  
لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الرب ، ثم لا يزال يتنقل من معرفة هذه الصفات

## مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾

إلى معرفة جلالته واستغناؤه عن الخلق ، فحينئذ يحصل العلم بكونه ملكا ، لأن الملك هو الذي يفتقر إليه غيره ويكون هو غنياً عن غيره ، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين وأنه هو الذي ولدت العقول في عزته وعظمته ، فحينئذ يعرفه إلهاً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ السبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات ، لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار ، ولأن هذا التكرير يقتضى مزيد شرف الناس ، لأنه سبحانه كأنه عرف ذاته بكونه رباً للناس ، ملكاً للناس ، إلهاً للناس . ولولا أن الناس أشرف مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه رباً وملكاً وإلهاً لهم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لا يجوز هنا مالك الناس ويجوز (مالك يوم الدين) في سورة الفاتحة ، والفرق أن قوله (رب الناس) أفاد كونه مالكا لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقيب هذا الملك ليفيد أنه مالك ومع كونه مالكا فهو ملك ، فإن قيل أليس قال في سورة الفاتحة (رب العالمين) ثم قال (مالك يوم الدين) فيلزم وقوع التكرار هناك ؟ قلنا اللفظ دل على أنه رب العالمين ، وهي الأشياء الموجودة في الحال ، وعلى أنه مالك ليوم الدين أى قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شئ. والمالك إلى شئ. آخر فلم يلزم التكرير ، وأما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شئ واحد ، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق ، وأيضاً فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس ، وقد قرئ. مالك لكن في الشواذ .

قوله تعالى : ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة ، كالزوال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به الشيطان سمي بالمصدر ، كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعتها وشغله الذي هو عاكف عليه ، نظيره قوله (إنه عمل غير صالح) والمراد ذو الوسواس وتحتميق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله (فوسوس لها الشيطان) وأما الخناس فهو الذي عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والنفاثات ، عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى ، فإذا غفل وسوس إليه .

قوله تعالى : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ .

اعلم أن قوله (الذى يوسوس) يجوز في محمله الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبتدى الذى يوسوس ، على أحد هذين الوجهين .

## مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿١﴾

أما قوله تعالى ﴿ من الجنة والناس ﴾ ففيه وجوه :

﴿ أحدها ﴾ كأنه يقول الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال (شياطين الإنس والجن) وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ، ويترك الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه ( وثانها ) قال قوم قوله ( من الجنة والناس ) قسيان مندرجان تحت قوله في ( صدور الناس ) كأن القدر المشترك بين الجن والإنس ، يسمى إنساناً والإنسان أيضاً يسمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالاشتراك ، والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم فقالوا أناس من الجن ، وأيضاً قد سماهم الله رجالاً في قوله ( وأنه كان رجالاً من الإنس يعوذون برجال من الجن ) فجاء أيضاً أن يسميهم ههنا ناساً ، فغنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخنث لا يقتصر على إضلال الإنس بل يضل جنسه وهم الجن ، فجدير أن يحذر العاقل شره ، وهذا القول ضعيف ، لأن جعل الإنسان اسماً للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جنّاً لاجتماعهم والإنسان إنساناً لظهوره من الإيناس وهو الإبصار ، وقال صاحب الكشاف من أراد تقرير هذا الوجه ، فالأولى أن يقول المراد من قوله ( يوسوس في صدور الناس ) أى في صدور الناسى كقوله ( يوم يدع الداع ) وإذا كان المراد من الناس الناسى ، فينبذ يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى ( وثالثها ) أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من الجميع الجنة والناس ، واعلم أن هذه السورة لطيفة أخرى : وهى أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهى أنه رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهى العاسق والنفاثات والحاسد ، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهى الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهى الوسوسة ، والفرق بين الموضوعين أن الشفاء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت ، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



فهرست الجزء الثاني والثلاثون  
من التفسير الكبير للامام نجر الدين الرازي

صفحة	صفحة
١٠	٢ ( تفسير سورة ألم نشرح ) .
١٠	قوله تعالى ( ألم نشرح لك صدرك ) .
١١	الكلام على حادثة شق الصدر .
١١	لم لم يقل ألم نشرح لك قلبك ؟
١٢	لم لم يقل ألم نشرح صدرك ؟
١٣	» » ألم أشرح ؟
١٣	قوله تعالى ( ووضعا عنك وزرك ) .
١٣	الاحتجاج بالآية على جواز وقوع المعصية من الأنبياء .
١٤	قوله تعالى ( ورفعنا لك ذكرك ) .
١٤	تفصيل وبيان لوجوه رفع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم .
١٥	قوله تعالى ( فإن مع العسر يسراً ) .
١٥	وجه تعلق الآية بما قبلها .
١٦	معنى اليسر والعسر .
١٦	وجه التنكير في اليسر .
١٦	قوله تعالى ( فإذا فرغت فانصب ) .
١٦	وجه تعلق هذا بما قبله .
١٦	قوله تعالى ( وإلى ربك فارغب ) .
١٦	( تفسير سورة التين ) .
١٧	قوله تعالى ( والتين والزيتون ) الآيات .
١٧	المراد التين والزيتون المعروفان .
١٧	بيان مزاياها .
١٧	ليس المراد بهما هاتين الثمرتين ؟
١٠	ما المراد بالطور ؟
١٠	ما المراد بالبلد الأمين ؟
١١	قوله تعالى ( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ) .
١١	قوله تعالى ( ثم رددناه أسفل سافلين ) .
١٢	» » ( إلا الذين آمنوا ) الآية .
١٢	» » ( أليس الله بأحكم الحاكمين ) .
١٣	( تفسير سورة القلم ) .
١٣	قوله تعالى ( اقرأ باسم ربك ) .
١٣	المراد ( اقرأ القرآن ) .
١٣	قوله تعالى ( الذي خلق ) .
١٤	الكلام على لفظ الرب .
١٤	الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه .
١٥	وجود تفسير الآيات الثلاثة .
١٥	احتج الأصحاب على أنه لا خالق غير الله اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله .
١٦	لم قال ( من عاق ) .
١٦	قوله تعالى ( اقرأ باسم ربك الأكرم ) .
١٦	معنى الكرم .
١٦	المناسبة بين الخلق والتعليم .
١٦	المراد من القلم الكتابة مطلقاً ، أو الكتابة بالقلم .
١٧	قوله تعالى ( علم الإنسان ما لم يعلم ) .

صفحة	صفحة
٤٩	١٧
قوله تعالى (إن الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية .	قوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى)
٥١	١٧
قوله تعالى (أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية .	المراد إنسان واحد هو أبو جهل :
٥٢	١٨
قوله تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) الآية .	معاني (كلا) .
٥٧	ما سبب التأكيذ باللام؟
(تفسير سورة الزلزلة) .	١٩
قوله تعالى (إذا زلزلت الأرض) .	قوله تعالى (أن رآه استغنى) .
٥٨	وجوه الاستغناء .
» » (وأخرجت الأرض أنقلاها) .	في الآية مدح للعلم واذم للمال .
٥٩	الالتفات في الآية .
» » (وقال الإنسان ما لها) .	١٩
» » (يومئذ تحدث أخبارها) .	قوله تعالى (إن إلى ربك الرجعى) .
٦٠	٢٠
» » (بأن ربك أوحى لها) .	» » (أرايت الذى ينهى الآية .
» » (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) .	» » (أرايت إن كان على الهدى) الآية
٦١	٢٢
» » (فمن يعمل مثقال ذرة) الآيات	» » (أرايت إن كذب وتولى) الآية .
٦٣	٢٣
(تفسير سورة العاديات) .	» » (كلا لئن لم ينته لنسفعا) الآية .
قوله تعالى (والعاديات ضبحاً) .	٢٥
٦٤	» » (فليدع ناديه) الآية
» » (فالموريات قدحاً) .	٢٦
٦٥	» » (كلا لا تطعه واسجد واقترب)
» » (فالمغيرات صبحاً) .	٢٧
» » (فأثرن به نقعاً) .	(تفسير سورة القدر) .
٦٦	قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) .
» » (فوسطن به جمعاً) .	٣٠
٦٧	» » (وما أدراك ما ليلة القدر) .
» » (إن الإنسان لربه لكنود) .	» » (ليلة القدر خير من ألف شهر) .
» » (وإنه على ذلك لشهيد) .	٣٢
» » (وإنه لحب الخير لشديد) .	» » (تنزل الملائكة والروح فيها) .
٦٨	٣٤
» » (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور) .	» » (ياذن ربهم) .
» » (وحصل ما فى الصدور) .	٣٥
٦٩	» » (من كل أمر) .
» » (إن ربهم يومئذ لحبير) .	٣٦
فى التى بعدها .	» » (سلام هى حتى مطلع الفجر) .
	٣٨
	(تفسير سورة البينة) .
	قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية .
	٤٣
	قوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله
	مخلصين له الدين) الآية .



صفحة	
٩٤	قوله تعالى (وما أدريك ما الخطمة) الآيات
٩٥	» ( في عمد عمدة ) .
٩٦	( تفسير سورة الفيل ) .
	قوله تعالى ( ألم تر كيف فعل ربك
	بأصحاب الفيل ) .
٩٩	» ( ألم يجعل كيدهم في تضليل ) .
	» ( وأرسل عليهم طيرا أبابيل )
١٠٠	» ( ترميمهم بحجارة من سجيل ) .
١٠١	قوله تعالى ( فجعلهم كعصف ما كول )
١٠٣	( تفسير سورة قريش ) .
	قوله تعالى ( لإيلاف قريش إيلافهم )
١٠٦	» ( رحلة الشتاء والصيف ) .
١٠٧	» ( فليعبدوا رب هذا البيت ) .
١٠٨	» ( الذي أطعمهم من جوع )
١٠٩	» ( وآمنهم من خوف ) .
١١١	( تفسير سورة أرايت ) .
١١١	قوله تعالى ( أرايت الذي يكذب بالدين ) .
١١٢	» ( فذلك الذي يدع اليتيم ) .
	» ( ولا يحض على طعام المسكين )
١١٣	» ( فويل للصلين ) .
	» ( الذين هم عن صلاتهم ساهون )
١١٥	» ( الذين هم يرامون ) .
	» ( ويمنعون الماعون ) .
١١٧	( تفسير سورة الكوثر ) .
	قوله تعالى ( إنا أعطيناك الكوثر ) .
١٢٨	» ( فصل لربك وانحر ) .
١٣٢	» ( إن شاتك هو الأبر ) .
١٣٦	( تفسير سورة الكافرون ) .

صفحة	
٧٠	( تفسير سورة القارعة ) .
	قوله تعالى ( القارعة ، ما القارعة ) .
	» ( وما أدراك ما القارعة ) .
٧١	» ( يوم يكون الناس كالفراس
	المبثوث ) .
	» ( وتكون الجبال كالعمن
	المنفوش ) .
٧٣	» ( فأما من ثقلت موازينه ) .
	» ( فهو في عيشة راضية )
	» ( وأما من خفت موازينه ) .
٧٤	» ( فأمه هاوية ، وما أدريك
	ماهيه ) الآية .
٧٥	( تفسير سورة التكاثر ) .
	قوله تعالى ( ألهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر )
٧٨	» ( كلا سوف تعلقون ) الآيات .
٨٠	» ( ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ) .
٨٤	( تفسير سورة العصر ) .
	قوله تعالى ( والعصر ) .
٨٦	» ( إن الإنسان لني خسر ) .
٨٨	» ( إلا الذين آمنوا وعملوا
	الصالحات ) .
٨٩-	» ( وتواصوا بالحق وتواصوا
	بالصبر ) .
٩١	( تفسير سورة الحمزة ) .
	قوله تعالى ( ويل لكل همزة لمزة ) .
٩٢	» ( الذي جمع مالا وعدده ) .
٩٣	» ( يحسب أن ماله أخلده )
	الآيات .

صفحة	صفحة
١٧١ بيان الأعمال التي كانت تعملها .	١٣٦ قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون) .
١٧٢ رجز أم جميل في الرسول عليه الصلاة والسلام .	١٤٤ » (لا أعبد ما تعبدون) .
كيف جاز أن ترى أم جميل أبا بكر ولا ترى الرسول وهو معه ؟	» (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .
١٧٣ وجه الوصف بأنها حمالة الخطب .	» (ولا أنا عابد ما عبدتم) .
قوله تعالى ( في جديها جبل من مسد)	» (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .
١٧٤ (سورة الإخلاص) .	١٤٧ » (لكم دينكم ولي دين) .
قوله تعالى (قل هو الله أحد) .	١٤٩ ( تفسير سورة النصر) .
فضل الدعاء بالسورة	قوله تعالى (إذا جاء نصر الله) .
١٧٥ سبب نزولها .	١٥٣ » (والفتح) .
ألقاب السورة وأسمائها .	» (ورأيت الناس يدخلون
١٧٦ فضائل قراءة هذه السورة .	في دين الله أفواجا) .
١٧٧ ما في الآية من المسائل .	١٥٨ قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره
بيان أن معرفة الله جنة حاضرة .	إنه كان تواباً) .
١٧٨ إعراب الآية .	١٦٥ ( تفسير سورة أبي لهب) .
ما في (أحد) من الوجوه .	مقدمة في السورة .
١٧٩ وجوه القراءة في قوله تعالى (أحد،	١٦٦ قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب) .
الله الصمد) بالوقف والتتوين إلخ .	١٦٧ » (وتب) .
بيان ما في الآية من مقامات .	١٦٩ وجه إسكان الهاء من أبي لهب في
١٨٠ تقسيم صفات الله إلى إضافية وسلبية .	قراءة ابن كثير .
١٨١ قوله تعالى (الله الصمد) .	قوله تعالى (ما أغنى عنه ماله وما كسب)
معاني الصمد .	١٧٠ الفرق بين (ما أغنى عنه ماله وما كسب)
١٨٢ وجه التشكير في (أحد) والتعريف في	(وإذا تردى) .
(الصمد) .	قوله تعالى (سينصلي ناراً ذات لهب)
١٨٣ فائدة تكرير لفظة (الله) .	ما في هذه الآيات من الإخبار بالمغيبات .
قوله تعالى (لم يلد ولم يولد) .	١٧١ احتجاج أهل السنة بهذه الآيات على
نفي كونه تعالى والدأ .	وقوع تكليف ما لا يطاق .
	قوله تعالى (وامراته حمالة الخطب) .
	اسم المرأة أم جميل .

صفحة	صفحة
١٩٣ هل المراد إبليس خاصة؟	١٨٣ نفى كونه تعالى مولوداً .
١٩٤ هل المستعاذ منه واقع بقضاء الله تعالى أو غير واقع؟	١٨٤ المعاني الزائدة على ذلك في الآية إلى ما بعدها .
قوله تعالى ( ومن شر غاسق إذا وقب )	١٨٦ مقدمة سورة الفلق .
١٩٥ » ( ومن شر النفاثات في العقد )	١٨٦ شرح مراتب المخلوقات .
١٩٦ » ( ومن شر حاسد إذا حسد ) .	١٨٨ سبب نزول المعوذتين .
١٩٧ ( تفسير سورة الناس ) .	قوله تعالى ( قل أعوذ برب الفلق ) .
١٩٦٦ قوله تعالى ( قل أعوذ برب الناس ) الآيات .	ما في قوله ( قل ) من الفوائد .
١٩٨ قوله تعالى ( من شر الوسواس ) الآيات	الاستعانة بالرقى .
٢٠١ خاتمة الطبع .	١٩٠ الاستعاذة .
٢٠٣ الفهرست وبها تمام التفسير .	١٩١ التأويل في الفلق .
	١٩٣ قوله تعالى ( من شر ما خلق ) .

تمت الفهرست



فهرست  
آیات الاحکام  
للتفسیر الکبیر  
للامام  
الفخر الرازی



التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية ...
١	٦	٦٦	البقرة	٢٢٢	إجتنب النساء في الحيض	ويسألونك عن المحيض ....
٢	١٠	١١١	النساء	٤٣	الغسل من الخبابة والإستخاء والوضوء	يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً ...
٣	١١	١٨٠	المائدة	٦	التطهر للصلاة «الوضوء»	يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ..... لعلمكم تشكرون .
٤	١٦	٢٤	التوبة	٢٨	نجاسة المشركين وحرمة دخولهم المسجد	يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ....
٥	٢٩	١٩٠	الواقعة	٧٧-٨٠	التطهر للمس القرآن	إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون .

٢- في أحكام العبادات

أ- الصلاة . وأحكام المساجد وما إليها

٦	١	٢٢٠-٢٢٣	الفاتحة <sup>١</sup>	كل السورة	قراءة الفاتحة في الصلاة	الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ....
٧	٣	٤٦	البقرة	٤٣	الأمر بإقامة الصلاة	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ...
٨	٤	١٣		١١٣	تحريم المنع من دخول المساجد	ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ...
٩	٤	٢٠		١١٤	فأينما تولوا فثم وجه الله	ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله
١٠	٤	١٠٤		١٤٢	اليهود والقبيلة	سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ....
١١	٤	١٢٢		١٤٤	التوجه إلى بيت الله الحرام	قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ....
١٢	٤	١٥١		١٤٩ و ١٥٠	الأمر بالتوجه في كل الصلوات إلى الحرم	ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ....

(١) للفائدة أذكر أن في التفسير بحثاً طويلاً وجميلاً في الأمور الفقهية المستنبطة من السورة وتضم حكم الجهر بالبسملة ومواضع أخرى من الصفحة ١٩٤ - ٢٢٢ .

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآيات
١٣	٦	١٥٦	٢٣٨	في الصلاة الوسطى	حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ....»
١٤	٦	١٦٥	٢٣٩	صلاة الخوف	فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإن أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ...»
١٥	١١	١٧	١٠١	قصر الصلاة	وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ....»
١٦	١١	٢٣	١٠٢	في صلاة الخوف	وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ....»
١٧	١١	٢٤	١٠٣	في ذكر الله على كل الأحوال	فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً ...»
١٨	١٦	٧	١٧-١٨	عمار المساجد هم المؤمنون	ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ...»
١٩	١٦	١٥٥	٨٤	النهي عن الصلاة على المنافقين	وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل أقم الصلاة لدلوك الشمس ...» «ومن الليل فتهجد به نافلة لك ...»
٢٠	١٨	٧٤	١١٤	أوقات الصلاة	ولا تجهر بصلاتك ولا تحافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً.
٢١	٢١	٢٥	٧٨-٧٩	أوقات الصلاة وصلاة التهجد	فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .
٢٢	٢١	٧٠	١١٠	رفع الصوت بالقرآن في الصلاة	يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ....»
٢٣	٢٣	٧١	٧٨	فرضية الصلاة	من قوله «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً» إلى قوله «والله يحب المتطهرين»
٢٤	٣٠	٧-١٠	٩-١١	صلاة الجمعة	إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ....»
٢٥	١٦	١٩٧	١٠٧ و	مسجد ضرار وحكم الصلاة فيه	
٢٦	٣٠	١٨٦	٢٠	قيام الليل وقراءة القرآن	

### ب — الزكاة والصدقات والإنفاق في سبيل الله .

٢٧	٢	٣٢	٣	تعريف الزكاة والإنفاق	الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون .
٢٨	٣	٤٦	٤٣	فرضية الزكاة	.... وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين .



التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآية ...
٢٩	٦	٢٣	٢١٥	مصارف الصدقات	يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلوللدين والأقربين واليتامى .....
٣٠	٧	٦٥	٢٦٧	لا تصح الزكاة من المال الرديء	.... أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض .
٣١	٧	٧٥—٨٩	٢٧٠ و ٢٧٤	إخفاء الصدقات وإظهارها	من قوله تعالى «وما أنفقتم من نفقة» آية ٢٧٠ إلى قوله «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» آية ٢٧٤
٣٢	٨	١٤٧	٩٢	الصدقات من البر	لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم .....
٣٣	١٣	٢٢١	١٤١	زكاة الزروع والثمار	... كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوه حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إن الله لا يحب المرففين .
٣٤	١٦	١٠٢	٦٠	مصارف الزكاة	إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ...
٣٥	١٦	١٧٨	١٠٣	الزكاة مطهرة للنفس	خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ...
٣٦	١٦	١٨٨	١٠٤	الصدقات لله	ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم
٣٧	٢٠	١٩٤	٢٦	الأمر بالصدقات	وأت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً
٣٨	٢٠	١٩٤	٢٧—٢٩	النهي عن التبذير والإمساك	إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً .
٣٩	٣٠	٣٠	٢٥—٣٤	الزكاة حق الفقراء	والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم .

## جـ — الصيام وما يتبعه

٤٠	٥	٧٤	١٨٣ و ١٨٥	فرضية الصيام ورخص الإفطار	قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» آية ١٨٣ — إلى قوله «ولعلكم تشكرون» آية ١٨٥
٤١	٥	١١٠	١٨٧	مبقات بداية الشهر وغشيان النساء في الصيام	أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم
٤٢	٥	١١٠	١٨٧	الإعتكاف في المساجد	... ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد
٤٣	٣٢	٢٨	كل السورة	فضل ليلة القدر	إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر .....

## د - الحج والعمرة وتوابعهما

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآية ...
٤٤	٤	٥٠	البقرة	١٢٥	بناء البيت وأمنه	وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى
٤٥	٤	١٧٣		١٥٨	الطواف والسعي ركنان في الحج والعمرة	إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما
٤٦	٥	١٢٨		١٨٩	الأهلة مواقيت للحج	يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ...
٤٧	٥	١٤٩		١٩٦	إتمام الحج والعمرة	وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ...
٤٨	٥	١٧٣		١٩٧	لا رقت ولا فسوق في الحج	الحج أشهر معلومات فمن فرض فبين الحج فلا رقت ولا فسوق ولا جدال في الحج ...
٤٩	٥	١٩٥		١٩٩	الإفاضة من عرفات	ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا لله إن الله غفور رحيم
٥٠	٥	١٩٨		٢٠٠	إنقضاء المناسك	فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا كركم آباءكم أو أشد ذكراً ...
٥١	٥	٢٠٧		٢٠٣	لا إثم على من تعجل في ذكر الله	واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ...
٥٢	٨	١٥٥	آل عمران	٩٦-٩٧	فرضية الحج على المستطيع	من قوله «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة» إلى قوله «ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت
٥٣	١١	١٢٥	المائدة	١	المحرم وقت الإحرام	يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام ...
٥٤	١١	١٣٠		٢	الصيد حلال بعد الإحلال	يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ...
٥٥	١٢	٩٢		٩٥	فدية من قتل صيداً وهو محرم	يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ...
٥٦	١٢	١٠٣		٩٦	صيد البحر حلال على المحرم	أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ...
٥٧	١٢	١٠٦		٩٧	البيت الحرام قيام للناس	جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ...
٥٨	٢٣	٢٧-٣٦	الحج	٢٦-٣٧	فرضية الحج وأحكامه	من قوله «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً» إلى قوله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها آية ٣٧
٥٩	٢٨	١٠٤	الفتح	٢٧	رؤى الأنبياء والحلق والتقصير في الحج	لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ...

٣- في أحكام المعاملات

٢١١

أ- البيع والشراء والتجارة والشركات وما إليها .

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآيات
٦٠	٧	٩١	البقرة	٢٥٧	مشروعية البيع والشراء	... الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ....
٦١	٧	١١٤		٢٨٢	مشروعية التجارة والشركات	... إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ....
٦٢	١٠	٧١	النساء	٢٩	مشروعية التجارة والشركات	يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ...
٦٣	٢٠	٢٠٦	الاسراء	٣٥	الأمر بتوفية الكيل .	وأوفوا الكيل إذا كتمت وزنوا بالقسطاس المستقيم ....
٦٤	٣١	٨٧	المطففين	٣٠١	تحريم تطفيف المكيال والميزان	ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون

ب- في الدين والرهن وكتابه الديون

٦٥	٧	١١٤	البقرة	٢٨٢	الأمر بكتابة الدين وجواز الرهن	يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ....
٦٦	٧	١٢٩		٢٨٣	جواز لرهن مقابل دين في سفر	.... وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ....
٦٧	٧	١٠٥		٢٨٠	تأجيل الدين للمعسر	وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسره ....

ج- في أحكام الشهود .

٦٨	٧	١١٤	البقرة	٢٨٢	في عدد الشهود ونوعيتهم	... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ....
٦٩	١١	١٨٤	المائدة	٨	الشهادة بالقسط	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط
٧٠	١٢	١٢٠		١٠٦	الشهود على وصية الميت	يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ....
٧١	١٢	١٢٦		١٠٧ و ١٠٨	الشهود على وصية الميت وشروطهم	من قوله «فإن عثر على أنها استحقا» إلى قوله «والله لا يهدي القوم الفاسقين» آية ١٠٨

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآيات
٧٢	٣٠	٢٩	الطلاق	٢	الإشهاد على الطلاق	... وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ....

### د - في أحكام الربا

٧٣	٧	٩١	البقرة	٢٧٥	تحريم الربا	الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ....
٧٤	٧	١٠١		٢٧٦	ليس في الربا خير	يحق الله الربا ويربي الصدقات ....
٧٥	٧	١٠٥		٢٧٨ و ١٣١	الأمر بترك الربا	من قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا » إلى قوله « لا تظلمون ولا تظلمون » ٢٧٩
٧٦	٩	٢	آل عمران	١٣٠ و ١٣١	تحريم الربا أضعافاً مضاعفة	يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة

### هـ - في أحكام معاملة اليتامى وأحكام المال عامة

٧٧	٥	١٢٥	البقرة	١٨٨	تحريم الرشوة وأكل مال الناس بالباطل	ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ....
٧٨	٩	١٧٣	النساء	٢	رعاية مال اليتيم	وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ....
٧٩	٩	١٧٧		٣	العدل باليتامى	وإن خضتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ....
٨٠	٩	١٩٤		٦	إذا بلغ اليتيم سن الرشد يدفع إليه ماله	وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً ....
٨١	٩	٢٠٧		١٠	تحريم أكل أموال اليتامى	إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ....
٨٢	٩	١٩٠		٥	الحجر على مال السفيه	ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ....
٨٣	١١	٦٢		١٢٧	في معاملة النساء اليتامى والولدان	ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء ....
٨٤	٦	٥٣	البقرة	٢٢٠	جواز مخالطة مال اليتيم	... ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ....

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآيات
٨٥	٢٠	٢٠٥	الاسراء	٣٤	النهي عن أكل مال اليتيم	ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدهم.....
٨٦	٣١	٢١٩	الضحى	١١-٦	معاملة اليتيم والسائل	«فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر.»

#### ٤- في أحكام الزواج وما يتعلق به .

٨٧	٦	٥٧	البقرة	٢٢١	تحريم زواج المشركات للمؤمنين والعكس	ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم.....
٨٨	١٠	١٣	النساء	٢١-٢٠	في أحكام المهور	من قوله «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج إلى قوله «ميثاقاً غليظاً» آية ٢١
٨٩	١٠	٢٠		٢٢	تحريم زوجات الآباء	ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء.....
٩٠	١٠	٢٥		٢٣	بقية المحرمات من النساء	حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم.....
٩١	١٠	٥٥		٢٤	تحريم النساء المتزوجات على غير أزواجهن	والمحصنات من النساء إلا ما ملكت إيمانكم كتاب الله عليكم.....
٩٢	١٠	٥٧		٢٥	الحر الذي لا يستطيع زواج حره ينكح أمة ، وعقاب الأمة إن أتت فاحشة	ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات.....
٩٣	١٠	١٨٥	النساء	٤-٣	الزواج والمهر وتعهد الزوجات	من قوله «وإن خفتم لا تقسطوا في اليتامى...» «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» آية ٤ .
٩٤	١٠	٩٠		٣٤	تأديب الزوجات الناشزات	الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا.....
٩٥	١٠	٩٤		٣٥	الحكام لإصلاح ما بين الزوجين	وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها.....
٩٦	١١	٦٥		١٢٨	إذا خافت المرأة من بعلمها نشوزاً	وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما إن يصلحا بينهما...»
٩٧	١٠	٦٨		١٢٩	العدل بين النساء	ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل.....
٩٨	١١	٦٩		١٣٠	إذا تفرق الزوجان	وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً»
٩٩	٢٣	٢١١	النور	٣٢	الحث على الزواج عامة	وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم.....

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآيات
١٠٠	٢٣	٢١٦		٣٣	الصبر إذا لم يجد المرء الزواج	وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله.....
١٠١	٢٥	٢١٥	الاحزاب	٣٣	في تحريم التبرج	وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى.....
١٠٢	٢٥	٢١٣		٣٧	جواز أن يتزوج الرجل زوجة من تبنى	وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك.....
١٠٣	٢٥	٢٢١		٥١-٥٠	المحلات للنكاح	يا أيها النبي انا أحللتنا لك أزواجك.....
١٠٤	٢٩	٣٠٤	المتحنة	١٠	تحريم المؤمنات على المشركين	يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن.....
١٠٥	٢٩	٣٠٦		١١	في حكم زواج المؤمنين من نساء مؤمنات كن زوجات للكفار	وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم.....

#### ٥ - في أحكام الطلاق والعدة والظهار وما يلحق بها .

١٠٦	٦	٨٥	البقرة	٢٢٦ و	مقدار الفترة التي ينتظرها الزوج ليسترد مطلقته	للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فآؤوا فإن الله غفور رحيم
١٠٧	٦	٩١		٢٢٧	عدة المطلقة غير الحامل	والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء.....
١٠٨	٦	١٠٣		٢٢٩	عدد مرات الطلاق	الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.....
١٠٩	٦	١١١		٢٣٠	ما يترتب على الطلاق للمرة الثالثة	فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.....
١١٠	٦	١١٦		٢٣١	النهي عن مضارة النساء في عدتهن	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن.....
١١١	٦	١١٩		٢٣٢	النهي عن منع المرأة العودة إلى زوجها	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن.....
١١٢	٦	١٣٤		٢٣٤	عدة المتوفى عنها زوجها	والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً.....
١١٣	٦	١٤٤		٢٣٥	التعريض بالخطبه وقت العدة	ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم....
١١٤	٦	١٤٥		٢٣٦	طلاق المرأة قبل أن تمس	لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوهن فريضة.....

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآية	الآيات
١١٥	٦	١٥١		٢٣٧	كم تأخذ المطلقة قبل المس من المهر	وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ....»
١١٦	٦	١٦٩		٢٤٠— ٢٤١	في التوفى عنها زوجها	من قوله «والذين يتوفون منكم» إلى قوله «حقاً على المتقين» الآية ٢٤١
١١٧	٢٥	٢١٩	الاحزاب	٤٩	لا عدة على المطلقة قبل الدخول	يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ....»
١١٨	٢٩	٢٤٩	المجادلة	١	مقدمة الحكم	قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله
١١٩	٢٩	٢٥٥		٣—٢	الظهار وكفارته	من قوله «الذين يظاهرون منكم ...» إلى قوله «بما تعملون خبير» آية ٣
١٢٠	٢٩	٢٦١		٤	كفارة أخرى للظهار	فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتاسا ....»
١٢١	٣٠	٢٩	الطلاق	٢—١	في الطلاق والعدة والإشهاد على الطلاق	من قوله «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء» إلى قوله «يجعل له مخرجاً» آية (٢)
١٢٢	٣٠	٣٥		٤	عدة اليائسات من الحيض	واللاتي يشسن من الحيض من نساءكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ....»

## ٦— في أحكام الإرضاع

١٢٣	٦	١٣٣	البقرة	٢٣٣	في أحكام الرضاعة	والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ....»
١٢٤	٢٨	١٢	الاحقاف	١٥	الإرضاع والفصال والحمل	ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه كرها ووضعته كرهاً ....»
١٢٥	٣٠	٣٦	الطلاق	٧—٦	الإرضاع والإنفاق على الولد	من قوله «استنكوهن ...» إلى قوله «سيجعل الله بعد عسر يسراً»

## ٧— في أحكام التبني

١٢٦	٢٥	١٩٤	الأحزاب	٥	النهي عن التبني	أدعوهم لأبائهم هو أقمسط عند الله ....»
١٢٧	٢٥	٢١٥		٤٠	نسخ التبني في الإسلام	ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله ....»

تسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآية ....
١٢٨	٢٥	١٩٥	الأحزاب	٦	زوجات النبي أمهات المؤمنين وغيرها	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .....
١٢٩	٢٥	٢٠٨		٣٠-٣٤	أجر نساء النبي وعقابين مضاعف ولهن مزية على نساء المؤمنين عامة .	من قوله « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » آية ٣٠ إلى قوله « إن الله كان لطيفاً خبيراً » نهاية الآية ٣٤ .
١٣٠	٢٥	٢٥٢		٥٢	لا يحل للنبي النساء من دون زوجاته	لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن .....
١٣١	٢٥	٢٢٤		٥٣-٥٤	معاملة المؤمنين للنبي ﷺ في بيته	من قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي » إلى قوله « بكل شيء عليماً » آخر آية ٥٤
١٣٢	٢٥	٢٢٨		٥	من يدخل على نساء النبي من الرجال ؟	لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن .....
١٣٣	٢٥	٢٢٨		٥٦	في الصلاة على النبي ﷺ	إن الله وملائكته يصلون على النبي .
١٣٤	٢٥	٢٢٩		٥٧-٥٨	حرمة إيذاء النبي والمؤمنين	من قوله « إن الذين يؤذون الله ورسوله » إلى قوله « وإنما مبيناً » آية ٥٨
١٣٥	٢٥	٢٣١		٥٩	في حجاب نساء النبي ونساء المؤمنين	يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين .....
١٣٦	٢٨	١١٠ و ١١٨	الحجرات	١-٥	آداب التعامل مع النبي ﷺ	من قوله « يا أيها الذين آمنوا » آية (١) إلى قوله « والله غفور رحيم » نهاية الآية (٥)
١٣٧	٢٩	٢٧٠ و ٢٧٣	المجادلة	١٢-١٣	آداب مناجاة الرسول ﷺ	من قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا اتاجتم الرسول » إلى قوله « والله خير بما تعملون » آية (١٣)
١٣٨	٣٠	١٧١ و ١٧٧	الزمل	١-٧	النبي ﷺ وقيام الليل	من قوله « يا أيها المزمل » آية (١) إلى قوله « إن لك في النهار سبحاً طويلاً » آية ٧

## ٩- في أحكام الأظعمة والذبائح والندور .

١٣	٥	٢	البقرة	١٦٨	إباحة الأكل من الحلال	يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً .....
١٤	٥	٩		١٧٢	إباحة الأكل من الطيب الحلال	يا أيها الذين آمنوا كلوا مما رزقناكم .....



التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
١٤١	٥	١١		١٧٣	أنواع من محرمات الطعام	إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ....
١٤٢	٧	٧٥		٢٧٠	في مشروعية النذر	وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ....
١٤٣	١١	١٣٤	المائدة	٣	في أنواع المحرمات من الأطعمة	حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ....
١٤٤	١١	١٤٤		٤	الحلال من الأطعمة	يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ....
١٤٥	١١	١٥٢		٥	طعام أهل الكتاب حلال	اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب ....
١٤٦	١٢	٧٤		٨٧	النهي عن تحريم الحلال من الطعام	يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ....
١٤٧	١٢	٧٦		٨٨	الأمر بالأكل من الحلال الطيب	وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين
١٤٨	١٢	٨٨		٩٣	في حكم الأطعمة	ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ....
١٤٩	١٣	١٧٧-١٧٣	الأنعام	١١٨ و ١٢١	حكم أكل ما ذكر إسم الله عليه وما لم يذكر	من قوله «فكلوا مما ذكر اسم الله عليه» آية ١١٨ إلى قوله «إنكم لمشركون» نهاية آية ١٢١
١٥٠	١٣	٢٣٠-٢٢٧		١٤٣ و ١٤٦	في أحكام الذبائح وحل الطعام وحلاله	من قوله «ثمانية أزواج من الضأن ..» آية ١٤٣ إلى قوله «وإنا لصادقون» نهاية آية ١٤٦
١٥١	٢٠	١٣٣-١٣١	النحل	١١٤ و ١١٦	في الحلال والحرام من الطعام	من قوله «فكلوا مما رزقكم الله ..» آية ١١٢ إلى قوله «لا يفلحون» نهاية الآية ١١٦
١٥٢	٢٣	١٠٤	المؤمنون	٥١	الأكل من الطيبات	يا أيها الرسل كلوا من طيبات ما رزقناكم واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم
١٥٣	٣٠	٢٤٣	الدهر	٧-٩	الوفاء بالنذور والإطعام في حب الله	من قوله «يوفون بالنذر ..» إلى قوله «... جزاء ولا شكوراً» آية ٩
١٥٤	١٤	٦٩-٦٤	الأعراف	٣١-٣٣	النهي عن الإسراف وبيان المحرمات	من قوله «يا بني آدم خذوا زينتكم ..» آية ٣١ إلى قوله «ما لا تعلمون» نهاية آية ٣٣
١٥٥	١٢	١١٥	المائدة	١٠٣	حكم البحيرة والسائبة والوصيلة	ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ....

## ١٠ - في أحكام الموارث والوصايا

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
١٥٦	٥	٦٢	البقرة	١٨٠ و ٢٨٢	الوصية وأحكامها	من قوله « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت » إلى قوله « إن الله غفور رحيم » نهاية الآية ١٨٢
١٥٧	٩	٢٠٠ و ٢١٤	النساء	١٤-٧	في الموارث والوصايا	من قوله « للرجال نصيب » آية ٧ إلى قوله « عذاب مهين » نهاية آية ١٤
١٥٨	١٠	١٠		١٩	في الموارث	يا أيها الذين آمنوا لا يجل لكم أن ترثوا النساء كرها ....
١٥٩	١٠	٨٦		٨٣	في الإرث	ولكل جعلنا مولى مما ترك الوالدان والأقربون ....
١٦٠	١١	١٢٢		١٧٦	في الكلاية	يستفتونك قل الله يفتكم في الكلاية إن امرؤ هلك ليس له ولد ....

## ١١ - في أحكام اليمين

١٦١	٦	٨٠	البقرة	٢٢٤	النهي عن اتخاذ الله عرضة	ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم ....
١٦٢	٦	٨١		٢٢٥	لليمين لغو اليمين	لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ....
١٦٣	١٢	٧٧	المائدة	٨٩	لغو اليمين وعقده وكفارته	لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان ...
١٦٤	٢٠	١٠٨	النحل	٩٢-٩١	النهي عن نقض اليمين بعد توكيده	من قوله « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » آية ٩١ إلى قوله « فيه تختلفون » آية ٩٢
١٦٥	٢٠	١١٢		٩٥-٩٤	النهي عن نقض اليمين	من قوله « ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً » آية ٩٤ إلى قوله « إن كنتم تعلمون » آية ٩٥
١٦٦	٢٦	٢١٢	ص	٤٤	الحنث باليمين	ونخذ بيدك اضغثاً فأضرب به ولا تحنث ....
١٦٧	١٠	٤٣	التحریم	٢	تحلة اليمين	قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

## ١٢ - في أحكام الخمر والميسر

١٦٨	٦	٤٢	البقرة	٢١٩	سؤال عن الخمر والميسر	يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس ....
١٦٩	١٢	٨٧-٨٤	المائدة	٩٢-٩٠	القطع بجرمة الخمر والميسر	من قوله « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » إلى قوله « إنما على رسولنا البلاغ المبين » نهاية الآية ٩٢

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
١٧٠	٢٠	٦٩	النحل	٦٧	إشارة لقبح السكر	ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً....

### ١٣ - في أحكام الجهاد في سبيل الله وما يتعلق به

١٧١	٥	١٣٧	البقرة	١٩٠	الأمر بقتال من يقاتل المسلمين	وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين
١٧٢	٥	١٣٩-١٤٦		١٩١ و ١٩٥	القتال في الشهر الحرام وغيره	من قوله «واقتلوهم حيث ثقتهموهم...» إلى قوله «إن الله يحب المحسنين» نهاية الآية ١٩٥
١٧٣	٦	٢٧		٢١٦	فرضية الجهاد	كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم....
١٧٤	٦	٣٠		٢١٧	القتال في الشهر الحرام	يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير....
١٧٥	٦	١٧٨		٢٤٤	أمر بالقتال	وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم
١٧٦	١٥	١١٧	الأنفال	١	في أحكام النية	يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول....
١٧٧	١٥	١٤١		١٥-١٦	النهي عن تولية الأعداء	من قوله «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً....» الآية ١٥ إلى قوله (.... وماواه جهنم وبئس المصير» نهاية الآية ١٦
١٧٨	١٥	١٦٩	الأنفال	٤١	تقسيم الغنائم	واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول....
١٧٩	١٥	١٩١		٦٠	الأمر بالإعداد للقتال	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل....
١٨٠	١٥	١٩٣		٦١	في أحكام السلم	وإن جنحوا للسلم فاجنح لها....
١٨١	١٥	١٩٧		٦٥	الأمر بالتحريض على القتال	يا أيها النبي حرص المؤمنين على القتال....
١٨٢	١٥	٢٠٣-٢١٠		٦٧-٧٠	في الأسرى وحكم الأكل من الغنائم	من قوله «ما كان لبي أن يكون له أسرى...» إلى قوله «والله غفور رحيم» آية ٧٠
١٨٣	١٥	٢٣١	التوبة	٤-٥	معاهدة المشركين وقتالهم	من قوله «إلا الذين عاهدتم من المشركين» إلى قوله «إن الله غفور رحيم» آية ٥

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الأحكام	الآيات
١٨٤	١٥	٢٣٥ و ٢٣٧		٧-٦	اجارة المشركين	« وان أحد من المشركين استجارك .. » إلى قوله « إن الله يحب المتقين » آية ٧
١٨٥	١٥	٢٤٠		١٢-١١	توبة المشركين أو نكثهم بالمهد	« فإن تابوا وأقاموا الصلاة .. » إلى قوله « لعلمهم ينتهون » نهاية الآية ١٢
١٨٦	١٦	٢٨		٢٩	الجزية	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ...
١٨٧	١٦	٥١		٣٦	الأشهر الحرم والقتال فيها	إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ....
١٨٨	١٦	٥٧		٣٧	النسيء زيادة في الكفر	إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ...
١٨٩	١٦	١٦٣ و ١٦٦		٩٣-٩١	المعدورون عن الجهاد	من قوله « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » إلى قوله « فهم لا يعلمون » نهاية آية ٩٣
١٩٠	١٦	٢٣٠ و ٢٣٤		١٢٢ و ١٢٣	في النفي والقتال	من قوله « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » إلى قوله « أن الله مع المتقين » نهاية الآية ١٢٣
١٩١	٢٣	٣٩	الحج	٤٠-٣٨	الجهاد ونصر المؤمنين	من قوله « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » إلى قوله « إن الله لقوي عزيز » آية ٤٠
١٩٢	٢٨	٤٣	محمد	٤	في القتال والأسرى	فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ....
١٩٣	٢٨	٧٢		٣٥	لا يدعوا لمسلم الى السلم عن ضعف	فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم .....
١٩٤	٢٨	٩١	الفتح	١٥	المخلفون والغنائم	سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها .....
١٩٥	٢٨	٩٥		١٧	المعفورون من الجهاد	ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج .....
١٩٦	٢٨	١٠٠		٢٥	قتال بلد فيه مسلمون مغلوبون غير مميزين	هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً .....
١٩٧	٢٩	٢٨٦	الحشر	٨-٧	في أحكام النية	من قوله « ما أفاء الله على رسوله » إلى قوله « أولئك هم الصادقون » آية ٨
١٩٨	٩	٧١	آل عمران	١٦١	وما كان لبني أن يغفل	وما كان لبني أن يغفل القيامة .....
١٩٩	١٠	٢٠٩	النساء	٨٤	الجهاد والنفي	فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين .....
٢٠٠	١١	٦		٩٦-٩٤	الجهاد	من قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم .. » إلى قوله « وكان الله غفوراً رحيماً » آية ٩٦

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	رقم الآية	السورة	موضوع الآيات	الآية
٢٠١	٥	٤٩	١٧٨ و ١٧٩	البقرة	في أحكام القصاص	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى.....»
٢٠٢	٩	٢٣٧ و ٢٤٢	١٦-١٥	النساء	عقاب من أتى الفاحشة من الرجال والنساء (ولكن هذا الحكم منسوخ)	والأتي يأتين الفاحشة من نسائكم.....» إلى قوله «إن الله كان أتواً رحيماً» نهاية الآية ١٦
٢٠٣	١١	٢٣٢	٩٢	النساء	دية المؤمن المقتول خطأ	وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ.....»
٢٠٤	١١	٢٤٣	٩٣		جزاء قتل المؤمن عمداً	ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها.....»
٢٠٥	١١	٢١٦ و ٢٢٤	٣٥-٣٢	المائدة	القصاص والجزاء العام	من قوله «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل...» إلى قوله «لعلكم تفلحون» نهاية الآية ٣٥
٢٠٦	١١	٢٢٨	٣٩-٣٨		في حد السرقات	من قوله «والسارق...» إلى قوله «إن الله غفور رحيم» نهاية الآية ٣٩
٢٠٧	١٨	٣٨	٨٣-٨٢	هود	حد فاعل فعل قوم لوط	من قوله «فلما جاء أمرنا...» إلى قوله «وما هي من الظالمين إبيعد» آية ٨٣
٢٠٨	٢٠	١٤٢	١٢٦	النحل	المعاقبة بالمثل	فإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولن صيرتم لهُو خيراً للصابرين»
٢٠٩	٢٠	١٩٧	٣١	الإسراء	النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر	ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم.....»
٢١٠	٢٠	١٩٨	٣٢		النهي عن الزنا	ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً.
٢١١	٢٠	٢٠٠	٣٣		في تحريم قتل النفس المحرمة والقصاص	ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.....»
٢١٢	٢٣	٥٨	٦٠	الحج	المعاملة بالمثل في العقاب عدل	ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم ابغى عليه لينصرنه الله إن الله لَغفورٌ رحيمٌ»
٢١٣	٢٣	١٣١ و ١٥٠	٣-١	النور	في الزنا وحدوده	سورة أنزلناها وفرضناها» إلى قوله «وحرم ذلك على المؤمنين» آية ٣
٢١٤	٢٣	١٥٣	٥-٤		حد قاذف البريشات من المسلمات	من قوله «والذين يرمون المحصنات...» إلى قوله «بأن الله غفور رحيم» نهاية الآية ٥
٢١٥	٢٣	١٦٥	١٠-٦		قذف الزوجة والملاعنة	من قوله «والذين يرمون أزواجهم» إلى قوله «وأن الله أتواب حكيم» نهاية الآية ١٠

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
٢١٦	٢٧	١٧٧	الشورى	٤٠-٤١	جزاء سيئة سيئة مثلها	من قوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» إلى قوله «وأولئك لهم عذاب أليم» آية ٤١

## ١٥ - في أحكام العقيدة

٢١٧	٧	١٥	البقرة	٢٥٦	لا إكراه في الدين	لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي....»
٢١٨	٨	١٣٨	آل عمران	٨٥	من يتبع غير الإسلام	ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين
٢١٩	١٠	١٦٧	النساء	٦٥	حكم من لم يرضى بحكم الله	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم....»
٢٢٠	١١	٢٣٧	المائدة	٤٤-٤٧	حكم من لم يحكم بالكتاب من أهل الكتاب	من قوله «إن أنزلنا التوراة فيها هدى ونور....» إلى قوله «فأولئك هم الفاسقون» نهاية الآية ٤٧. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من اله الا إله واحد»
٢٢١	١٢	٦٣	يونس	٧٣	النهي عن دعاء غير الله	ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك إذا من الظالمين»
٢٢٢	١٧	١٧٨	يوسف	١٠٦	في حكم الإصابة بالعين	وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة....»
٢٢٣	١٨	٦٧	يوسف	٦٧	اليأس من روح الله	يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله لأنه لا يا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون»
٢٢٤	١٨	١٩٦	يوسف	٨٧	من كفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان	من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان....»
٢٢٥	٢٠	١٢٢	النحل	١٠٦	السدوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة	أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة....»
٢٢٦	٢٠	١٣٩	النحل	١٢٥	دعاء الله باسمائه الحسن	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى....»
٢٢٧	٢١	٧٠	الإسراء	١١٠	إذا طلب الوالدين من الولد الكفر	ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون»
٢٢٨	٢٥	٣٦	العنكبوت	٨٣		

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	رقم الآية	السورة	موضوع الآيات	الآيات
٢٢٩	٢٥	٢١٢	٣٦	الأحزاب	ليس للمؤمن الخيرة من أمره إذا قضى الله ورسوله أمراً	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً .
٢٣٠	٢٧	٣	٥٣	الزمر	حكم اليأس من زوج الله	قل يا عبادي الذين أسرقوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ....
٢٣١	٢٨	١٤٠ و ١٤٤	١٨-١٤	الحجرات	الإيمان والإسلام وشروطها	من قوله « قالت الأعراب آمنا ... » آية ١٤ إلى قوله « والله بصير بما تعملون » آية ١٨
٢٣٢	٢٩	٢٣٦	٢٣-٢٢	الحديد	في أحكام القضاء والقدر	ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها

## ١٦- في عامة الأحكام

٢٣٣	٣	٢٣٤-٢٣٠	١٠٢ و ١٠٣	البقرة	في أحكام السحر	واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ....
٢٣٤	٣	٢٤١	١٠٤		النهي عن قول راعنا بل انظرنا	يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ....
٢٣٥	٣	٢٤٤ و ٢٥٣	١٠٦ و ١٠٨		في أحكام النسخ والمنسوخ	من قوله « ما ننسخ من آية أو ننسها .. » إلى قوله « فقد ضلّ سواء السبيل » الآية ١٠٨
٢٣٦	٥	٣٧	١٧٧		حقيقة البر	ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
٢٣٧	٧	١٧٩	٧	آل عمران	متشابه القرآن ومحكمه	هو الذي أنزل عليك القرآن منه آيات محكمات هن أم الكتاب ....
٢٣٨	٨	١٠	٢٨		في حكم اتخاذ المؤمن الكافر ولياً له	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ....
٢٣٩	٨	٧٤	٥٥		عيسى لم يمّت ولكن رفع	إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعتك إلي ومطهرتك من الذين كفروا ....
٢٤٠	٨	٨٦	٦١		في حكم المباهلة	فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين
٢٤١	٨	١٨١	١٠٤		وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ....
٢٤٢	٩	١٦٨	١	النساء	صلة الرحم	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً .

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
٢٤٣	١٠	١٦—١	النساء	١٧—١٨	في أحكام التوبة	من قوله «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء...» إلى قوله «عذاباً أليماً» نهاية الآية ١٨
٢٤٤	١٠	١٤٢		٥٨	في حكم الأمانة وردها	إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها....»
٢٤٥	١٠	١٤٧		٥٩	رد الحكم إلى الله وإطاعة أولى الأمر	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم....»
٤٤٦	١٠	٢١٤		٨٦	رد التحية	وإذا حيمت بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها....»
٢٤٧	١٠	٢٢٦ و ٢٣١		٨٩—٩١	في النهي عن موالة المناققين	من قوله «ودوا لو تكفرون كما كفروا...» إلى قوله «... سلطاننا مينا»
٢٤٨	١١	٣٥		١٠٧	النهي عن المحادثة عن الكافرين	ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم....»
٢٤٩	١١	٨٢		١٤٠	حكم الجلوس مع من يسخر بآيات الله	وقد أنزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفربها....»
٢٥٠	١١	٩١		١٤٨	حكم الجهر بالسوء للمظلوم	لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً»
٢٥١	١٣	٢٦	الأنعام	٦٨	من جالس المنحرفين وهو غير عالم بذلك	وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم....»
٢٥٢	١٣	١٤٦		١٠٨	النهي عن سب الكافرين	ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم....»
٢٥٣	١٣	٢٤٣ و ٢٤٦		١٥١ و ١٥٢	في أنواع المحرمات من كل شيء	من قوله «قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم...» إلى قوله «... ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون» نهاية الآية ١٥٢.
٢٥٤	١٥	٢١٤	الأنفال	٧٢—٧٥	المؤمنون أولياء بعض والكافرون أولياء بعض	من قوله «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم...» إلى قوله «... إن الله بكل شيء عليم» آخر السورة.
٢٥٥	١٦	١٨—١٩	التوبة	٢٣—٢٤	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ولو كانوا أولى قريبي	من قوله «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء...» إلى قوله «... والله لا يهدي القوم الفاسقين» نهاية الآية ٢٤
٢٥٦	١٦	٢١٣		١١٣ و ١١٤	النهي عن الإستغفار للمشركين	من قوله «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...» إلى قوله «... إن إبراهيم لأواه حليم» نهاية الآية ١١٤



التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآية
٢٥٧	٢٠	١١٦	النحل	٩٨	الإستعاذة قبل التلاوة	فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم
٢٥٨	٢٠	١٨٣ و ١٨٥	الإسراء	٢٣—٢٢	في أحكام معاملة الوالدين	من قوله «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً...» إلى قوله «رب ارحمهما كما ربياني صغيراً» نهاية الآية ٢٣
٢٥٩	٢٠	٢٠٨		٣٦	التبث من الحديث	«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد...»
٢٦٠	٢٠	٢١٢		٣٧	النهي عن مشية الخيلاء	ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحزق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً
٢٦١	٢١	٢٢٨	مريم	٤٩—٤١	غضب الأبوين الكافرين على الإبن المؤمن من أجل الإيمان	من قوله «واذكر في الكتاب إبراهيم...» إلى قوله «... وكلاً جعلنا نبياً» آخر الآية ٤٩
٢٦٢	٢٣	١٩٨	النور	٢٩—٢٧	آداب الإستئذان	من قوله «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم...» إلى قوله «... وما تكتمون» نهاية الآية ٢٩
٢٦٣	٢٣	٢٠٢		٣١—٣٠	غض البصر	من قوله «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم...» إلى قوله «... لعلكم تفلحون» نهاية الآية ٣١
٢٦٤	٢٤	٢٧	النور	٦٠—٥٧	إستئذان الأرقاء والصبيان	من قوله «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم...» إلى قوله «والله سمع عليم» نهاية الآية ٦٠
٢٦٥	٢٥	١٤	القصص	٧٧	النهي عن الفساد في الأرض	وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين
٢٦٦	٢٥	١٢٠	الروم	٣٠	حكم تبديل خلق الله	فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله..»
٢٦٧	٢٥	١٤٨	لقمان	١٥	إطاعة الوالدين في غير معصية	وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها...»
٢٦٨	٢٥	١٥٠		١٩—١٦	آداب عامة وعبادات	من قوله «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل...» إلى قوله «لصوت الحمير» نهاية آية ١٩
٢٦٩	٢٥	٢٤٩	سبأ	١٣	الصور والنحت والتماثيل	يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب...»

التسلسل	الجزء	رقم الصفحة	السورة	رقم الآية	موضوع الآيات	الآيات
٢٧٠	٢٦	١٥٢	الصافات	١٠٢ و ١٠٥	رؤيا الأنبياء	قوله تعالى « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ... » إلى قوله « ... إنا كذلك نجزي المحسنين » آخر آية ١٠٥
٢٧١	٢٨	١١٨	الحجرات	٦	الأمر بالثبوت من الأخبار	يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .....
٢٧٢	٢٨	١٢٨		٩—١٠	الصلح بين المسلمين	من قوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... » إلى قوله « لعلكم ترحمون » آية ١٠
٢٧٣	٢٨	١٣١		١١	السخرية والتنازع بالألقاب	يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم .....
٢٧٤	٢٨	١٣٤		١٢	الظن والتجسس	يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم .....
٢٧٥	٢٩	٢٢٨	الحديد	١٦	النهي عن تقليد أهل الكتاب	ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق .....
٢٧٦	٢٩	٢٦٧	المجادلة	٩—١٠	المناجاة بين إثنين وأكثر	من قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم ... » إلى قوله « ... وعلى الله فليتوكل المؤمنون » آية ١٠
٢٧٧	٢٩	٢٦٩		١١	آداب المجالس	يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا .....
٢٧٨	٢٩	٢٢٦ و ٢٠٣	المتحفة	١—٩	الولاء بين المؤمنين والكافرين	من قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ... » إلى قوله « ... فأولئك هم الظالمون » نهاية الآية ٩
٢٧٩	٢٩	٣٠٧		١٢	بيعة النساء	يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباعدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً .....
٢٨٠	٢٩	٣٠٩		١٣	النهي عن ولاء من غضب الله عليه	يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم .....
٢٨١	٣٠	٤٧	التحریم	٨	في أحكام التوبة	يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً .....